حكايات على طاولة الإعدام

- **عنوان الكتاب**: حكايات على طاولة الإعدام
- **تصنيف الكتاب**: مجموعة قصصية
- **اسم المؤلف**: محمود حسين
- **رقم الإيداع**: 2024/32360
- **الترقيم الدولي**: 978-977-9677-83-5
- **الطبعة الأولى**: 2024
- **الناشر**: مؤسسة غايا للإبداع

- **01066749525 - 01094075948**
- **publishing@ghayaeg.com**
- **https://ghayaeg.com/**
- **https://www.facebook.com/ghayaeg/**
- **https://www.instagram.com/ghayaeg/**
- **https://www.youtube.com/@Ghaya-7**

جميع الحقوق محفوظة للناشر: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي مسبق من الناشر.

محمود حسين

حكايات على طاولة الإعدام

مجموعة قصصية

إهداء

للقابضين على الجمر في زمننا هذا

المتمسكين بإنسانيتهم

أو جزء منها

ولو القليل

[1]

هامش الدنيا

لم يكن من المفترض أن تمضي الأمور على هذا النحو..

أمثالي يموتون على فراشهم، يغادرون الدنيا في هدوء كما جاؤوا إليها وعاشوا فيها.. اعتدت دائمًا التندر على اسمي الذي يُلخص حالي، أنا «صابر راضي»، ملكت في أيام الشباب ما لا يُحصى من الأماني والأحلام التي خفت بريقها في عيني بعدما ضعف إبصارُها، بعضها لم يعد يليق بوقار الشائب، وبعضها لم يعد باقيًا من العمر ما يكفي لتحقيقه، فأودعتها ركن المُهملات في ذاكرتي، ربما تلك مهارة اكتسبتها من طول عملي في قسم المحفوظات بإحدى الإدارات الحكومية قبل أن يحيلوني للمعاش، منذ أيام قلائل أتممت عامي الرابع والستين، وبلغت عامي الأخير بأمر قاضي محكمة الجنايات!

نشأت في كنف الأولياء بحيّ مصر القديمة، كان والدي مجرد عامل بناء، واحد ممن كتبت الحياة عليهم ألا يلتفتوا لأمس أو يحتسبوا لغدٍ، يستيقظ بكل صباح ليحيا يومه كأنه الأول والأخير، يخرج للمجهول ليعود بالمقسوم، ولئن مَسته لفحة هواء تضورنا جوعًا. ربما لذلك أصر على إلحاقي بالمدرسة، وكان أمله الأكبر أن أصبح موظفًا عموميًّا، أفندي، يرتدي بذلة كاملة، ويجلس موقرًا خلف أحد المكاتب، ويتقاضى راتبًا شهريًّا معلومًا.

لم يسمح لي يومًا بالحياد عن الطريق الذي رسمه، انطوت السنين، وأصبحت موظفًا كما رغب لكن ليس كما أراد، احتسب لكل شيء عدا تقلبات الزمن، لم يعد الموظف يرتدي بذلة، وبات ذكره يُلحق بوصف «المطحون» ويصوره الكاريكاتير هزيلًا حافيًا في ثياب ممزقة.

حدثتني أمي عن رغبتها في أن تسعد بزواجي وتحمل ما سمَّته «عوضي»، ولم أملك سوى الرضوخ أمام إلحاحها، فتولت بنفسها البحث عن ابنة الحلال التي تصون العِشرة وتحفظ السر وتتحمل مُر الأيام، وتعينني على استكمال دورة الحياة وحفظ سلالة المهمشين من الانقراض! وفيما يخص النقطة الأخيرة كان لا بد من الحذر، حين تقرر الإنجاب فإنك تسمح لجزء منك بالانفصال عنك، قطعة من جسدك ونفحة من روحك تحيا خارجة عن سيطرتك وإرادتك، جزء تأثيره عليك يفوق تأثره بك ولو أوهمت نفسك بعكس ذلك.

سمَّيته «أحمد» واختلفت الحياة بعد مجيئه إليها، هو الشمس، وكل شيء آخر يدور في فلكه، وكل ما يحدث بسببه ولأجله.. أقلعت عن التدخين توفيرًا للمال، وقللت عدد مرات ترددي على المقاهي، وصرت موظفًا نموذجيًّا، يرتضي العيش على الهامش، يجاهد لحفظ سجله خاليًا من الجزاءات، يرتقب العلاوات الدورية، ويراقب الأسعار بالأسواق، يحتسب لحلول الأعياد، ويحسب المعاش الذي سوف يتقاضاه بعد طول عناء.

توالت السنين وكان الطريق أقصر مما ظننت، ومن كنت أحمله بالأمس على كتفي وتسعده قطع الحلوى والألعاب البلاستيكية الرخيصة، صار شابًا يافعًا يصعب إرضاؤه، ربيته مثلما فعل أبي، ومثله لم أحتسب لتقلبات الأيام!

جئت به للحياة في زمن مختل، سوق كبير، كل شيء به مطروح للبيع، بطاقة تعريف الشخص باتت علامة تجارية مُلصقة على ملابسه، ينال الاحترام على قدر رصيده المصرفي، حتى الزيجات تتم بالمزايدة، والأخلاق تحولت لسلعة راكدة لا تساوي شيئًا، والأصل مزحة سخيفة مَلَّ الناس تكرارها.

لم يرضَ «أحمد» يومًا عن حياتنا ولم أستطع لومه، كيف أفعل وأنا نفسي لست راضيًا، الفارق بيننا أنني اعـتدت تجرُّع الصبر وألفت العيش على الهامش الذي ضاق هو به، ربما في لحظة ما تمنى لو كان له أب غيري، وبكل لحظة لم أرجُ من الدنيا ابنًا سواه.

كانت صدمتي كبيرة حين جاءني استدعاء من المدرسة الثانوية ليخبروني بأن ابني قد تم ضبطه يبيع لزملائه قصاصات من مجلات إباحية، وكانت الصدمة أكبر حين وطأت قدمي قسم الشرطة لأول مرة، لأضمنه بعد مشاجرة مع أقرانه لأجل إحدى الفتيات، لم يتوانَ عن توريط نفسه بالمشاكل، ولم أتوانَ عن انتشاله منها بإذلال النفس والتوسل للآخرين.

في كل مرَّة كنت أثور عليه، ألعنه وأتوعده، وربما دعوت الله بقبض روحه وتخليصي من شروره، وعندما يحل المساء ويهدأ الضجيج أنصب داخل عقلي محكمة أنا فيها القاضي والمتهم والمُدعي والدفاع، أضع ذاتي في القفص، أتهمها بإساءة التربية وأدافع عنها بما بذلته وتحملته، وأقضي عليها بالاستمرار في الحيرة والشقاء، وصدقًا لا أعلم أيّنا للآخر ظالم.

واصلت الأيام تواليها، كبر «أحمد»، وتعاظم الغضب الكامن في صدره، وتنامى الحاجز الفاصل بيننا، الثابت الوحيد أنه ظل ابني برضائي وبقيت أباه رغمًا عنه.. حصل بشق الأنفس على بكالوريوس التجارة بعد

ثلاث مرات رسوب، وأوجد لنفسه وظيفة بأحد مراكز التسوق الكبرى المنتشرة فروعه بأرجاء المدينة، وبقدر ما بدت متواضعة في البداية اتضح بعد حين أنها تُدِر ذهبًا.

استبدل بهاتفه المحمول آخر من الأنواع الحديثة، وأضاف إلى خزانة ملابسه عشرات القطع، وبات يساهم في مصاريف البيت بانتظام، ولم أكن لأتمنى أكثر من ذلك، استقرت أحواله فاطمأننت عليه، ولم أعد أخشى الرحيل عن الدنيا.

عثرت أمه في أحد الأيام على رُزم نقدية مُخبأة بين طيات ملابسه، ربما خمسة آلاف جنيه أو أكثر قليلًا، سألته عنهم فأجاب بأن صديقًا قد أودعهم لديه؛ لكن أي صديق هذا؟ ولماذا قد يفعل ذلك؟! لم نلقَ منه إلا أقاويل مضطربة وإجابات مبتورة، فتحت أبواب العقل على مصراعيها أمام وساوس الشيطان.

ظللنا أسابيع نبحث عن تفسير، إلى أن جاءتنا الإجابة بمنتصف إحدى الليالي الظلماء، حين ارتفع صوت رنين جرس الباب المُلح، وعَرّف زائر الفجر نفسه بأنه زميل «أحمد» في العمل، ومن ثم اختليا بنفسيهما بإحدى الغرف، فلم أقوَ على كبح رغبتي في التنصت وليتني ما فعلت، العمى نعمة لا ندركها إلا حين نُبصر فظائع الحقيقة.

انسحب الدم من أوردتي وامتلأ القلب رهبة وأنا أستمع لحديثهما، لوهلة تشككت بأني داخل كابوس؛ لكن كل شيء حولي بدا حقيقيًّا، حقيقيًّا بصورة مُفزعة! تبيّنت أن مصدر الأموال اتفاق مشبوه أبرمه «أحمد» وزميله هذا مع طرف ثالث يُورّد لهم بضائع مُتلاعبًا بتاريخ صلاحيتها، بثلث سعرها الأصلي، ليستبدلوا بها ما مودع لديهم بالمخازن، ثم يقتسمون فارق السعر فيما بينهم.

أغراهم انتفاخ جيوبهم فتمادوا، واستقر الحال حينًا حتى خالوه سيدوم، لولا أن أرسل القدر لهم زميلًا جديدًا، حطّ فوق رؤوسهم كما البلاء، والليلة فقط كُشف سترهم، فجاء هذا الشخص لـ«أحمد» ينذره، وأخبره بأن أمامهم ثلاثة طرق ليسلكوها، إما يتوعدونه بالأذى، أو يشركونه معهم، أو يلفقون الأمر برمته له ويدعونه يحمل وِزر أفعالهم.

اقتحمت مجلسهم عند هذا الحد، ألومه على ما فعل وأحذره مما ينوي فعله، فقال بأن هذا ليس الوقت المناسب للمواعظ، كان مُحقًا، فات أوان العِظة كما فات أوان تربيته، أيقنت هذا حين صرخ في وجهي وأزاحني من طريقه بغلظة، وغادر رفقة الشيطان الآخر.

كنت أعلم وجهتهما فلحقت بهما إليها، كانت الشوارع ساكنة في تلك الساعة المتأخرة، وأجبر البرد أفراد الأمن المساكين على اللوذ بغرفتهم، وغَلبهم النعاس فلم أجد صعوبة في التسلل لداخل المخزن، وهناك رأيت ثلاثتهم مجتمعين، يُغري «أحمد» بالمال ويهدد شريكه بالهلاك، وثالثهم كان صعب المراس صلب الرأس، لا يزعزعه هذا أو ذاك.

احتد الحوار فعَلَت الأصوات، وبدأ زميلهما يزعق ويهلل، فهرولت إليه قبل أن يجذب صوته الآخرين، سددت فاهه براحة يدي، وبدأت أمارس لعبتي القديمة المعتادة، أردد على مسامعه عبارات التوسل، أستجدي منه العفو والسماح لأجلي أنا، مع وعد بتهذيب «أحمد» وإرغامه على ما يرضيه.. قاومني هذا الشاب قليلًا، ثم استجاب فاستكان وانحبس صوته، وحينها فقط رَفعت قبضتي عنه فتهاوى عند قدمي مُتراخي الأطراف، جاحظ العينين، خامد الحركة!

حضرت الشرطة واقتادوني مُكبلًا، فُتح التحقيق فرَوَيت لهم كل ما سبق وأقسمت عليه، وصَدّق ابني في شهادته على كل حرف نطقت به، ونجح في إخفاء كل دليل قد يُدينه، وسلك مع شريكه الطريق الثالث،

ولفقا الأمر كاملًا للوحيد الذي لا يمكن مساءلته أو استجوابه، قبل أن يتقدما باستقالتيهما ويغادرا المركز التجاري.

لم يأتِ لزيارتي في محبسي، والتمست له العذر في ذلك، لعله أراد اجتناب الشبهة وتفادي كل احتمال لفضح أمره، لا يزال أمامه عمر ليحياه، أما أنا فقد انقضى أمري وصرت من الماضي، لم يبقَ مني سوى وصمة عار ستظل تلاحقه.

تعاقبت عليَّ الليالي، قضيتها وحيدًا، مُنعزلًا في محبسي، تحيطني هواجسي وتنهشني الوساوس، أتذكر في كل لحظة تلك اللحظة التي اندفعت بها لوسط المخزن، استحلفته بأن يُفلت ذلك الشاب من قبضته، وأخبرته بأنه سوف يُلفظ أنفاسه؛ لكنه صَمّ أذنيه عن قولي، والطاعة لم تكن يومًا جزءًا من تكوينه، وحين أفاق من سكرة الغضب كان الأمر قد انقضى، وما أفسده بتلك المرة ما كان ليُصلحه سوى شيء واحد، فوجدتني -رغمًا عني وبدون لحظة تردد- أهلل بين الجميع: «أنا الفاعل.. أنا الفاعل».

جزء مني يؤمن حقًا بأني الفاعل، بقصد أو بدون كنت سببًا فيما صار عليه، كل هذا لا يهم الآن، بلغت نقطة الانتهاء وربما تجاوزتها، أتمنى فقط لو يعلم أني لست نادمًا على ما فعلت، وأني كنت لا أزال أختلق الأعذار لألتمسها له، وسأبقى هكذا لبضعة أيام أخرى...

وبعدها سأتوقف...

سأتوقف عن كل شيء...

❖❖ ❖❖ ❖❖

[2]

نسل الأبالسة

حين خرجت للحياة سمُّوني وحيدًا.. «وحيد أبو الروس عبده زكي»، رغم أني لم أكن كذلك يومًا، منذ لحظة خلقي كان هناك من يشاركني كل شيء، شقيقي «شوقي»، زاحمني رَحِم أمي وقاسمني حليبها، وحتى ملامح وجهي لم تكن لي بمفردي، عشنا كشطرين لإنسان واحد، فكان كلانا ناقصًا.

وُلدنا بإحدى ليالي عام النكسة داخل كوخ منبوذ بضاحية أحد نجوع الصعيد النائية، خرجنا من داخل ذات البطن، ولسنا واثقين كيف دخلنا إليها! كانت أمنا «نعمات متولي» وعرفها الناس باسم «نواعم شخلعة»، الراقصة التي طالما أضاءت ليالي الموالد والأفراح قبل أن يخبو بريقها، امرأة دائمة الاتقاد، لا تطيق خواء فراشها أو جيبها، فلم تمانع أن تملأ الثاني بالأول.

أما الزوج فكان دائم الغياب، يغادر السجن شهرًا ويعود إليه شهورًا، «أبو الروس عبده» الذي اشتهر بلقب «إبليس»، وهي تسمية اكتسبها عن استحقاق وجدارة، فقد كان الرجل يبحث عما هو مُحرّم ليفعله! جاء للنجع شريدًا، لم يُعرف له يومًا أهل أو أصل، نبتة شيطانية أوجدها العدم، وسكن كوخًا منعزلًا خارج نطاق العمران، وأقام إلى جانبه مقهى فقيرًا ليرتزق منه، ولم يكن حظر الأفيون والحشيش ضمن قوانينه، فصار

مقهاه مقصدًا للأشقياء وأبناء الليل، وحين كثر زبائنه صار يوفر لهم المخدرات بنفسه ليُضاعف أرباحه.

بإحدى الليالي جاء أحدهم لـ«أبو الروس» مصطحبًا فتاة التقطها من الطريق، وعرض عليه تأجير كوخه لبضع ساعات، فسال لعابه أمامه الخمسين قرشًا وراقت له الفكرة، وفي غضون أشهر صار هو نفسه الواصل بين الساقطات والأنذال.

يُشيع الناس أنه بهذه الطريقة عَرف «نواعم شخلعة»، وكانت آنذاك فاتنة فتياته وأكثرهن دلالًا، فطمع بها، وتمنَّعت هي بدهاء حتى أسقطت الأحمق في شراكها، وقيدته بحبل الزواج، ويرددون أيضًا أنها فعلت ذلك لتتستر على حمل سِفاح عجزت عن التخلص منه، وإن صَحّت تلك الرواية فأنا و«شوقي» من جمعا رأسي الحرام بالحلال!

كان والداي يجنيان أموالًا كثيرة؛ لكنها كأبخرة الخمر والدخان والحشيش، لا تمكث طويلًا، وتتلاشى قبل أن ندركها، فكان معاشنا ضنكًا، نفترش خشونة الحصير، ونلتحف البرد، ونقتات الخبز الجاف مغموسًا بالمِش أو العسل.. حين بلغنا عامنا السادس، أقبل علينا «أبو الروس» حاملًا رضيعة بعمر الشهرين، سمَّاها «نصرة» تيمنًا بالعبور الذي ابتهج به الجميع حتى الوضعاء أمثاله، قال إنها ابنته، أنجبها من زيجة سرية وماتت أمها متأثرة بحُمى النفاس.

فَسّرت «نصرة» غياب «أبو الروس» وبررت شُح ماله، ولم يسعد كلانا بمقدمها؛ فلم نرَ بها -أنا و«شوقي»- إلا بطنًا جائعة، حَلَّت لتقاسمنا ضيق المسكن وقلة الطعام، أما أمي -بعدما فرغت من صراعها مع «أبو الروس»- رأتها حِملًا زائدًا استثقلته نفسها، فلم تولِها الرعاية

اللازمة، تركتها فريسة للبرد والمرض انتقامًا من أبويها، ولم تكن تُطعمها إلا لتُخرس بكاءها، كان لدى «نصرة» ألف سبب للموت، واختارت أن تحيا.

تعذبنا بكل يوم تولى فيه «أبو الروس» أمرنا، وقسوة أيامه زادتنا صلابة، وحين اشتدت أعوادنا قرر أن يُبادل الأدوار ويولينا أمره، فنشرنا بالأرض لنلتقط الأرزاق بالنهار ونضعها بين يديه بالمساء، فسَخّر «نصرة» لخدمة زبائن مقهاه، وعمل «شوقي» أجيرًا بالحقول، أما أنا فكنت صبيًّا لحلاق الحمير، وقد اختار كلانا الابتعاد والخروج للمراكز القريبة؛ لكن عطن رائحة «أبو الروس» كان أكثر نفاذًا مما ظننا، وأينما وطأت أقدامنا كنا نُنادى «أبناء إبليس»، وهذا ثاني أكثر شيء نكرهه، بعد علمنا بأنه حقيقة لا مهرب منها ولا سبيل لإنكارها.

تربة «أبو الروس» و«نواعم شخلعة» لم تُنبت إلا أشواكًا، ثلاثة إخوة يظلهم سقف واحد، ومتباعدون كالمشارق والمغارب، لا يعتبرون للعلاقة التي أرغمهم عليها القدر أو صِلة الدم التي تربط اثنين منهم على الأقل. كان بيت «إبليس» أضيق من أن يتسع للعواطف، فلم يجمع ثلاثتنا سوى حلم الخلاص من تلك الحياة بكل ما فيها، لا يمكن القول بأننا كرهنا بعضنا البعض؛ لكننا أيضًا لم نفهم للحب معنى، عَلَّمنا أبوانا أن الحياة غابة، وغاية الإنسان فيها النجاة بنفسه، ونفسه فقط، وعليه فعل أي شيء لأجل ذلك.

مضت السنون وماتت أمي، أفسد رئتيها دخان الشيشة، وأهلك كبدها الخمر الرديء، وانكوى جوفها بما احتواه من دنس الغرباء، عجيب أنها عاشت حتى أتمت عامها الثاني والخمسين! ابتلعتها الأرض ولم تورثنا فوقها إلا عارها، كانت «نصرة» -أصغرنا- بهذا الوقت قد

بلغت عامها السابع عشر، فلم يعد هناك ما يمنعنا من الرحيل الذي اعتزمناه يوم فطامنا.

ذكرت أمي كثيرًا اسم «هارون الحامولي»، ابن الخالة المُتيَّم، وتاجر الفاكهة الميسور بالإسكندرية، طالما ندبت حظها، وأبدت لـ«أبو الروس» -في ساعات مشاحناتهما- ندمها لعدم الاستجابة لإلحاحه في طلب الزواج منها.. بدا هذا الشخص خيارًا جيدًا لبداية جديدة؛ لكن يصعب الوثوق بأي كلمة تفوهت بها «نواعم شخلعة» يومًا، قد يكون «هارون» هذا خدعة اختلقتها أو وهمًا تصورته بإحدى نوبات سُكرها.. لم يكن لدينا خيار ولم يكن هناك ما يرهبنا، هنا بشر وهناك بشر، نفس الدناءة والوضاعة والأنانية وادعاء العِفة، لن يكون الأمر أبدًا أسوأ مما عليه!

استقللنا القطار إلى جهتنا، وكانت وكالة الخضر والفاكهة بمنطقة الحضرة أول ما قصدناه بالمدينة الكبيرة، ولم تكن «نواعم» كاذبة كليًّا بالنهاية، فقد كان لـ«هارون» هذا وجود، ولكنه مجرد رئيس لعمال أحد التجار.. رَحّب الرجل بنا حين عرَّفناه بأنفسنا، وأبدى أسفًا حقيقيًّا حين علم بموت أمنا، وندم نيابةً عنها على الطريق الذي سلكته وأفنت به حياتها، وأطربنا أخيرًا بما قطعنا تلك المسافة لسماعه، ووعدنا بالمساعدة.

لم يكن لـ«هارون» زوجة أو أبناء، فعرض أن يأوينا في بيته بمنطقة عزبة سعد، حتى تستقر أحوالنا ونألف حياة المدينة، كان كريمًا مضيافًا، لا يعيبه إلا تحوله في ساعات الليل. الخمر داء وراثي في عائلة أمي، فاعتاد الرجل تجرع زجاجتين من أردأ الأنواع عند غياب الشمس، بعدها يدخل إما في نوبة بكاء حار أو ضحك جنوني، وأحيانًا يخالنا لصوصًا جئنا نسطو على كنزه، ومرّات طردنا شر طردة؛ لكنه في النهاية يسقط مغشيًّا عليه، ثم يصحو ناسيًا كل ما كان، ولحسن الحظ كان يفيق عددًا

كافيًا من الساعات ليفي بوعده، وبفضل علاقاته العديدة أوجد لكل منّا عملًا يناسبه.

عملت «نصرة» بأحد محال الدواجن بالسوق القريب من الوكالة، واستفاد «شوقي» من خبرتنا السابقة فعمل بأحد المقاهي، أما أنا فكنت المنحوس كعادتي، فصرت معاونًا لأحد باعة الخضراوات الجائلين، أتلقى قروشًا لقاء تحميل العربة بالبضائع كل صباح، والطواف بها طيلة النهار، وأنوب أحيانًا عن الحمار في سحبها حين يكل أو يمرض.

أثبتت «نصرة» أنها الوحيدة بيننا التي تجري في عروقها دماء «إبليس»، تعرف كيف تختلق الفرص لتغتنمها، فكانت تسرق يوميًّا بضعة بيضات، وبدلًا من حمل الفراخ والأرانب النافقة للنفايات كانت تُخبئها ثم تسلخها وتنظفها وتدور بها على بيوت الفقراء، وتعرضها بثمن قليل بحجة أنها «لحقتهم بالسكين»، وكانوا مشتهين فيطمعون ويشترون.. بعد فترة لم يعد ترك الأمور للصدفة والقدر يلائمها، فصارت تكسر أعناق الدجاج بالأقفاص، أو تدس قليلًا من سم الفئران بطعام الأرانب لتزيد حصيلتها.

أما أنا و«شوقي» فاكتفينا بمشاهدة عرض الحاوي بأعين مُتسعة وأفواه مفغورة ببلاهة، ومرة نُلهب أيدينا بالتصفيق، ومرّات نمدها بطلب العون، ولم تبخل علينا «نصرة» أبدًا، ما دُمنا نرد ما نقترضه منها مُضاعفًا.. هكذا مضت أيامنا بالمدينة ولم تختلف كثيرًا عما كانت عليه قبلها، ذات الرتابة والشقاء والبلادة والجمود، كأنما اختار القدر لنا يومًا واحدًا وكتب علينا عيشه عمرًا كاملًا، يتكفل كل منا بأمره، وحتى طعامه يتناوله خارجًا منفردًا كي لا يضطر لاقتسامه مع الآخرين، ثم نعود ليلًا لجمعنا المُشتت بين ذات الجدران.

ركدت مياه حياتنا لعام ونصف، ثم حركها حجر الموت حين انتزع «هارون» منها، كنا قد اعتدنا زحف الثعابين وتسلل العِرَس من الأرض المهجورة المجاورة عبر شروخ الجدران وشقوق النوافذ، فلدغه أحدهم ولكنه كان مخمورًا فلم ينتبه، ولعله لم يشعر بالسُّم الساري في دمائه يدفع روحه خارج جسده.

كنا عائلته فأحسنَّا وداعه، أتممنا الإجراءات المعتادة والمعقدة في مثل حالته، وتكفلنا بأجرة المُقرئ، واستقبلنا المُعزين في مدخل البيت، وحين انفض الجمع سدت «نصرة» علينا الطريق، وبنظرة ثاقبة ونبرة واثقة طالبتنا بثلث ما تحصلنا عليه، وقبل أن يُبدي أحدنا دهشة أو يدعي جهلًا، واجهتنا بأنها رأت أحدنا يفض ثعبانًا من جرابه في فراش «هارون».

خالت «نصرة» أنها تضع نصلها على أعناقنا؛ لكنها لم تكن كذلك، ففي الوقت الذي رأت به أحدنا يفعل ما روته، كان الآخر يدور على عدة أماكن اعتدنا التواجد بها، حريصًا أن يراه أكبر عدد من الشهود، مُعرفًا نفسه مرّة باسم «شوقي» ومرّة باسم «وحيد»، لنتذرَّع حُجة غياب مُقنعة إذا ساءت الأمور، ولكن هذا لا يعني أن ندعها تسوء.

ثار «شوقي» وتوعد «نصرة» بإخراسها وهو يعلم بأنه عين المستحيل، فكنت الأكثر حكمة وتعقلًا، وأقنعته بالخضوع والامتثال.. لم تعرف «نصرة» قدر ما استولينا عليه، فكانت ورقة من فئة مائة جنيه كافية لإقناعها بأنها نالت الثلث، وكفيلة بجعلها شريكة لنا فنأمن مكرها، دون أن نضطر لكشف سر فعلنا أو الاعتراف بأننا نلنا ميراثنا الشرعي!

زَلَّ لسان «هارون» الثمل بالسر في غفلة منه، وبعد بضعة كؤوس أخرى أُطلق بالذكريات دون حساب، قال إن ابنة خالته جاءته حبلى،

طالبة الستر والوفاء بالوعد، كانا قد وَصَلا الود المُنقطع بعد سنين، وعاهدته على التوبة، فوعدها بالزواج في الوقت المناسب، وهو الوقت الذي لا يحين أبدًا.. علم أن العائلة الكريمة التي رفضت زواجه من ابنتها المارقة في الماضي لن ترتضيه بأي وقت؛ لكنه لم يقوَ على مقاومة نضارة زهرتها التي تعلق قلبه بها زمنًا، وذبلت لحظة أن اشتمَّ عبيرها، فأمرها بأن تحمل خطيئتها وترحل، وهدد بسلخ وجهها إن عادت.

أصابه الندم وفتش الأرض عنها وعن ولده؛ لكنها لم تترك له أثرًا يقتفيه، كانت واسعة الحيلة، إن أرادت الاختفاء ستجد ألف جُحر، وإن قررت التخلص من حملها -وحتمًا فعلت- ستجد ألف وسيلة، أهمل تجارته فبارت حتى عاد أجيرًا، وغرق في بحر خمره عَلّه ينسيه ذنبه ويخمد ثورة شكوكه.. نوبة صراحته بَيّنت سر نظراته، كان يحملق بوجهينا باحثًا عن شبه يخلصه من حيرته، وإجابة سؤاله كانت لدينا، نعم، لحظة حُمق واحدة كلفته عمره وكلفتنا أعمارنا، ألقى بنا للدنيا وطردناه منها.

قسمنا مُدخرات «هارون» وفرقنا دمه بيننا فزاد فُرقتنا، رحلنا عن بيته ومضينا كلٌّ في سبيله، فتزوجت «نصرة» من عامل بناء يُدعى «أحمد عويس» وأقامت معه في بيت أسرته، وتحرر «شوقي» من العبودية واستأجر مقهى متواضعًا -بمشاركة أحد معارفه- في منطقة الباب الجديد، أما أنا فما اغتنمته احترق مع لفائف الحشيش وتبعثر مع دخانها، فأويت إلى غرفة -لها هيئة ورائحة القبور- أسفل سُلم إحدى العمائر المُتصدعة، أشقى لأتدبر إيجارها الشهري، وأنتقل من مهنة لأخرى لأجد ما يسد جوعي بنهاية كل يوم.

مَرَّت ثلاث سنوات لم نلتقِ خلالها إلا قليلًا، فوجئت بأن «شوقي» فضّ الشراكة وانفرد بملكية المقهى، وعلمت مصادفة أن «نصرة»

صارت أُمًا، وبقيت أنا أعيش يومًا بيوم غير آبه بأمس مضى أو بغد قد لا يأتي، ألفت حياتي البائسة حتى خشيت تغييرها؛ لكن ما نخشاه دائمًا يقع والتغيير حتمي وإن تأخر، وجاء على يد غليظة غاضبة انتزعتني من الفراش بإحدى الليالي، ولم ترحم توسلاتي بإجابة سؤالي المُلح، وهي تدفعني داخل صندوق سيارة الشرطة.

تعذبت بحيرتي ساعة أو أكثر قليلًا، أعلموني بعدها بأن «أبو الروس» قد عُثر عليه مقتولًا داخل كوخه، وأن شاهدًا رآني في محيطه بذات اليوم.. أفعل أمورًا كثيرة لا أعيها حين لا يكون الحشيش مغشوشًا؛ لكني واثق أني كنت سأتذكر جيدًا لو سافرت لبلدة أخرى لأقسم رأس أحدهم بفأس، وكذلك كنت مُتيقنًا من الذي رآه الشاهد، فإن كان لجميع الخلق أربعون شبهًا فليس لي بهذا العالم إلا واحد فقط يُشبهني، ويبدو أن إزهاق الأرواح لديه لم يعد بالصعوبة التي كان عليها يوم أن أجهزنا على «هارون».

لم يحملني وعيد الضابط أو وعده بالنجاة من الإعدام، أو حتى لكمات وركلات جنوده على النطق بكلمة، فقط طلبت محاميًا ثم أطبقت شفتي، فتكذيب الشاهد لن يُجدي والإنكار لن يُفيد، وراودني خاطر بأن من صَنَع العقدة قادر على حلها إن ظل طليقًا، فكان عليَّ التحمل والصبر.

عند وصولي إلى مقر النيابة كان «شوقي» في انتظاري بصحبة مُحامين، ولم يكن هناك مُتسع للمراوغات ولا طائل منها، فهمس لي بأن ما اهتدى إليه عقلي صحيح، وقال بأنه ارتبك حين صادفه هذا الشاهد -وهو أحد معارفنا القدامى- فوجد نفسه دون تفكير يُعرّف نفسه بـ«وحيد»، وأخيرًا طمأنني بأنه كان عليمًا بأن النيابة ستستدعيهما في كافة الأحوال، فاحتاط لكل احتمال وأوجد إجابة لكل سؤال.

افتتحت أقوالي أمام وكيل النيابة بالإنكار المعهود، نافيًا مسؤوليتي عما ورد بأي محضر للشرطة، وأني وقَّعت مُكرهًا على أوراق لا أعلم ما دُوِّن بها.. سألني عن علاقتي بالمجني عليه فأصدقته القول، وأخبرته بأمر قطيعتنا لسوء سُمعته وسلوكه، وعن سبب ذهابي للبلدة بهذا اليوم تحديدًا، فأجبت بأنه يوافق الذكرى السنوية لوفاة أمي، وأني مُعتاد على زيارة قبرها كل عام، ووددت بتلك اللحظة لو كان بإمكاني التصفيق والصفير إعجابًا بإحسان «شوقي» اختيار التوقيت.

واصل رشقي بسهام أسئلته، وظللت أتلقاها في ثبات، وبعد ساعتين كاملتين سألني عمن قد يكون الفاعل، فأخبرته بأن كل من عرف «أبو الروس» قد كرهه، فقال بأن الكره ليس دافعًا كافيًا للقتل، فأخبرته بأن «أبو الروس» لم يتقن في حياته شيئًا أكثر من اختلاق العداوات، وعددت له الأسماء والأمثلة.

أعادوني لمحبسي وتمادوا في السير بالاتجاه المُعاكس، أعادوا تفتيش حجرتي ولم يجدوا إلا دلالات الفقر والحرمان التي زادت شكوكهم، وبعد أسبوعين جاءني المحامي بنبأ إطلاق سراحي بعدما قبضوا على القاتل الحقيقي، وكان لكلماته وقع قاسٍ، كل ما عانيته راح هباءً، فإعدام «شوقي» سيحرمني نصيبي مـن إرث أبينا الأول!

«حسين فتوح».. اكتسح الوجوم وجهي حين طرق الاسم مسامعي، أعرف صاحبه جيدًا، واحد ممن نبتت لحاهم فجأة، وولوا أنفسهم أوصياء على خلق الله في أرضه، يوصدون أبواب جنته بكلمة ويفتحون مصارع الجحيم بأخرى، وذات النبوت الذي قطع الطريق ونهب البضائع، بات يسوق الناس كالغنم إلى صِراطه الأعوج، يهدد بحرق وجوه النسوة المكشوفة، وتحطيم المَحَال إن لم تغلق للصلاة.

كان عقلي مشغولًا بألف سؤال واحتمال، فلم أنتبه حين طالبني «شوقي» بزج اسمه ضمن قائمة الأعداء؛ لكنه صدق في قوله بأنه رتب لكل شيء وبأفضل مما ظننت.. «حسين فتوح» المشتبه به المثالي في جريمة قتل ضحيتها يُدير وكرًا للمخدرات وبيتًا للدعارة، وأطبق الفخ عليه بالعثور على فأس مخبأ بأحد أجولة السماد المشوَّنة في الحظيرة المُلحقة بدار أبيه، وقد جَفت لطخات الدم على مقبضه ورأسه الحديدي.

ثعبان آخر تلقى اللوم على فعلتنا، وحين صار قطع رأسه وشيكًا اقتسمنا تركة «أبو الروس»، فنلت أربعمائة وخمسين جنيهًا، قال «شوقي» إنهم نصف ما كان مُخبئًا في الكوخ بعد استبعاد أتعاب المحاميين التي حَمَّلها لكلينا.. دم آخر تفرق بيننا، وللمرة الثانية زاد فرقتنا ومضى كل منّا في حياته، بعدما أوصاني أخي بالتروي في إنفاق المال اجتنابًا للشُّبهات، ولم أكن في حاجة لنصيحته، فكل ما أبدد به أموالي لا يتم إلا سرًا.

انقطعت عن العمل لأسبوعين تفرغت خلالهما لإنفاق المال، وبعد انقضائهما تفرغت للبحث عن بديل أعوض به ما أهدرته، دائرة حياتي البغيضة التي لا تمل الدوران، لا أذكر كيف بدأت ولا أدري متى تنتهي؛ لكن لا يوجد سواي ليعيشها! منذ أن خَوت جيوبي لم يُبارح الوسواس رأسي، يُذكرني كل ثانية بأني من عَلَّم «شوقي» دس السُّم، ويخبرني بأني من تجرَّع الكأس في النهاية، دليلي الوحيد على تلقي نصف ما نهب أنه قال ذلك، وألسنة أبناء إبليس لا تنطق إلا كذبًا، تلَبَّسني جن الظن فلم يعد يهنأ لي نوم، وحتى جرعات الخمر ولفائف الحشيش ما عادت تلهيني عن زوابع الأفكار الثائرة بداخلي.

مَرّت سنوات أخرى استقامت بها حياة «شوقي» كأنما لم يشقَ يومًا، باع مقهاه وتملَّك آخر مُطلًّا على شارع رئيسي بمنطقة كليوباترا، وتزوج

من «سميحة»، امرأة يافعة ابنة أناس بسطاء ممن يبغون «ستر الولايا»، ولا يسألون عن أصل ولا ينبشون بماضٍ، وأنجب منها توأمًا.. تلك هي الحياة التي استحققتها أنا، لقب «المَعلِّم» وسطوته على صبيانه، والطفلان، وحتى المرأة التي يأتنس بها في لياليه، لكان كل هذا ملكي لولا خدعته.

كلما تلبد عقلي بغيوم الأدخنة الزرقاء أقرر مواجهته بالشك الذي بلغ مع مرَّ الزمان حد اليقين وتخطاه، وحين تتبدد أدرك أن لا طائل من الأمر سوى إغضاب وليّ نعمتي وقطع آخِر شعرة وصل، فأُحرَم من الفتات الذي يلقيه إليّ من آن لآخر مع سيل من عبارات الوعظ المُتعالي.

عشت مُطاردًا، أتستر بظُلمة الليل وأتسلل عبر الشوارع الخلفية، أنتقل من بيت لآخر هربًا من الدائنين، وأقترض من هذا لأسدد دَين ذاك، حتى قادتني خُطاي الضالة لسوء السبيل، وعرفت الطريق إلى «عبده سمكة»، مُرابٍ يوزع المال بسخاء ويُحصله بكسر العظام وقلع الأعين، أعماني الطمع والجوع وذُل «الكيف» فعبثت بالشخص الخطأ، وطرقت باب «شوقي» مستنجدًا فصفعه في وجهي ووضع خلفه ألف عذر، فقضي الأمر ولم يبقَ إلا الموت ملاذًا من عذاب مُرتقب على يد غاضب يلاحقني ليسترد هيبته قبل ماله، والصبر ليس من بين خِصاله.

«جثة رجل في الأربعينات، يُشتبه أنها لوحيد أبو الروس المُبلَّغ عن تغيبه».. كان هذا موجز الإشارة التي تناقلتها أجهزة اللاسلكي الشُّرطية، بعدما عُثر عليَّ مُلقى بملاحات برج العرب، مصابًا بعدة طعنات في منتصف الظهر، لا بد أن القاتل كان خسيسًا، وكانت كل مُتعلقاتي قد نُهبت باستثناء فاتورة شراء غسالة كهربائية في جيب قميصي، أفسدها الماء وأذاب حِبرها؛ لكنهم رجعوا إلى سجلات مُصدرها فعلموا بأني اشتريتها قبل أسبوع وتيقنوا من أن القتيل هو أنا.

غريب إحساس مُطالعة الإنسان لنفسه وقد اكتسى بزُرقة الموت، والأغرب تعرفه على جثته والإقرار بأنها له، والانتحاب فوقها أسفًا على شبابه المُهدر! طُويت صفحتي سريعًا، ولم يهتم أحد بالتمعن بما كُتب بها، فلم أكن من النوع المثير للاهتمام، وبحث قضيتي بالأساس كان إجراءً روتينيًّا يُمليه الواجب الوظيفي، وضرورة استيفاء الأوراق في ملفات الأرشيف المنسية كأصحابها.

قبل أسبوع واحد من كل هذا كنت أجوب الأرض طولًا وعرضًا، ذهبت لكل شخص عرفني يومًا، أروي له القصة وأمد اليد طلبًا للعون ثم أسحبها ذليلة خاسئة، ولم أتوقع خيرًا من هذا، فجميعهم أدرت لهم ظهري في وقت ما، وكما يقول المثل الشعبي لم أقدم سبتًا فكانت مطالبتي بالأحد شكلًا من التبجُّح.

لم يرأف بي إلا «عزيز شحاتة» الموظف بالمحكمة نهارًا وكاتب الحسابات بوكالة الخضار مساءً، كان شهمًا مُفلسًا، فلم يقرضني إلا بطاقته الشخصية وتوقيعه بصفة ضامن على إيصالات شراء أجهزة كهربائية بالتقسيط، بعدما أخبرته بأنها حيلتي الأخيرة لسداد دَيني.

بعت كل ما أملك لأدفع قيمة المُقدم البسيط وأتسلَّم الأجهزة الكهربائية، ثم حولتها لمال نقدي ببيعها لمعارض أخرى بأقل من قيمتها، أعدنا الكرّة عدة مَرّات حتى جمعت اثنين وعشرين ألف جنيه، وهو ما يكفي لرَدّ أموال «عبده» وفوائد التأخير التي فرضها عليَّ؛ لكن وماذا بعد؟! استبُدل الدَّين بدَين! لن أفلح في سداد الأقساط، وسينتهي بي الحال سجينًا؛ لكني على الأقل سأحتفظ برأسي فوق كتفي.

فكرت كثيرًا، ولم أجد سوى سبيل واحد للخلاص، تحتم موتي لينتهي كل شيء، وكان لا بد أن يحيا «شوقي» كي لا يرثه أبناؤه.. أخبرته بأني توليت عملًا جديدًا كخفير بإحدى المزارع النائية، وطلبت منه إقلالي إلى هناك فلم يُمانع، وبالموقع المُحدد أوقفته لأتبول على جانب الطريق، تأكدت أن المكان خالٍ من الحياة، ثم ناديته في ذعر مُصطنع ليرى ما أراه، فلحق بي فزعًا، وعندها لطخ يدي سائل أحمر لزج، وسكيني مغروس حتى مقبضه بمنتصف ظهره، وأطبقت راحتي على فمه لأمنع صراخه وأعدت طعنه مَرّات لم أحصِ عددها.

أفرغت جيوبه على عجالة ودسست الإيصال بجيب قميصه، ثم جررت جسده إلى قلب البحيرة ورأيت ظُلمتها تبتلعه، وقبل أن تلفظه إلى سطحها مرة أخرى سيكون ملحها الأُجاج قد نَخَر جلده، ليمحو الفروق الطفيفة في ملامحنا ويشوه بصمات أصابعه!

لملمت حِفن الملح التي خضبها الدم في أكياس بلاستيكية أعددتها مُسبقًا، وأخفيت وسطها السكين، ثم جمعتهم داخل حقيبتي واستبدلت ملابسي، وبذلك لم يبقَ إلا السيارة التي لا أجيد قيادتها، فعبثت ببعض الخراطيم والأسلاك التي لا أفهم الغرض منها، وسرت مسافة نصف كيلومتر إلى أقرب ورشة إصلاح طالبًا العون، فسحبها صاحب الورشة وأودعها لديه بعدما نقدته مقدم أجره -من أموال «شوقي»- ووعدته بسداد المُتبقي منه بعد يومين حين أجيء لأتسلمها.

بالنهار التالي كنت أقف أمام أمين الشرطة أحرر محضرًا باختفاء شقيقي «وحيد»، وأظهرت كثيرًا من القلق لأنه كان مضطربًا بالفترة الأخيرة، ونفيت معرفتي بالسبب؛ لكنني كنت قد تركت مائة شاهد

يُعلمهم به، وألف خيط يقودهم إلى «عبده سمكة»، ثعبان ثالث ستقطع رأسه فداءً لي، استحق ذلك وجناه على نفسه!

توجهت لاحقًا إلى مكتب البريد وأبرزت بطاقة «شوقي» السحرية، وأبلغت عن فقدان دفتر التوفير الخاص بي، وطلبت إصدار بدل فاقد، وبعد سلسلة من الإجراءات المملة صارت مدخراته بين يدي، ستون ألف جنيه سحبتهم مُقسمين لثلاث دفعات كي لا ألفت الانتباه، ولوهلة أردت العودة إلى التجار لأسدد أقساط الأجهزة التي اشتريتها؛ لكن «شوقي» ما كان ليفعل هذا لأجلي، فخشيت إثارة الشبهات، وتمنيت أن يعدهم «عزيز شحاتة» صدقة على روحي، وهو يسددهم من سنوات عمره وراء القضبان.

فكرت في غمرة السُّكر أن أسلب «شوقي» حياته كاملة، وأن أذهب لبيته لأرى زوجته بعيني كما تصورتها دومًا في خيالي؛ لكنها حتمًا كانت ستُفرق بيننا، ولهذا فقط لم أرضخ لوساوس شيطاني، وفضلت لعب دور النذل فطلقتها غيابيًّا، لتكون القصة المعتادة للرجل الذي ثقل جيبه فخفّ عقله وترك بيته لأجل بائعات الهوى تبريرًا مقنعًا، إذا ما كانت أبلغت عن تغيب زوجها المفاجئ، وأخيرًا بعت السيارة والمقهى، وبذلك استحلبت تركة «شوقي» لآخِر قرش، وصرت مستعدًا للرحيل والاختفاء للأبد.

ظننت أن حظي العثر تخلى عني أخيرًا حتى طرقت يدها بابي، وطَلّت عليَّ بوجهها نذير الشؤم، كنت قد نسيت أمر كرة اللهب التي حملها «أبو الروس» إلينا بالماضي وألقاها وسطنا، مضت سنوات على آخِر لقاء جمعني بـ«نصرة»، ولم تتغير، مكر الثعالب في رأسها وسُم العقارب في جوفها، وطباعها من طابع الضباع، تعيش على التهام الجيَف.

لم أعلم كيف استدلت على مكاني؛ لكني علمت سر تكبدها عناء البحث عني.. ذهبت إليها زوجة «شوقي» الساخطة باحثة عنه، وأخبرتها بكل ما جرى، وكان نبأ موتي قد بلغها مُسبقًا، فأثير في نفسها شك استحال يقينًا لحظة أن نظرت بعيني وكشفت سري الذي جاءت تطالب بثمن كتمانه.

قالت إنها لم تنخدع طويلًا، فـ«شوقي» لم يطمع يومًا بأكثر مما كان لديه، لطالما رغب في عائلة تعوضه عن نشأتنا المُريعة في كوخ «أبو الروس» وهي واثقة بأنه ما كان ليتخلى عنها بقدر ثقتها بأني لا أدع أموالي تغيب عن ناظري، وأني أحتفظ بها بمكان ما داخل هذا البيت، وبذات النبرة الآمرة التي تكسو صوتها طالبتني بإحضارها واقتسامها أمامها.

كنت أعي أنها لم يمسها حزن لفراق «شوقي»؛ فقد كانا دومًا كالنحل والدبابير، كلاهما يسعى لخراب عُش الآخر، وكنت لها أخًا أكثر مما كان؛ لكني أعي أيضًا أن هذا لا يُزكيني لديها، وما دام الأمر يتعلق بالمال فستظل عالقة بي عَلق البراغيث، فلم أجد مُنجيًا منها سوى صدقي وجشعها، فأخبرتها بأن المال أكثر مما يمكن الاحتفاظ به في المنزل، وأن حصتها منه ثلاثون ألفًا، فلمعت عيناها وارتضت الصبر، وتعاهدنا على ألا يغدر أحدنا بالآخر.

لم تعتد «نصرة» بالعهد، وكنت أشعر بنظرات «أحمد عويس» -زوجها- ناشبة بظهري أينما ذهبت، فلم تعد خسارة المال أكبر مشاكلي، إنما اطلاع ثالث على سري، والثالث قد يخبر رابعًا، والرابع يُعلم الخامس، ولا يدري أحد لأي مدى سيصل العَدّ.. مَكّنتْ بغبائها شيطاني مني، ورسَّخت الفكرة التي استمتُّ في دفعها عن رأسي.. للموتى مزايا عديدة، أهمها أنهم لا يثرثرون!

حضَرت «نصرة» في تمام اليوم والساعة المُتفق عليهما، وصنعتُ لها من رزم النقود هرمًا صغيرًا فأشرقت ملامحها العكِرة، وأشعلتْ لفافة تبغ -وهذا تغيُّر لم أكن أدري به- وطلبت كوب قهوة لتكتمل متعة عَدّ الثلاثين ألف جنيه ورقة ورقة، ثم تطوعت لإعدادها بنفسها، وعادت بها لتتربع فوق المقعد ملكة متوجة.

أطالت النظر للمال، ونفضت يديها من غبار الفقر قبل أن تمسه، وسحبت نفسًا طويلًا من سيجارتها بانتشاء جَمّ، فانحبس دخانه في صدرها والسلك النحاسي يعتصر عنقها حتى أسال منه الدم، وواصلت الضغط به إلى أن همدت وبرزت عيناها من محجريهما، فأرخيت قبضتي ورأيت روحها تصعد من فيها المفغور في هيئة خيوط دخانية متموجة.

وجدت فائدة أخيرًا للسكن في الطوابق الأرضية، وحملتها إلى الحَمَّام الذي قضيت ليلتي حتى الفجر في خلع بلاطات أرضيته وحفر قبر بوسطه، يُقال إن الشياطين يسكنون المراحيض.. وأيضًا يُدفنون بها!

ألقيتها وسط الحفرة التي جعلتها عميقة كفاية لتسع شخصين، ووقفت أمامها أتساءل إن كان غيابها -كما حسبت- سيكون كفيلًا باستدراج الثاني، وقبل أن أجد إجابة تقلصت أمعائي بشدة، حتى أقعدني الألم على حافة القبر، ونظرت بملامحها الجامدة فتذكرت قهوتها، كانت اللعينة متيقنة من أني أحتفظ بكامل المال داخل المنزل، وقد خططت للاستيلاء على النصفين.

مددت إصبعي بعمق حلقي وأفرغت ما في جوفي على جثتها؛ لكن فات أوان ذلك، سرى سُمها بأوردتي، وبدأت أطرافي تتشنّج، فتحاملت على الألم المُميت، وسرت مترنحًا إلى الشارع طلبًا للنجدة، وتحجرت في

موضعي حين اصطدم بصري بـ«أحمد عويس»، الواقف في مواجهتي وعلى محياه تمتزج أمارات الدهشة بعلامات الرعب.. لم أكن من يتوقع خروجه عبر هذا الباب!

أزاحني جانبًا واندفع للداخل كثور هائج، فتهاويت فوق الأرض أنتفض من فرط الألم، وجيش من السوس ينخر عظامي، واختلط دَويّ صرختي بصوت كسره لباب الشقة، ورأيت المارة يحتشدون حولي فأيقنت أنها النهاية التي لا مفر منها.

لم تكن جرعة السُّم كافية لزهق روحي؛ لكنها قادتني للموت بفضح أمري.. عند حضور الشرطة كانت الأموال قد اختفت، يبدو أن «أحمد عويس» تعلم شيئًا من عشرته الطويلة لـ«نصرة»، ولأول مرة لم أهتم، حفظت سره لأحفظ سري وأنا أراقب حياتي تنفد مع كل دورة لعقارب الساعة.

ستبقى صفحتي بيضاء كقلب الوليد...

عشت باسم «وحيد»... وسأموت باسم «شوقي»...

الثعبان الرابع...

❖❖ ❖❖ ❖❖

[3]

العنقاء

«هيام.. محمد حسني وافي»..

تجاوزت عامي الحادي والعشرين بقليل..

مواليد ديسمبر 2001..

طوخ، محافظة القليوبية..

المشترك بين كل ما سبق أنه ليس لي فيه اختيار، عكس كوب الـ«كابتشينو» الذي كنت أحتضنه بكلتا يديَّ في تلك اللحظة الفارقة من اليوم الموعود، حسبما أذكر هذا أول شيء أختاره في حياتي التعِسة.

قبل ساعات كنت قد استقللت القطار من بلدتي إلى القاهرة، وهناك توجهت إلى ذلك المركز التجاري الشهير، وحققت واحدة من أمانيَّ -التي حسبتها مستحيلة- حين جلست إلى إحدى طاولاته أرتشف مشروبي الدافئ، آمنة العقاب والعواقب، وذلك أيضًا للمرة الأولى.

تمنيت لو بالإمكان نسيان من أكون ليتم صفاء اللحظة؛ لكننا أبناء ماضينا، أصبحنا ما أصبحنا لأنه صار ما صار.. خُطى الماضي ثقيلة، تطبع أثرها على أرض الذاكرة فلا تمحوها تقلبات الأيام وإن طالت.. لا تمحوها ولو حتى شارفت على الانتهاء.

11 أغسطس 2011

كنت قد اقتربت من إتمام عامي التاسع، واقترب الشهر الكريم من انتصافه، استيقظت أمي باكرًا بهذا اليوم لتُنهي إعداد طعام الإفطار قبل أن تصحبني أنا و«هشام» -شقيقي التوأم- إلى شارع «عطا» في بنها، تلك هي الرحلة السنوية التي نرجع منها مغمورين بالبهجة، حاملين ملابس العيد، وجيوبنا محشوة بقطع الحلوى التي تُبقينا مُتلهفين لرفع أذان المغرب.

لا تكل أمنا طوال الطريق من أن توصينا بألا نذكر سعر ما اشترينا، ولم يكن يرعبها أكثر من أن يزل لسان أحدنا أمام أبينا فـ«يُطيِّن عيشتنا» كما تُردد دائمًا.. تقدمت للداخل بخطى متقافزة، تُشع عيناي بوهج طفولي، ويفيض قلبي بسعادة مَن ملكت الدنيا، أعدّ في عقلي الأيام التي تفصلني عن ارتداء ذلك الفستان الصيفي الذي انتقيته بين عشرات، بينما راحت أمي تُفرغ الأكياس أمام أبي، متحدثة عن غلاء الأسعار، مُستعرضة مهارتها في فِصال البائعين، تمهيدًا لإجابة سؤاله الوشيك؛ لكنه لم ينطق به، فقط رمق فستاني بنظرة باردة من وراء نظارته، ثم أزاحه جانبًا بإهمال آمرًا بإرجاعه.

عصفت كلماته بكل تخيلاتي، واكتسح الذهول وجه أمي، ومنعتها الرهبة من السؤال، فجاءتها الإجابة -التي لم تطلبها- بأنه قرر أن أتحَجّب، ولا بد من انتقاء ملابسي بما يوائم ذلك، لاحقته بأني ما زلت صغيرة، فرَدّ بأن عليَّ اعتياده، واستشهد ببنات فلان وفلان، وأنهى حديثه بأنه يجب ألا يبدو أقل منهم إسلامًا.

وَارَت أمي هَمها -كما اعتادت- في قلبها، واستسلمت لقلة حيلتها التي أورثتني إياها، وانفطرت لحزن صغيرتها، فأمضت الليالي التالية تخبرني بأن أبي يريد الأصلح، وهو به أعلم، وتصف لي الفستان البديل، وكيف هو أفضل خامة ولونًا، وأن ذلك التغيير ضروري؛ لأني كبرت وأصبحت «عروسة» ويجب أن أبتهج لذلك!

مَرّ الثلثان الباقيان من رمضان، ولا أذكر أنه دعاني بأي من أيامهما للصلاة، التي لقنونا في المدرسة أنها عماد الدين وثاني أركانه، بل لا أذكر أني رأيته يؤديها باستثناء بعض أيام الجمعة، وأكاد أجزم بأني اشتممت رائحة دخان سجائره من وراء باب الحَمَّام في ساعات النهار؛ لكنه أتم نقصان دينه بستر عورته، وسيدخل بذلك الجنة كما سمعته يقول.

حلَّ العيد لكن ليس بالنسبة لي، كانت مجرد إشراقة يوم كئيب آخر، أيقظتني فيه التكبيرات الصادحة من الجامع القريب، واجتمعنا حول صينية الكعك، وحين انتصف النهار آن وقت الدوران على بيوت الأجداد والأعمام، تعذرت بألف حجة لكنها كانت عادة مقدسة، ربما إن مُتنا لحمل أبي جُثثنا إليهم لتقديم التهاني.

غبت طويلًا داخل غرفتي، ثم خرجت إليهم في ثوب قديم، مألوف، لا تَخِزُني أشواك نسيجه، لم أختره ولكني على الأقل لم أكن مجبرة عليه.. جذبتني فجأة قبضة غاضبة من شعري، وامتزجت صرخاتي المتألمة مع صيحة أمي المُستحلفة بكل غالٍ وعزيز.

واكتسى عيدنا بالسواد..

5 يونيو 2017

ترقبت ذلك اليوم لأسابيع، أتعجل مَقدمه وأتخوف مما يُخبئه، وبالنهاية دارت الأيام حتى جاءت به، كان صباحًا صيفيًّا حارًا عاديًّا في كل شيء،

باستثناء أنه كان موعد إعلان نتائج الشهادة الإعدادية، رأيت المستقبل دومًا في خيالي لوحة من خطوط سوداء مرسومة على صفحة العمر، وستكون تلك أول بقعة لون تُضاف إليها لتجعل لها ملمحًا.

تحشَّرتُ مع أمي وسط الحشد عند باب مقهى الإنترنت، أسمع من حولي القلوب تخفق بنبض مضطرب، وتُلقي على مسامعنا عبارات مُستبشرة بنبرة فيها قلق الدنيا، ومَرّت بضع ساعات حتى جاء الفرج، وكاد لهاث أنفاسي يحرق الدنيا من حولي مع أزيز آلة الطباعة الرتيب، وتعلق بصري المُتلهف بالورقة الخارجة منها ببطء، ثم تقافزت مُهللة حين رأيت الرقم (287) في خانة المجموع، وأشهرت أمي أصابعها الخمسة تصد بها شر العيون.

كان كَفّ أمي أصغر من منع حسد أصاب فرحتها، فلم تدم إلا لدقائق، لفظت الطابعة بعدها ورقة أخرى تحمل اسم أخي «هشام» ومذيلة بخيبة أملها فيه، فقد حالت ثلاث درجات فقط دون رسوبه، فدفعتني أمامها وخرجت للشارع واجمة تضرب كفًا بكف.

زاد البيت كآبة، وجلس أبي وأمي -وأنا وسطهما- يندبان سوء الطالع وشُح الحظ ومَيل البخت، وتعجب أبي من عِناد القدر الذي صعد بالبنت للسماء وخسف بالولد الأرض، ولمحت في عينيه تمني لو كان الأمر معكوسًا!

نتشارك أنا و«هشام» الكثير، حتى ملامحنا مُتقاربة، غير أنه وُلِد بلا العيب الخلقي الذي يجعل منه أنثى، لم يكن الأفضل يومًا ولكنه كان المفضل دائمًا، وامتلك بذلك كل شيء حتى فرص النجاة، مثلما فعل تلك المرة، وذهب ليحتمي ببيت جدي فور معرفته بالخبر، ولعله كان بتلك

اللحظة يتسكع بالشوارع مع جالبي المصائب من رفاقه، ولن يعود حتى يطمئن إلى أن ثورة أبي قد هدأت، ومضت أموره بسلام كالعادة.

صدقًا، حزنت لأجله.. حذرته كثيرًا ولم يُنصت، وكلما حادثته كان يرد بالشتم والوعيد، من الجيد معرفة أنه ليس نادمًا، فقد خُلِق برأس مُنكفئ لا يرى أبعد من خطوتين، ولا يأبه بالآتي ولو كان ماضيًا نحو هوة سحيقة! إن لم يتدبر أموره فسوف يجد من يتولاها لأجله، فكان الأولى بي الفرح بما حققته، والانشغال باستكمال اللوحة التي لا يراها سواي.

عاد «هشام» وكان بركان الغضب قد خَمَد، فلم ينل منه إلا لسعات لا بد منها، وبعد أيام بدأ أبي التفكير -كما وصف- بأي «مصيبة» قد تقبل بمجموع درجاته الهزيل، وسألته أمي عني فأجابها بأن ليس عليهم تحمل نفقات وهموم الثانوية العامة، ما دام «فتح البيوت» بالنهاية لا يحتاج مؤهلًا علميًّا.

جثوت أمامه متوسلة، أخبره بخططي وآمالي ورغبتي في الوصول للجامعة وما بعدها، فأشاح بيده في عدم اكتراث، قائلًا إن بعد الجامعة ليس -أيضًا- إلا «فتح البيوت»، وأنه يختصر الطريق، ويوفر نفقات لا طائل منها، قد أكون راغبة في السفر للجامعة أو امتلاك وظيفة؛ لكن «من سيسمح بذلك؟!».. حسم الأمر بسؤاله المُستنكر، وحاولت أمي يائسة مناقشته بالأمر فأخرسها بإشارة من يده، قائلًا إن كل شخص بهذا البيت يمكنه فعل ما يحلو له فقط حين يموت، فدعوت أن يكون ذلك قبل انقضاء مُهلة تقديم أوراق القبول للمدارس.

تلونت لوحتي بالسواد فطُمست ملامحها، ولم يبقَ منها إلا فراغ مُعتم أضيع في قلبه، وبالأيام التالية انكشف الأمر، وعلمت أي شيطان

وسوس برأسه.. شيطان لا يرغب في كامل يُظهر نقصه، ولا يرهب أكثر من تذكيره بفشله في كل يوم..

شيطان يقلب حياة الجميع جحيمًا..

فهذا هو المكان الوحيد الذي يظل فيه سيدًا..

6 فبراير 2019

«أنا في قسم الشرطة...».

رسالة استغاثة قصيرة بثتها بنبرة مُرتعبة عبر الهاتف، وتلقاها أخي «هشام» على الجانب الآخر.. تساءل عما يجري، وطغى نحيبي على صوتي فلم يُفسر من عباراتي الكثير، ووسط الهرج المُثار حولي لم ألتقط من كلماته إلا ما يؤكد أنه آتٍ، فهدأ رَوعي واستكان قلبي ولو قليلًا.

انزويت بأحد الأركان أكاد أختنق بغليان الغيظ في قلبي، واجتاح القلق نفسي من هول الموقف ورهبة المكان غير المألوفين، ومَرّت نصف ساعة بدت دهرًا كاملًا حتى رأيتهما مُقبلين -«هشام» ومن ورائه أبي- بوجهين مكفهرين، فاندفعت إليهما، ورَمَيت جسدي المُرتعد بين ذراعي أبي وأجهشت بالبكاء.

اصطففنا أمام مكتب أمين الشرطة، وقفت مُحاطة بأبي وأخي ومن خلفي الشاهدين، وعلى الجانب الآخر ذلك الخنزير مُنكّس الرأس، على وجهه خطوط دامية رسمتها أظافري، وتحيط عينه هالة زرقاء تركتها عليها قبضة «هشام» قبل أن يُباعد العساكر بينهما ويتوعدونه بالحبس إن لم يرتجع.

«لا داعي من تحرير المحضر يا حضرة الأمين...»، قالها أبي بنبرة فاترة ناضحة بالخنوع، فمدح الآخر رجاحة عقله وحرصه على السُّمعة واجتناب الشوشرة.. أحسست ببركان يفور بداخلي، وحدقت بي كل العيون وأنا مأخوذة بنوبة هياجي، مُنهالة بالصفعات على وجه النَّتِن الذي سبقني بمدّ يده النجسة، وبمعجزة أحضرته لهذا المكان، والآن سيغادره سالمًا آمنًا كأن شيئًا لم يقع.. كأنما لم تطفئ لمسته جزءًا في روحي، ولم تسلب أماني، ولم تكشف لي مدى هواني!

لا خير في دنيا يلفظك فيها الحضن الذي لم تجد سواه ملاذًا، أعاداني للبيت موصومة بعار لا أدري عنه شيئًا وتتحدث به نظراتهم، وألهبتني سياط ألسنتهم الساخطة، تلوم مظهري لافت الأنظار، وتَبختُر مشيتي مُطمّعة الأنذال، وتسب وقاحة جرأتي ووقوفي وسط الشارع لفضح ذاك اللعين على الملأ.

لم أدافع عن نفسي، لو علمت تهمتي لفعلت! فاضت عيناي بالدمع حتى فرغتا، وترددت بداخلي أصداء ألف صرخة وجع، وانصهر قلبي قهرًا ولم أنطق بحرف.. في النهاية هم مُحقون، ما كان يجب أن أتوقف أو ألتفت أو أطالب بحق، ما كان عليَّ أن أثور أو أغضب، ربما كان من الأجدر أن أغدو كما رأوني دومًا، جمادًا ساكنًا مُطيعًا لا يحمل إحساسًا ولا يملك رغبات، ولعلّي حينها كنت سأحتفظ بعذري لجهلهما، واعتقادي بأنهما لو علما لأقاما الدنيا لأجلي، وإحساسي بأني لست شريدة ضائعة في وَسع الدنيا، ولا يتيمة وهم أحياء.

3 أبريل 2020

سمح لي أبي أخيرًا بوضع بعض مساحيق التجميل، وكان من المفترض أن أكون شاكرة ممتنة، لولا أنه لم يعطِ الإذن بذلك إلا لمُداراة الاحمرار

الذي خَلفته الصفعات على وجهي، ولتخفيف تورُّم عينيَّ المُتقرحتين من طول البكاء، أما عَرَج ساقي فيمكن تعليله بأي كذبة، المهم أن تمر الليلة الموعودة بسلام.

سمعت كثيرًا عن «عريس الغفلة»؛ لكني لم أعرفه ولم أفهم للَّفظ معنى إلا قبل ثلاثة أيام، حين حط ذلك الغراب الناعق على حياتي بلا إنذار، فقط ارتفع رنين الهاتف وطال حديث أمي لشخص ما على الجانب الآخر، واختلَت بأبي حينًا، ثم جاءا يخبراني بأن «واحدًا من الخلق» قادم يطلب يدي للزواج.

حفيد الحاجة «نوال» شقيقة الست «شادية» جارة ابنة خالتي «إسراء»، التي أخبرت جدتي «نعمة» بأنه يعمل بإحدى دول الخليج، وعائد في إجازة قصيرة باحثًا عن ابنة الحلال، ولترجح كفة عائلتنا أوقفاني أنا وابنة خالي «هدير» في الصف، ودونوا عناويننا في قائمة البيوت التي سيدور عليها صاحب العزة لينظر من ستنال القبول والرضا.

خيبت الظن حين لم أبتهج وأرقص سعدًا بطاقة القدر المواربة، التي تنقصها دفعة بسيطة لتُفتح، وكان جوابي الرفض، فقال أبي إنه لم يكن يسأل، ولا يملك الرفض إلا من له حق القبول، وغادر يلاحق الشياطين المتقافزة أمام ناظريه، سابًا تربية أمي التي أفسدتني، وقد كانت بريئة من اتهامه، حتى أنها جلست إليَّ توصيني بعدم إغضابه وإعطاء الفرصة كاملة لذلك الشخص، عَلَّه يكون خيرًا لي، مع وعد -توقن من عجزها عن الوفاء به- بعدم إجباري على شيء.

أعدتُ ترديد عبارتها على نفسي مِرارًا، ولم يتغير شيء، بقيت تلك الغصة في حلقي تسد أنفاسي كلما تصورت ذلك الموقف البغيض، كانت الحقيقة

واضحة، ولن تُجملها كلمات مُنمقة وعبارات محفوظة.. إن خُلق وطِباع وتدين المرء أشياء لا تُرى، وهذا الغريب سوف يجيء لغرض واحد، أن أجلس أمامه وأدعه يتفحص كل جزء منِّي، ثم يقارنني بالأخريات ليرى أيَّنا أثارته كفاية، ليرغب في أن تكون من يختلي بها لاحقًا.

أخبرتُ أمي صراحة بما في خاطري، فقالت: «وما بالأمر؟!»، إنه الشرع الذي أقر له حق رؤيتي، فأجبتها: «إن كان الأمر هكذا، فأنا أيضًا إن لم أره جذابًا فمن حقي...»، لم تنتبه كلتانا إلى أن أبي ينصت لكل كلمة، وقبل أن أكمل عبارتي اقتحم الغرفة متجهمًا، صائحًا بأن الساقطات وحدهن يُلمحن لتلك المعاني، وهوت راحته على وجهي بصفعة مدوية، عرفت معها مذاق الدم، فاندفعت صارخة -غير مُبالية بالعواقب- بأني لن أكون بضاعة تُعرض لكل عابر ولو ذُبحت، فرد بأن هذا ما أستحقه.

سَحَب حزام بنطاله وانهال به على الجسم الضئيل المتلوي بين قدميه، مُقسمًا على أمي بأن تكون طالقًا منه ومُحرَّمة عليه ليوم الدين إن حاولت منعه، فخشيت فقدانه، ولم تحرك صرخاتي فيها إلا صوتًا يتوسل، يستجدي الرحمة من صدر أجوف لا قلب فيه، وأخيرًا خارت قواه، فلكزني بطرف حذائه آمرًا بأن أكون مستعدة في الموعد المحدد، وغادر يجفف عرقه، داعيًا الله أن يحرقنا ويخلصه مِنَّا، وغريزيًّا وجدتني أتمتم «آمين».

حانت الساعة، وجلست وسط جمعهم واجمة، مستسلمة لنهش نظرات مُحدقة، أحسها تخترقني، فألملم أطراف ثوبي وأحبكها حول جسد تشوهه خطوط زرقاء داكنة ارتسمت على كل شِبر منه، ثم حَلّت لحظة الرحيل التي بدت لوهلة لن تحل أبدًا، وباليوم التالي جاءت «إسراء» بالرد المُقتضب: «قسمة ونصيب».

بضاعتهم أردأ مما ظنوا..

ولو بخسوا ثمنها!

25 نوفمبر 2022

تمضي بنا أيام العمر محاصرين داخل حياة سُطرت على الجبين فحُكم على العين برؤيتها، نتبع بإرادتنا الكاملة خطوات أقدارنا الحتمية! اليوم فقط خرقت الحصار، ووجدت كل شيء مختلفًا على الجانب الآخر.. الناس والسماء وضياء الشمس، ونسمات الهواء الباردة المتسللة لأنفاسي مع رائحة قهوة الـ«كابتشينو» وحتى أنا.

تفقدت الإنترنت بحُكم العادة، فطالعت مقطعًا مباشرًا يبث عبر صفحة «طوخ اليوم»، يعرض مبنى سكنيًّا تلتهم النيران طابقه الرابع، تمتد الألسنة الحارقة عبر نوافذه وتملأ الجو بسواد دخانها الكثيف، وتتعالى صرخات الفزع من حولها.. وضعت الهاتف على الطاولة، وتناولت الرشفة الأخيرة من كوبي، دومًا ما تكون هي الأكثر حلاوة.

تناولوا هم قبل فترة وجبتهم الأخيرة، شرائح لحمي المغلَّفة بالشوكولاتة مع قليل من المكسرات، وأجبروني على إحضارها لهم مُقسمة بالأطباق مع المشروبات الغازية.. كانت أجر المعاينة الذي دفعه آخر جاؤوا به ليتفحصني ويرى إن كنت أصلح لحمل اسمه وأبنائه، ولم ينسوا التندر على «فأل البومة ووجه القرد» التي يفر العرسان منها، وستصيبهم السمنة بسبب كثرة الحلوى التي يجلبونها بكل زيارة.

تلك المرة لم يلتهم أي منهم نصيبه كاملًا، ولم يرمِ نكاته حتى آخرها، غلبهم النعاس بعد بضعة قضمات، وكان الذهول آخِر ما اعتلى ملامحهم وهم يتساقطون حولي مُعدمي القوة والحيلة.. أشعلت كومة من سلك

تنظيف الأواني في وعاء معدني وضعته بين النيام، وتركت الحليب يغلي فوق الموقد، ثم غادرت إلى محطة القطار متجهة للعاصمة، موقنةً من أني سأكون قد قطعت مسافة طويلة حين يفور الحليب، ويُطفئ اللهب، ويترك الغاز ينبعث بالفضاء حاملًا الموت لهم.

أمتُّهم ألف مرَّة في رأسي؛ لكني اكتفيت.. لم أعد احتمل المزيد، فلم يعد التخيل كافيًا! هل كانوا قدري أم كنت قدرهم؟! الإجابة لن تغير حقيقة أو تبدل واقعًا، ولم يكن هناك وقت لتدبرها، وحان وقت الجزء الأخير، فصعدت فوق حافة الدرابزين المُطل على مدخل المركز التجاري.

شعرت بقبضة قوية تلتف حول رسغي؛ لكن هذا كان متأخرًا جدًّا، لو أن يد مُدت إليَّ من قبل لربما ما وصلت للوقوف هنا، فكان لا بد من أن تكون تلك القبضة أول ما أقاومه وآخِر ما أتحرر منه، وقد فعلت.. تركت جسدي يسبح بالفراغ، وارتسمت على شفتي ابتسامة هادئة، وهو يهوي من ذلك الارتفاع، كانت لحظة واحدة أُحكم بعدها الظلام وتَمَّ السكون فانعدم الوجود.

ثم تهادى لمسامعي وقع خطوات، وأصوات متشابكة لا يُفسَّر قولها؛ لكنها لم تبدُ آتية من جنة أو نار.. قد عُدت.

أحرقت حياتي.. والآن أنهض من رمادها.

حتى حين..

❖❖ ❖❖ ❖❖

[4]

ثالثهما الشيطان

«محمد شهاب الدين علي فضل الرويعي»، واختصارًا: «شهاب الدين الرويعي». هذا اسمي، لم أعتد لسنوات طوال سماعه إلا مسبوقًا بألقاب مثل «الدكتور المهندس، العضو المنتدب، عضو مجلس الأمناء، عضو مجلس النقابة، الرئيس الشرفي، سيادة النائب...» ومُلحقًا بلقب «بك»، وتحقُّق ذلك لم يكن سهلًا أبدًا، إنما تطلَّب منِّي كثيرًا من كثير.. كثيرًا من التملق، وكثيرًا من النفاق، وكثيرًا من الأموال المُعلن منها والخفي. حضرت حفلات كثيرة ألعن أصحابها، وقدمت هدايا أكثر لأشخاص لا يساوون -في نظري- عُشر قيمتها.

لم أُخادع نفسي يومًا أو أدَّعِ فضيلة، عرفت قوانين اللعبة باكرًا، وأتقنتها فتفوقت وفزت، مسحت أجواخًا حتى بُريَت يداي، ولو كان الأمر استدعى لعق الأحذية لفعلت، أو لعلي فعلت ذات مَرَّة، قطعت رؤوسًا وقبَّلت أياديَ لم أجرؤ على خدشها، وأحيانًا قطعت رؤوسًا لأيادٍ كنت قد قبَّلتها، بالأمس كانوا درجة أرتقيها، وبالغد صاروا صخرة تسد الطريق.. كما كنت أنا وكما صرت اليوم!

بدأت قصتي على بعد حوالي 140 كيلومترًا عن العاصمة، هناك أسفل شجرة الموز، رفيقة الصبا مُسلية وحدتي، حيث قرأت وتعلمت وفكرت وحلمت.. كان والدي «شهاب الدين» إمامًا للمسجد، وعالمًا

فقيهًا يُجله الناس ويوقرونه، ينهضون من مجالسهم إذا دخل عليهم، وينصتون إذا تحدث، ويدعونه لمناسباتهم تشرفًا وتبركًا؛ لكنهم لا يخشون إلا «عبد الباري بركات»، عمدة الناحية؛ فمصائرهم مُعلقة بطرف لسانه، بكلمة منه تُقطع مياه الري عن أراضيهم، وبكلمة أخرى يُحرمون إمدادات الجمعية الزراعية، وبكلمة ثالثة تتحرك كتيبة الخفر تصد عنه أذى الألسنة وشر النفوس، وددت أحيانًا لو كنت ابنه، لم يغُرني اتساع أرضه أو كثرة بهائمه ووفرة ماله، فطنت إلى أن كل هذا مجرد نتائج لسبب واحد، السُّلطة، مَلكها في يده فملَّكته كل شيء.

تخرجت في كلية الهندسة التي ترأستُ اتحاد طلابها معظم سنوات دراستي، كنت أفضل من يُمسك العصا من منتصفها، ونقرت على كل الأوتار فتمايل الجميع لي طربًا، هتف الطلاب باسمي، وكنت المُدلل لهيئة التدريس.. عُيِّنت معيدًا فور تخرجي، وخلال فترة قياسية نلت الماجستير وبدأت الإعداد للدكتوراه، وبمشاركة زملاء قدامى افتتحت مكتبًا للاستشارات الهندسية، وكل هذا لم يكن مُرضيًا، لوحة الفسيفساء التي صممتها لحياتي تنقصها القطعة الأهم، ولن يُكملها إلا الدكتور «فاروق علام».

كان «فاروق علام» نائبًا لعميد الكلية، ورغم أنه لا يُدرِّس لقسم العمارة، كنت على تواصل معه، وكان ودودًا معي، أبدى إعجابه بحماسي وطموحي، لعله رأى فيَّ ملمحًا من شبابه، هو لا يشتغل بالسياسة ولكنه عضو بالحزب الحاكم منذ أمد، واختير مستشارًا لوزير الطيران، وتربطه صلة قوية بمن لا يمكن الاقتراب منهم إلا بإذنهم، وكنت طالبًا لهذا الإذن، طامعًا في الحصانة ودخول المجلس من بابه الأوسع.

قصدت «فاروق علام» ولم يردَّني، وقام بتزكيتي لديهم، وتقاريري عن النشاط السياسي بالجامعة -أثناء رئاستي للاتحاد- شفعت لي وعززت موقفي، وبينما يُنظر في أمري والبُشريات تهل تباعًا، قربني الدكتور «فاروق» منه، وعرفني بابنتيه «جيهان» و«شيرين»، كانت الكبرى صعبة المراس، مغرورة بثروة أبيها ومكانته، أما الصغرى «جيهان» فاستمالتني أكثر بخفة الروح والظل، جميلة وذات حسب ونسب، ولطفها معي جعل فكرة الزواج تراودني.

تحَرَّجت من طلب الزواج، وارتأيت تأجيل الخطوة حينًا، ولكن ما لم أحسبه أنه هو نفسه قد يُلمح بأمر مماثل؛ لكنه قصد «شيرين» التي تأخر زواجها، كان الأمر أشبه بشرط غير قابل للرفض، وكان دهس القلب أهون من إغضابه، فقبلته مرغمًا، ولتكون الصفقة عادلة اتفقنا على إعلان الخطبة بالحفل الذي سيُقام بعد الفوز بمقعد المجلس.

نلت الرضا والإذن بدخول المجلس، ولكن ليس بالطريقة التي أردتها، جاءت الأوامر بالترشح بشكل مستقل، وأن أكون محسوبًا على المعارضة، أرادوا أن يُكملوا بي وبأمثالي لوحة الديموقراطية أمام العالم، ويجعلونا وردة في عروة سترة النظام؛ لكنها وردة بلاستيكية لا رائحة لها ولا أشواك، وقد قبلت، هذا بافتراض أنه كان لي حق الرفض!

حانت لحظة الاستفادة من سُمعة والدي ومحبة الناس له -التي لم تعنِ لي شيئًا بالماضي- فرُشحت عن مسقط رأسي، وبدعم الحكومة تحققت إرادة الشعب، وسقط مُرشح الحزب الرسمي أمامي، وكان ثمن ذلك باهظًا.. كان «شيرين علام».

تحت القبة كنت عالمًا بخطوطي الحمراء، أعلم متى أثير الجدل وأهاجم وأشجب وأُدين، ومتى أوافق الحكومة ليشهد شاهد من أهل المعارضة، فكان أدائي محل رضا وثناء، أما «شيرين» فكانت الحَدَب الذي نما على عاتقي، مُدللة أبيها التي لا يُسمح لمخلوق بأن يرفض لها طلبًا، وخاصة أنا. كنت مجبرًا في كل ليلة على اصطحابها إلى السهرات والحفلات التي لا تنتهي.

كان عزائي الوحيد هو أن تلك الحفلات فرصة ذهبية لتوسعة شبكة علاقاتي بلقاء مشاهير الفن والسياسة ورجال الأعمال، ومن خلالها صادقت «هيثم حديد» نجل أحد رجال الدولة النافذين، وشاركته سرًّا في تأسيس شركة لاستيراد المعدات الثقيلة، وكذا عَرَّفتني بصديقتها المُقربة «هبة الشرشابي» سيدة الأعمال البارزة التي صارت لاحقًا من أهم عملاء شركتنا.

أجلت إتمام زواجي من «شيرين» مَرَّات؛ لكن طول الأجل لا يمنع الموت، وفي النهاية فرغت جعبتي من الحجج، ولم يعد هناك مفر، وتحدد موعد عقد القران والزفاف مع بداية فصل الصيف، وحين استسلمت تمامًا للأمر الواقع وقع ما لم يكن بالحسبان، لا أدري أي حماقة قد ارتكب «فاروق علام» ليُنفَى من جنة الحزب، فجاءني طالبًا رد الجميل ومعاونته في تصحيح الصورة لدى من صبُّوا عليه غضبهم، وعدتُه -منتويًا الحنث- بفعل كل ما باستطاعتي، ولم أهدر الفرصة، فاختلقت خلافًا مع «شيرين» وأنا أعلم أن غطرستها لن تتقبله، فنزعت الدبلة وألقتها في وجهي، فتهلل واستبشر.

كنت مالكًا لخطة بديلة -أو بالأحرى فكرة جنونية- راودتني سابقًا رغم يقيني من استحالة تحقيقها؛ لكنها لم تعد كذلك بعدما أُسقط حِمل

«شيرين» عن عاتقي. وفكرتي كانت «هبة الشرشابي»، أنا وهي وجهان لذات العملة، نتشابه كثيرًا، عرفت أن السيدة التي سبق لها الزواج مرتين لا تضع نصب عينيها سوى المصلحة، وأمامها تنعدم قيم الصداقة والحب والإخلاص، وكل ذلك الهراء، كنا واضحين تمامًا، وهذا شرط الزواج الناجح!

ورثت «هبة» عن أبيها مجموعة استثمارية تُقدر بملايين الدولارات، وهي تعلم أنها لن تصمد طويلًا بدون سلطة تحميها، أما أنا فكانت مصادر دخلي المُعلنة هزيلة، لم تعد تتناسب مع حجم أرصدتي المصرفية، كان لا بد أن أختلق لها مصدرًا مشروعًا يبررها، ولم أهتم إن قالوا عني: «زوج الست».

كنا شريكين متساويين بكل شيء، فأصرَّت أن تكون العصمة بيدها، واتفقنا على أن زواجنا الذي سيُحدِث ضجة بأوساط عِدَّة يجب ألا يعني لنا شيئًا، والفراش الذي يجمعنا لا يعطي أحدنا حقًّا أو فضلًا على الآخر، والمبدأ السائد بيننا: «حرَّص ولا تخوِّن». كل جنيه أخبئه وسط ثروتها أحصل في مقابله على شيك مقبول الدفع، وهذا لا يجعلني شريكًا لها، ولا يحق لي سؤالها عن عائدات أو أرباح، هي مجرد خازنة، وأنا لست إلا حارسًا شخصيًّا، وكان هذا بالنسبة لي مُرضيًا ومُنصفًا.

زادنا زواجنا توهجًا، وصرنا من أبرز ثنائيات المجتمع الراقي، خاصة مع ظهور اللعنة المُسمَّاة «FaceBook»، وبمشورتها أسسنا معًا جمعية خيرية، وأقمنا حفلات لجمع التبرعات، ودعمناها بحملات إعلانية كبرى، وافقتها على مضض آملًا استغلال الأمر بالدعاية الانتخابية؛ لكن لاحقًا أقررت بمدى جهلي وسذاجتي، حين أدركت كيف يُجنى المال من الهواء، وأن المُتاجرة بآمال الناس في الجنة والغفران مُربحة أكثر من

المتاجرة بالمخدرات، فأقسمت على أن لها وجهًا فاتنًا به نفحة من رحيق الجنة، وعقلًا تشكَّل من جام النار، كان كل شيء في «هبة الشرشابي» مُبهرًا لدرجة تستوجب الحذر!

مضت الأمور بالمسار المقرر لها، ازداد النفوذ، ونمت الثروة، فتضاعفت القوة والمهابة. كان لكل منَّا حياته، لا نلتقي تحت سقف واحد إلا مصادفة، نهاري مُقسَّم بين جلسات المجلس واجتماعات النقابات ومتابعة استثماراتي السرية، ومعظم الليالي كانت تُقضى باستراحة المريوطية رفقة «جاسمين»، نجمة صاعدة بعالم الفن، ملكتها بالتوسط لدى أحد المنتجين، وهدية ثمينة كل حين تعبيرًا عن حب لا وجود له.

أخفيت تلك العلاقة عن «هبة»، وإن اعتدت الاعتقاد بأنها إن كشفت السر فلن تأبه به كثيرًا، طالما أنه سر، هكذا خُلقتْ، كائنًا مستوحدًا، جامدًا، لا عجب في فشل زيجتين لها قبلي، لم تحادثني يومًا عن الإنجاب، حتى تلك الفطرة الأنثوية نُزعت منها، هي نجمة، طالما كنت بعيدًا رأيتها متلألئة مُبهرة، وحين اقتربت لم أجدها إلا كتلة لهب تلتهم كل ما يقربها.

كنا -أنا و«هبة»- في نظر كل مُعارض حقيقي مثالًا فجًّا للمال السياسي، حمقى جهلاء، المال وحده لا ضرر منه ولا نفع، الأمر كله يتعلق بإرضاء الأسياد، وفي ذلك كنت موهوبًا بالفطرة.

ما لم أخله أن يأتي يوم لا أعرف فيه أي سيد أتبع؛ بل لا أعرف من هم الأسياد، العواجيز المحصنون في بروجهم المشيدة، أم الفتيان الممتلئة بهم ساحات الميادين؟! انعدمت الرؤية، والتوت الطرق، فلم يعد واضحًا أيهم يؤدي إلى أين، والأمر المؤكد أن هذا الإعصار يختلف عن الموجات السابقة التي كانت ترتطم بالصخر وترتد في خنوع.

جاءت الأوامر باحتلال شاشات الفضائيات للعن المؤامرة، وسب الخونة الداعين لها، والخوض في أعراضهم؛ لكن الحكمة أوجبت الصمت والانتظار، وحين بدأ رأس النظام في بتر ذيوله[1]، وعجزت الخيول والجِمال عن إخلاء الميدان، أدركت أي الكفتين أرجح، فخرجت على الملأ كمن يقامر بملابسه مؤيدًا للثورة وداعيًا للتغيير، ساخطًا على نظام -لحُسن حظي- لم أكن يومًا جزءًا منه بشكل مُعلن.

مَرَّت الأيام ثقيلة، لم أذق فيها نومًا أو أعرف راحة، أدعو بنجاح الثورة أكثر من الأمهات الثكالى والأطفال المُيَتَّمين، لئن لم يفلح هؤلاء في إسقاط الأخطبوط فالعالم بأسره سيكون أصغر من أن أجد به مكانًا لا تطولني فيه أذرعه!

أذيع بيان التنحي فكنت أول المهللين؛ لكنني نجوت من المشنقة لتوضع رقبتي على المقصلة. لم تمر فترة طويلة قبل ظهور ما سمُّوه «القوائم السوداء» وكان اسمي ضمنها. «هبة» هي لعنتي ودليلهم ضدي، كم المشروعات التي أُسندت لشركتها بالأمر المباشر أثار التساؤلات فالشكوك ثم الشُّبهات، وافتضح أمر شراكتي مع «هيثم حديد»، وكانت الضربة القاصمة.

تفحَّمت رئتي بلفائف التبغ، وتمزق مخي بجرعات القهوة الزائدة والأقراص المُنبهة، فعلت كل شيء لأبقى يقظًا أمام شاشة التلفاز، يفزعني صرير الباب، وأنتفض لمواء القطط، أترقب لحظة اقتحام الفيلا واقتيادي إلى سجن طرة. رنين الهاتف لم ينقطع لأيام، كل حلفاء الأمس

(1) ألقى حسني مبارك خطابه الأول في اليوم الرابع من اندلاع أحداث ثورة 25 يناير، وأعلن خلاله عن إقالة الحكومة بالكامل. وفي نفس اليوم تمت إقالة أحمد عز - رئيس لجنة سياسات الحزب الوطني المُنحل- من منصبه.

لم يعد أيهم يملك للآخر غير الوعيد، وبات الأمر أشبه بلعبة الكراسي الموسيقية، الجميع يتدافعون ويتساقطون وربما يُدهسون تحت الأقدام؛ لكن باللعبة حتمًا هناك فائز، وبلعبتنا كان الهلاك هو الأمر المحتوم.

أنهكتني هواجسي، لم يعد هناك مخلوق يمكن الوثوق به؛ حتى «هبة»، بالأخص «هبة»، أنا بدون الحصانة لا أعني لها شيئًا، ولعلِّي بعد كل ما جرى صرت حِملًا زائدًا، لم تُقدم على أي تصرف مُريب، وهذا نفسه مريب. ساد بيننا صمت لاعبَي شطرنج مُتربصين، ينتظر كل منهما خطأ الآخر ليُجهز عليه. فضلت الابتعاد لأفكر بهدوء، وقضيت أيامًا في استراحتي الخاصة، وحين عُدت كانت هي مُسجَّاة على الأرض وبجسدها ثقوب لثلاث رصاصات.

رغم زخم الأخبار السياسية، فرض نبأ مقتل سيدة المجتمع «هبة الشرشابي» نفسه على برامج الفضائيات وصفحات الجرائد وأحاديث العامة، لم يجد رجال المعمل الجنائي صعوبة في كشف الملابسات، الباب قد فُتِح عنوة، والمجوهرات والأموال وكل ثمين يسهل حمله قد اختفى، والمحاولة الفاشلة لفتح الخزانة خلَّفت على جوانبها آثارًا واضحة. جميع الخدم كانوا قد عادوا لقراهم مع بدء الأحداث، لم يبقَ إلا البواب المُسن ضعيف السمع، وربما استعمل القاتل كاتمًا للصوت كما ارتدى قفازًا لإخفاء بصماته، وتلقيت وعودًا عِدة بسرعة الكشف عن هويته وإلقاء القبض عليه.

قبل أن يغادر جثمانها المشرحة بدأت أحلم بالعودة للساحة من جديد، الثروة وحدها يمكنها إصلاح ما أفسدته الثورة، فسخَّرت كتيبة من المحامين لإتمام إجراءات الميراث ونقل نصف أملاكها إليَّ، فجاؤوني بسر الابتسامة الساخرة التي تجمدت عليها ملامحها بعدما لفظت آخِر

الأنفاس. اللعينة طلَّقت نفسها منِّي قبل أربعة أشهر، ولم يكن عسيرًا عليها إخفاء الأمر، لماذا أخفته؟! وما الذي كانت تخطط له؟! لم ولن يعلم أحد بالسر، ولا طائل من معرفته، كتبت نهايتي قبل نهايتها، وقُضي الأمر.

لم يأمن أحدنا مكر الآخر يومًا؛ لكن لم أتصور يومًا أن يصل الأمر لحدِّ مراقبتي، وضعَتْ كاميرات سرية داخل مكتبي، سجَّلتْ كل شيء، وشاهدتُ نفسي على الشاشة أصطنع بيدي الأدلة، ليبدو الأمر برمته كجريمة سرقة، وجاءتني صفعتها الأقوى من تحت التراب.

ضاعت الدنيا التي أفنيت العمر في الركض خلفها، فلم يعز عليَّ فراقها؛ لكني لم أدرِ أي الأمرين أسوأ...

الجحيم الذي ينتظرني؟

أم أني سألتقيها هناك؟!

❖❖ ❖❖ ❖❖

[5]

وحتى تحترق القلوب

«... حتى الموت لن يفرقنا... سأجيء في عالم الأحلام، وأطوف بكِ في عالم الخيال، ثم نجتمع في عالم آخر، وفي كل عالم سأجد طريقي إليكِ، وفي كل عالم لن أختار سواكِ...».

ليست تلك بداية قصتنا أو نهايتها؛ لكنها الجزء الأهم منها. ربما يليق بأن يكون جزءًا من خطاب غرامي للمراهقين في عصر ما قبل «WhatsApp»، يُتبادل داخل طيات الكتب الدراسية، ويُحفظ مع وردة مُجففة بالجزء الدفين في غرفة كل صبي وفتاة، مع السجائر وأقصوصات مجلة «Playboy»، أو أقلام أحمر الشفاه؛ لكننا كنا قد تجاوزنا التسعينات بقرابة العقدين، وكنا بالغين كفاية لنعي معنى كل كلمة، وكيف نقطع وعدًا ونفي به.

«غادة أحمد ربيع» موظفة قسم الحسابات بإحدى شركات الأغذية بمنطقة كوم أبو راضي بمحافظة بني سويف، واحدة من ملايين جرفتهم الحياة إلى دوامتها، يدورون مع أيامها الموصول آخِرها بأولها؛ لكن في عُمر كل منا يوم لا تعود الحياة بعده كما كانت، وذلك كان يومي.

كان يجب أن أمر بـ«لمياء» موظفة المخازن، لأُحصِّل منها قسط الجمعية الشهري، وقبل أن أفعل تلقيت اتصالًا من أمي استمر دقيقتين تقريبًا،

وبعدما قطعت نصف الردهة انتبهت لتركي الهاتف على مكتبي فعدت لالتقاطه، فاستوقفني زميلي «علي» ليسأل عن الأستاذ «طه»، عندما جذبنا زعيق آتٍ من مكتب قريب، توجهنا إليه فكانت مدام «ثريا» توبخ «أحمد» الساعي، وبعد تهدئتها أسرعت الخطى لألحق بـ«لمياء» قبل أن تنصرف، ولو أن شيئًا من كل هذا تقدم أو تأخر ثانية ما كنت لأصادفه خارجًا من مكتبها يكاد يصطدم بي!

سألت «لمياء» لاحقًا عن صاحب الوجه الأسمر غير المألوف، فأخبرتني بأنه «أسامة عيد» المهندس الزراعي بإحدى المزارع التي تورد محاصيلها للشركة. علمت فيما بعد أن كانت ثمة أحداث غِراب على الجانب الآخر أيضًا، تعطَّلت سيارة المزرعة بذلك اليوم فعَرَض على زميله -المسؤول عن التحصيل- أن يقله إلى شركتنا، ثم انتابته نوبة شهامة فاقترح أن ينتظره حتى يُنهي مهمته ليصحبه إلى المنزل في طريق عودته؛ لكن طال انتظاره وكان هاتف الآخر خارج نطاق التغطية فلحق به للداخل، وحين هَمَّ بالمغادرة كنت أنا عند الباب.

نسج القدر أحداثه بعناية ليرسم بها طريق كل منا إلى الآخر، ويجمعنا بتلك الصدفة، وبالأسابيع التالية صرنا نصنع صُدفنا بأيدينا، فجعل «أسامة» نفسه سائقًا خاصًّا لذلك الزميل ليتردد معه على الشركة، أما أنا فكنت أراقب الساحة الخارجية عبر شرفة مكتبي، وكلما لمحت سيارته وجدت ألف سبب للمرور بقسم المخازن ومكتب «لمياء».

تعارفنا عبر تلك اللقاءات العابرة المتكررة، وتبادلنا كثيرًا من الأحاديث، وكنا -أنا وهو والمحيطون- عالمين بالسر الذي نتظاهر جميعًا

بإغفاله، وأخيرًا آن وقت الانتقال للمرحلة التالية، فقبلت دعوته للقاء خارج مبنى الشركة بعيدًا عن الأعين المُراقِبة والآذان المُنصتة، فازددنا تقاربًا وازددنا شكرًا للقدر على صُدفته.

جرت الأمور سريعة ويسيرة، على الأقل مقارنة بالمعتاد، فبعد سبعة أشهر تقريبًا من ذلك اللقاء حَضر ليتقدم رسميًّا بطلب يدي، ولم نكن في حاجة لإطالة فترة الخطوبة، فقصرنا الأمر على جلسة قراءة الفاتحة، وبعد ثلاثة أشهر أخرى أقمنا حفل الزفاف، وانتقلنا معًا إلى جنتنا الصغيرة بالطابق الثالث من منزل عائلته في منطقة «الفشن»، وبعد عام آخر اكتمل نعيم الجنة، حين صَدَح بها بكاء ملاك صغير أسميناها «آيسل» لنمنحها وقعًا موسيقيًّا مميزًا.. «آيسل أسامة عيد سليمان».

كنت أتعجب في صغري كيف وجد الشيطان سبيلًا للتسلل إلى جنة آدم؛ لكن حين كبرت لم يعد بالأمر العجيب، فقد كان يقبع بالطابق السفلي وينشر ذريته بيننا، يسترقون السمع والنظرات، ثم تتناقل أخبارنا ألسنتهم المنقوعة بالكذب. كان كل طيب فيه يُرجع إلى شر فيَّ، كرمه من سوء طمعي، وسماحته تُسمى تجبرًا منِّي، وإن كفيت شري وأغلقت بابي صرت متكبرة بغيضة تأنف الاختلاط بهم. لم يكن شيئًا من هذا خفيًّا عليَّ، بل كثيرًا ما تعمدوا إيصاله إليَّ، بالتلميحات أو عباراتهم السمجة المتشبهة بالمزاح، وأحيانًا بالقول الصريح!

كنت أُغلِّب حكمتي على غضبي، وأبقى خارج حلبة الصراع التي يدفعونني إليها دفعًا؛ لكني لم أقوَ على منع عقلي من البحث عن تفسير. علمت أن أمه لم تكن راضية تمامًا عن زيجتنا، وأنها وشقيقته أرادتا له إحدى قريباتهما؛ لكنه أفسد المخطط باختياره لي، وصرت زوجته وأم الحفيدة، وكان من المفترض أن يُنهي ذلك كل شيء.

سمعتها مَرَّات -عبر نافذة المطبخ- تصفه بـ«التابع، اللين، المسحور»، لم تنتبه إلى أنها بكل عِلّة تفتريها عليَّ تنتقص من ابنها، أو لعلها انتبهت ولم تهتم، فقد بدت لي أحيانًا مستمتعة بالأمر، تُشغل به فراغها، أو أن هذا ما فهمته عن «الحماة» من الأمثال الشعبية وإبداعات «ماري منيب»، وأرادت تأدية دورها بإتقان تام، وربما هي عقدة قديمة وجدَت لها أخيرًا مُتنفسًا، أو أنه نوع غير مُكتشف من الغباء، والغباء الأشد هو محاولة إيجاد ما يُفسره!

خطر الشياطين ليس في وساوسها، إنما في معرفتها متى توسوس، وكيف، وبماذا. تتزحف حول فريستها، وتلتف بنعومة، تتحَيَّن أقسى لحظات ضعفه لتبُخ سمومها بأذنه، وعند ذلك الحد حتى أطهر النفوس لا تسلَم من أذاها. آنت تلك اللحظة حين أُقعِدَ «أسامة» عن العمل، فقد فسدت حصة كبيرة من محاصيل المزرعة، وعجز مُلَّاكها عن الوفاء بالتعاقدات، وأُلزِموا بشروط جزائية تهددهم بالإفلاس، فكان التخلي عن موظفيهم أُولَى محاولاتهم للنجاة.

أخبروه أن استمراري بوظيفتي في تلك الظروف يهين كرامته، ويُحط من قدره، وأني سوف «أستقوي» ما دُمت أملك قرشًا، وعلى غير العادة عبثت الأقاويل برأسه، فبات شديد الحساسية لكل كلمة، يُثار لأتفه تصرف حين يتعلق الأمر بالمصروفات، وأخيرًا طالبني فعليًّا بالحصول على إجازة مطولة، معللًا ذلك باحتياجي للراحة لحملي بطفلتنا الثانية، وللسبب نفسه تمسكت باتفاقنا السابق، فقد كان لا بد من الحفاظ على آخِر مصادر الدخل، وأنا أرى تل مدخراتنا يختل في كل يوم.

«أرأيت؟!»... كان ذلك السؤال المُقتضب -والشامت قليلًا- ردهم على رفضي، وحذروه من أن أصبح في يوم -ليس ببعيد- رجل البيت،

بينما يعتاد هو دور جليسة الطفلة. أهانت مصمصة شفاهم ونظراتهم الآسفة قدسيته الذكورية، فنهب درجات السلم للأعلى مستشيطًا، وأفزع ابنتنا اقتحامه البيت بوجه مُحتقن، وأقسم على ألا أعود للعمل من الغد، وقال إن الأجدر بي البقاء في المنزل لأرعى الطفلة، وأسانده حتى يتخطى أزمته.

تلقيت قوله الساخط بهدوء، وأخبرته بأنه لا توجد أزمات، وأنه مهندس كفء، وله خبرة طويلة، وإيجاده لعمل بديل ما هو إلا مسألة وقت، فانبسطت خطوط جبينه العابس، وهدأت رعشة يده، وتهاوى على أقرب مقعد تلمع عينه ببريق دمعة تتكون في داخلها، أحسست لهيبها في صدري، فقمت إليه مهوِّنة، ورَبَتُّ على كفه بحنو، أطمئنه بأن الآتي خير، وأننا سوف نتجاوز كل شيء ما دُمنا معًا كما كنا دائمًا، وأني في واقع الأمر أسانده بتمسكي بالوظيفة.

مسستُ بآخِر كلماتي دون قصد جرحه النازف الذي خلَّفته طعنات كلماتهم قبل قليل، فتلبَّسته شياطينه مرة أخرى، وزحف العبوس على ملامحه من جديد، وصرخ بأنه لم يطلب منِّي مساعدة ولا يحتاج إليها، وليس عليَّ إلا أن أسمع وأطيع.

اعتصر بقوله آخِر قطرات الصبر، وانتقلت إليَّ عدوى الغضب، ففاضت نفسي بما تكتمه، وهتفتُ بأني قد أطيع لو كان الأمر أمره؛ لكني لن أرضخ لأم كارهة أو أخت فشلت في كل شيء، ثم دَوَّت صفعة قوية أنهت حديثنا؛ أنهت كل شيء.

كان هو الحياة، فانعدمت بعده وبدونه، ومَرَّت أيام وأنا منعزلة في بيت الأهل، بقلب يحترق بالقهر، فيُذاب ويُسال دمعًا من العينين،

أسترجع ذكرى كل لحظة ونظرة وكلمة، وأعيد ترتيب الحلم في رأسي، أفكر كيف بدأ وكيف تحقق وكيف كان بسيطًا، وكيف استكثرته الدنيا علينا، فأرسلت غربانًا سُودًا تزاحمنا العُش، وتنعق بالشر في كل حين.

اعتزمتُ طلب الطلاق والإصرار عليه، فجاء معتذرًا يُبدي الندم ويطلب الغفران، وعَزَّ عليَّ الانكسار في صوته ونظراته، وألحَّتْ أمي بالسماح لأجل الطفلة وأختها التي لا تزال تتكون داخلي، فاشترطتُ أن يكون الرحيل عن بيت عائلته أول ما نفعله حين يتيسر الأمر، ولو حُرمنا من الطعام، فقبل ولم يجادل.

عُدت، ولم تعد الحياة كما كانت. قلوب المحبين من زجاج تتقد متلألئة في لحظات الصفاء، وتنطفئ في ساعات الجفاء، وإن مَسَّها شرخ فما من شيء قد يصلحه، وسيبقى الحب ينساب منها، وأقصى ما يمكنك فعله أن تُبطئ جريانه، وتدعو بأن يكون انقضاء الأجل أقرب من نفاده، آملًا ألا تموت بقلب خاوٍ، وتُبعَث على ما مِت عليه.

صرنا نتحايل على الأيام لتمضي، لا يهم كيف مضت أو ماذا جرى بها، المهم أن تنقضي ساعاتها بسلام وتأتي بما يليها، كأنما اجتناب الشر صار أقصى خير قد نرجوه، نبدو للآخرين -ولأنفسنا أحيانًا- وكأننا تجاوزنا الأمر وراح طي النسيان، ولكن علم كلانا بأن جزءًا فينا قد مات بذلك اليوم، ولن يُردَّ إلا بوقفتنا الأخيرة ليشهد علينا.

أوجدت عمل لـ«أسامة» بقسم مراقبة الجودة في الشركة، وحان وقت تنفيذ الشرط والوفاء بالوعد، ودائمًا كانت هناك أعذار للتنصل منه، فالراتب أقل وتكاليف المعيشة ترتفع وموعد الولادة يقترب، بالإضافة إلى أن أمورنا تسير بخير حتى الآن، وكانت «حتى الآن» تلك

أكثر ما يُرهبني، فالشمطاء البغيضة والصغيرة اللئيمة لا تزالان قابعتين بالأسفل، وهو يكتم عني الكثير، يقاوم مكرهما ويستميت في ذلك، ولكن لأي مدى سوف يستطيع؟!

كنت كمن يقف فوق لغم، ويعلم بأنه لن يبقى ثابتًا للأبد، وفي لحظة ما سوف يُزحزح فيُنسف، أرتعد كلما سمعت اصطكاك مفتاحه بالباب وأنا عالمة بأنه آتٍ من لديهما وقد سمع منهما ما سمع، يرعبني مجرد تصور تكرار ما وقع، فلن أحتمل ذاك الشعور الذي لازمني أيامًا بعدها، ولا زلت أسمع صرير شرخ القلب يتمدد كلما تذكرته.

تحدد موعد الولادة بعد عيد زواجنا السادس بأسبوعين، فكانت فرصتي لسرقة لحظات سعيدة من الزمن، لم يعد يمن بها علينا إلا كل حين، نحتفل بذكرى يوم مضى والاستعداد لليوم الآتي، فأرسلت «آيسل» تلهو بين مدخل العمارة وشقة جدتها، لأنهي إعداد وليمتي قبل عودة «أسامة»، وبدأت بمفضلاته من أصناف المحشي.

سمعت عبر نافذة المطبخ -فاضحة أسرار كل بيت- شيئًا يُهشم بالطابق السفلي، وللأسف لم يكن جمجمة أي منهما، وأعقب الصوت وابل من السباب الموجه للطفلة، الناعت أمها بأوصاف أهونها المجنونة الخرقاء، فخرجت للسلَّم أناديها، وأفرغت غضبي بلطم وجهها الصغير، وتوعدتها بالحرق إن خطت عتبتهم مَرَّة أخرى.

جلست في صالة البيت ألهث من فرط الغيظ، ينهمر دمعي من عيون جاحظة تغيم الرؤية أمامها، يكاد رأسي ينفجر بالدم الملتهب المتدفق إليه، يتعالى بكاء الطفلة بجواري، وتقلصات مُبرحة تخنق الأخرى في داخلي، وصدري يتهدج بعنف مع لهاث أنفاسي، ووسط كل ذلك ترامت إلى

مسامعي صيحات تشكو السائبة التي لا تجد رجلًا ليُحكمها، والتي تُعصِّي الحفيدة وتهمهم باللعن والشتم.

مَرَّت دقائق ثم فتح «أسامة» الباب وتقدم عبره لاعنًا الدنيا ومن بها، فكان ردي حاسمًا، إما يُنفذ وعده وإما أنفذ وعيدي، وأني لن أنتظر بهذا البيت ولو ساعة، ولن أحتمل الظلم والافتراء بعد الآن، فتقدم باتجاهي متحفزًا، ورفع يده فتجمدت بالهواء لثانية ثم ارتخت إلى جانبه، ولم أنتبه إلى أن «مقوار الخضار» لا يزال بقبضتي إلا وهو مغروز به.

خَرَّ أمامي على ركبتيه والدم يتدفق من منتصف صدره، يمتزج فوق الأرض بدم غزير يتدفق من بين فخذي، وعادت أخيرًا لعينيه تلك النظرة التي اشتقت إليها والنور ينسحب منهما ببطء.

«اهربي».. جاهد حتى نطق بالكلمة، ثم استسلم للسقوط على وجهه واتسعت دائرة الدم من تحته، فشقت صرختي الفضاء، وجاء ردها تهليلة شامتة من الخارج «أدِّبها يا ابن أمك»... تهاويت إلى جانبه والركلات وآلام بطني تشتد مع اندفاع السائل الدافئ على سيقاني، وحدقت في جمود ملامحه ببصري المذعور...

انتظر... وسأجيؤك أنا...

في عالم آخر...

عالم ليس به سوانا...

❖❖ ❖❖ ❖❖

[6]

عصا فرعون

«عاطف إبراهيم رشاد»، اسمي الذي حَيَّر الكثيرين، كل من سمعه سكن الفضول نظراته، وأرسلها تفتش عن أي دليل، قلادة مفاتيح نُقشت بها عبارة التوحيد، أو صليب تم وشمه على الرسغ، لم يعوا الحقيقة أبدًا، حتمًا خانة الديانة في بطاقتي الشخصية ليست خالية؛ لكن ما فائدتها؟ ما يفرق الشهادتين عن التعميد ما دُمت لا أحتكم لأي كتاب؟!

لم أعلم غايتهم من هذا الفضول، ربما أرادوا معرفة بِمَ يستحلفونني لأتوقف عن كسر أصابعهم وكي جلودهم وتحطيم فكوكهم، وأن أدعهم يواصلون الحياة، وتلك الأخيرة لم تكن تحتاج رجاءً أو توسلًا، فالموتى لا يتألمون، والألم وحده يضمن حصولي على ما أريد. لست ممن يدعون أنفسهم بالملحدين، أدري أني لم آت من العدم ولن أنتهي إليه، أوقن من وجود إله.. وهذا أكثر ما يرعبني!

لم يتسنَّ للكثيرين معرفة اسمي ثلاثيًّا، فقد اعتدت دهرًا على مُناداتي باسم «السنباطي»، تيمنًا بـ«ناصر السنباطي»[1]، الناس يخلطون بين ذوي العضلات؛ لكني لم أطمح يومًا أن أصبح مثله، لم تغرني فكرة اعتلاء

(1) ناصر السنباطي (1965- 2013) لاعب كمال أجسام محترف، شارك في عدد كبير من البطولات العالمية. من أبرز إنجازاته الحصول على المركز الثاني بمسابقة مستر أولمبيا، عام 1997.

المنصات واستعراض كتلاتي العضلية. أفضل طريقة لاستعراض القوة هي استخدامها، لهذا فضلت الملاكمة، لم تكن قوتي تظهر في ضخامة ذراعي أو نفور عروق عنقي أو عرض أكتافي، إنما تُرى في الدماء المُسالة على أرضية الحلبة، وتُسمع في أنين كل من واجهني فوقها، حتى صار اسمي مرادفًا للهلاك، وكان هذا الجزء الأكثر إمتاعًا.

أفنيت سنوات من شبابي داخل تلك الدائرة المُنغلقة، نطاقي الآمن وملاذي الوحيد، أتنقل بين الصالات الرياضية المتواضعة والساحات الشعبية ونزالات المُراهنات.. شعرت دومًا بأن هناك ظُلمة في أعماقي يسكنها شيطان مريد، وكان هذا سبيلي لإطلاق جماحه، أحببت معاناة الآخرين وأحببت أكثر أن تكون بيدي.

لم أعرف المخدرات يومًا لكني عرفت نشوتها، أحسها حين تطيح قبضتي بفك أحدهم فأسمع اصطكاك أسنانه، وأرى الدم يتدفق من شفته المشطورة، وترتج الحلبة بسقوطه المدوي أسفل قدمي، وعندها فقط أشعر بخدر لذيذ يسري بأوصالي، ويشملني إحساس غريب بالارتياح، فيسكن شيطاني الهائج وتخبو ناره المستعرة.

وُلدت في جزيرة الوراق وعشت بها واستوحدت معها، فصرت مثلها غريبًا مُنعزلًا، أجد مشقة في الوصول للآخرين، ويصدهم عني ألف حائل. كنت الابن الأوحد للريس «إبراهيم»، الصياد الأجير. توفيت أمي وهي تلدني فانتقل عبئي إلى جدتي، وأبي كالجميع حلم بأن يصبح ابنه طبيبًا أو مهندسًا، وحين أتممت دراستي الابتدائية تقلص الحلم لأي مؤهل جامعي، وعند انتقالي للصف الثالث الإعدادي قال إن الحلم لأمثالنا خطيئة، باب الوسواس لدفع بني آدم للنِّقم والتمرد،

وأخبرني أني صرت رجلًا ونلت من التعليم قسطًا لا بأس به، وآن وقت التخلي عن ثوب الصبا وإعانته على الحياة.

أفنى أبي عمره في خدمة الحاج «شعبان المرسي»، غرَّه الدهر فلم يحتسب لتقلباته، وتسربت أيامه بين أصابعه، وهو يخال نفسه قابضًا على دُنياه، وبين ليلة وضحاها سُلبت عافيته، ولم يتردد الآخر لحظة في الاستغناء عنه، وبعدما كان ريسًا على مراكب المرسي غدا بائعًا متجولًا، يهيم بالشوارع حاملًا الربو في صدره ومِشنَّة الأسماك على كتفه، تتعثر خطاه بالأرض الوعراء، وتحرق الشمس رأسه، ينادي على بضاعته بصوت جهوري، يستغيث بالناس لشرائها قبل أن تتعفن بين يديه.

وضعني محله على متن القارب، ودفعني إلى وسط اليَم الذي أهلكه لأعيد دورة حياته؛ لكني لست مثله، ما كنت لأحسن الظن بالحياة أو آمن مكرها، علمت في قرارة نفسي أن العدل ليس من شيمها، ولا تأبه بما يريده المرء منها إلا إذا كنت قادرًا على أخذه، ولم يكن أبي أحد هؤلاء، طالما تحدث عن ضعفه وهوانه، أحلامه كلها مؤجلة للآخرة، داعيًا أن يكون بؤسه شفيعًا لروحه بالسماء، أما أنا فكانت أظافري ناشبة بالأرض، مُتشبثة بالدنيا، مُقررًا ألا أسمح لأحد بأن يُنمي لحم أكتافه بامتصاص دمي.

أحببت العمل بالصيد، ربما لأنه يُلخص نظرتي للحياة، نحن لا نملك النهر، وبالتأكيد ليس لنا أي فضل في جريانه أو ما يحمله من خيرات؛ لكننا كنا القادرين على أخذه، وكان ذلك كفيلًا بمنحنا الحق فيه، إلا أن هذا لم يرجعني عن اعتزام التخلي عنه في وقت ما، علمتُ مُسبقًا أنه مجرد خطوة على الطريق، غايتها تأهيلي للخطوة التالية وإن كنت أجهلها، تأكدت من ذلك حين رأيت الصيد يغيرني، زادني صلابة، وبسببه ألفت

المجهول، أخرج إلى الغيب قبل شروق الشمس، ولا أوقن بعودتي حتى تطأ قدمي الضفة عند الغروب، وكل شيء يهون على النفس حين تعتاد الخطر.

عرفت «هيثم مهابة» على متن القارب، كان فتى صالحًا بأوائل الثلاثينات، يتفانى في عمله أكثر من أيٍّ منا، ويحرص على أداء صلواته بأوقاتها، كلامه الشحيح يُحيطه بهالة من الغموض، أما أكثر ما يلفت النظر إليه كان بُنيان جسده، كتلة صخرية نُحتت بمهارة فائقة، عضلاته ضخمة بارزة، تضاهي أجساد أبطال المصارعة الحرة، ولم أخل أن لمثل هذه الهيئة وجود خارج إطار شاشات التلفاز.

اختبرت صلابته بأسهم نظراتي الحاسدة، فلم يتأثر، راقبته حينًا فازددت انبهارًا، ولم أتمالك نفسي فتوددت إليه، وتقربت منه لأكشف سره، فعلمت أنه بطل بالمعنى الدقيق للوصف الذي صار مُستهلكًا في زمننا، صعد إلى منصات التتويج مِرارًا، ونال العديد من الميداليات، تحَمَّل جسده آلاف اللكمات، ولكن روحه لم تصمد أمام صفعات الحياة، عجز عن الانتماء لأي من أندية القمة، وتم استبعاده من البعثات الرياضية لصالح لاعب آخر ينتهي اسمه بلقب عائلة «حديد»، ولم تجد موهبته راعيًا، فذبلت زهرتها تحت شمس ساطعة وعلى ضفة نهر جارٍ، وانتهى به الحال لهذا الحال.

اقتربت من «هيثم» بقدر ما سمح لي، وساعدني بقدر ما طلبت، صحبني من يدي إلى أول الطريق، علمني خُلق الرياضي وأسس بناء العضلات، وبرعت في الشق الثاني. صادقت المرآة، استمتعت برؤية بنية جسدي تتبدل شهرًا تلو الآخر، وخطوط العضلات ترتسم على كل جزء منه، أعرضت عن المنشطات وحقن التضخيم السريع، لم أكن أحد

الحمقى الساعين إلى إبهار فتيات المدرسة الثانوية، إنما أردت قوة حقيقية، وفي غضون سنوات قليلة ملكتها وصرت جاهزًا للنزال.

تبينت كم الغضب الكامن في صدري حين بدأت أُنفس عنه، كانت لكماتي تُسدد لذكرياتي المؤلمة، تحطم عوزًا أذلني، وحرمانًا أضناني، وصورة أب بقدر ما أحببته مقت ضعفه وخنوعه، هذا سري الذي أعانني على الثبات والصمود؛ لكنه لم يرُق لـ«هيثم» كثيرًا، قال عني: «لاعب مؤذٍ»، ولم أفقه قوله، كيف يكون كف الأذى وسط مباراة يتحقق النصر فيها بالضربة القاضية؟!

تكشفت حقيقتي لـ«هيثم» متأخرًا، والتي جهلتها عن نفسي طويلًا، حقيقة أني ذئب عصيٌّ على الترويض، الوحشية فطرته وأنيابه لم تُخلق للتباهي. غلبه اليأس في النهاية ولعله ندم على مَدِّ يد العون؛ لكن ما جعله يولي بصره بعيدًا عني جذب إليَّ بصر غيره، كان خمسينيًّا، متوسط الطول، أصلع الرأس، له شارب كثيف يخالط سواده بياض الشَّيب، جلده مرتخٍ، وبطنه المترهل يتدلى أمامه، مهووس بمباريات الملاكمة، ومعروف بين مرتادي الصالات المُغطاة والساحات الشعبية، وبرغم هيئته تلك، فحين يقف وسط ضِخام العضلات يكون أكثرهم هيبة.

عَرَّف نفسه باسم «يسري كتيبة» مسبوقًا بلقب «المعلم»، أبدى إعجابه بقوتي ومهارتي، وقال إن بإمكانه تقديرهما بما تستحقانه، ودعاني لتناول العشاء في مطعمه بمنطقة شبرا، وهناك أعد لي وليمة من مُخلفات العجول، أوسطها لحم الرأس واللسان، وحوافها أمعاء محشوة، وطواجن من الذيل، انشغلت بتدمير ذاتي بأكبر كم من الدهون، بينما يتناقلني هو بكلماته بين أمور لا رابط بينها، حدثني عن المستضعفين في

الأرض والحقوق المهدرة والعدالة الغائبة، وصالح العمل الذي يجلب خير الدنيا ويُدَّخر للآخرة.

ثرثر طويلًا قبل أن يوضح مقصده، وتبينت بالنهاية أنه يجمع حوله زمرة من الأشداء، يقودهم لتحقيق العدالة مدفوعة الأجر، ويردون الحقوق لأصحابها لقاء نسبة من قيمتها، ولكنه لا يتولى أمرًا قبل أن يتحراه، ليتأكد من أن رافع مظلمته إليه مظلوم بحق، ولم يعنني من كل هذا الهراء سوى معرفتي المُسبقة ببعض أتباعه، وأنهم منعَّمون، يجنون مالًا وفيرًا -حتى تلك اللحظة- كنت أجهل مصدره، وصرت عضوًا بالكتيبة التي استمد منها كُنيته.

خضت صولات إلى جانب «المعلم يسري»، بأول شهرين فقط مكنَّا رجلًا من شقته التي تعنت المقاول في تسليمه إياها، وحَصَّلنا قيمة إيصالات أمانة بمئات الآلاف من الجنيهات، وعافينا أصحابها من مماطلات المحاكم، وحررنا قطعة أرض من واضعي الأيدي، وبكل مرة كان يزداد إعجاب «يسري» بي ويتفاخر بأنه أصاب الاختيار، هكذا يسعد الناس بامتلاك كلب شرس ما دام يهز ذيله فرحًا، ويأتيهم لاهثًا شاكرًا كلما ألقوا عظمة إليه.

ودَّعت حياتي الماضية، استأجرت شقة خارج الوراق ونقلت أبي إليها، ولأول مرة منذ أمد بعيد لم يعد تدبير نفقات علاجه يثقلنا. كان عالمًا بما أفعل وحتمًا لم يكن راضيًا؛ لكنه لم يجرؤ على البوح بهذا، أيقن بأن أحدنا لن يقبل بالتراجع عما بلغناه، وإن قبل فلن يستطيع، استشعر كلانا آدميته للمرة الأولى، وعرف كيف تكون حياة البشر، غريب أن إنسانيتي لم تكتمل إلا حين تيقظت فيَّ كل غرائزي الحيوانية!

أحب «يسري كتيبة» رفقتي وأحببت مدحه إياي وسخاء عطائه، عرفت على يده حمل السلاح الأبيض، ومنه تعلمت متى يكون التلويح به كافيًا ومتى يصبح استعماله حتميًّا، كان خبيرًا بأصناف الناس، تكفيه نظرة واحدة للرجل ليتبين أوله ومداه، ربما لم أكن أقوى رجاله؛ لكني كنت أشدهم قسوة وأكثرهم تهورًا، وتلك في عالمه ميزة قلما تتوفر. لم أتوانَ عن إبهاره، وبقدر ما كان يروقه هذا كان يقلقه عجزه عن توقع أفعالي، صارحني بهذا في إحدى جلسات صفانا، ولم يتصور كلانا أننا سنتبين كم كان محقًّا بتلك السرعة.

رؤية حقيبة مكدسة برزم النقود عذر كافٍ لشطط العقول، خاصة إذا ردها أحدهم بدم بارد، وهذا ما فعله «يسري» حين أتاه بها تاجر السيارات «طارق غانم» طالبًا إحراق مقر شركة الاستيراد الخاصة بزوج ابنته، وتلقينه درسًا جزاءً لإهانته لها ومحاولة إذلالها، وعرض مائة ألف جنيه في المقابل، مع إظهار استعداد للتفاوض؛ لكن «يسري» كان قاطعًا في رفضه، مُعللًا بأنه لا يتدخل بمثل هذه الأمور، ولا يفضل تقديم خدماته لهؤلاء المتكبرين، ممن يحسبونه يعمل لصالحهم، ويخالون أنفسهم قادرين على تملُّك أعناق الخلق بأموالهم.

خالفته الرأي، وعيت لقدري وحجمي جيدًا، ولم أدَعْ حاجز كرامتي الوهمي يحجبني عن الواقع، نحن نتاجر بعافيتنا، نطرحها للمزاد ونسلمها لمن يدفع أكثر، لم أرَ نفسي إلا عصا، مجرد عصا لا يضيرها إن كانت بيد موسى أو قبضة فرعون!

توصلت إلى «طارق غانم» وأخبرته باستعدادي لتنفيذ مطلبه، فأبدى تشككه في صدقي وقدرتي، فعرضت عليه تلقي خمسة آلاف جنيه فقط

كمقدم، وهي بعـض «الفَكَّة» بالنسبة إليه، بينما يمكنه الاحتفاظ بباقي المبلغ لحين إتمام الأمر.

احتجت المال لإقناع اثنين من أتباع «يسري» بالتمرد عليه واستمالتهما إليَّ، وكنت واثقًا بأن ما سأفعله بزوج ابنة «طارق غانم» سوف يُحبط عمل شيطانه الذي حتمًا وسوس له بالتنصل من اتفاقنا.

سمعت بأن الأُسود حين تطأ أرضًا جديدة تزأر للإعلان عن نفسها، فأردت لزئيري أن يكون مدويًا. تعقبت الهدف لثلاثة أيام، ولحسن الحظ لم يكن يغير مساره، فحددت النقطة والساعة المثاليتين وتربصت به، وحققت لطارق أكثر مما أراد حين حملت هذا الخنزير مقيدًا في حقيبة سيارته إلى مقر الشركة، وأرغمته هناك على إضرام النيران بنفسه افتداءً لحياته، وتركته على عتبتها عاجزًا حتى عن لطم وجهه.

ذاعت الأنباء -كما خططت وأردت- في أوساط الأشقياء والأثرياء، وكما حرصت بقيت محض رواية تتناقلها الألسن بلا دليل على صدقها، بلغ صداها «طارق» فاستقبلني بأذرع مفتوحة، ونقدني أجري دون خصم ما تقاضيته مقدمًا، ووصلت أخبارها إلى «يسري» فثارت ثائرته، ولفظني خارج دائرته، معتقدًا أن في هذا ثمة عقاب!

مَرَّت الأيام ولم يكن الطرد كافيًا لمداواة الملك الجريح، المطعون غدرًا ممن ظنه أحد المقربين، احتاج رد فعل أقوى ليرد به اعتباره، فساق اثنين من رجاله لهلاكهما حين أوعز إليهما بتوصيل تحياته إليَّ محمولة على نصال أسلحتهم، فأرجعتهما إليه زاحفين على البطون، المعضلة أن هذا أيضًا لم يكن كافيًا لإشباع غرور ملك جديد لا زال يُثبِّت أركان عرشه.

لم يدع «يسري» لكلينا بديلًا عن الاحتكام للعُرف الحاكم لعالمنا السفلي، فكانت الليلة التي لن ينساها كل من شهدها أو سمع بها، أضاء ظلمتها لهب المولوتوف المُترامي، وضَجَّ سكونها بأعيرة الخرطوش، وحسمتها الخيانة، وانكسرت شوكة «يسري» بتخلي أغلب رجاله عنه، وتُوجت ملكًا للأوباش، فلم يذكر أيٌّ ممن قُبض عليهم اسمي بالتحقيقات، وتوجب عليَّ البرهنة على أحقيتي بالمُلك، فأرسلت المحامين في أعقابهم، وألقيت لأهلهم حِفَنًا من مال علمت بأني -بعدما جرى- لسوف أعوضه مضاعفًا عما قريب.

سرت على نهج «يسري» دون التقيد بالهراء الذي آمن به، ظللت عصا، لا تمانع أن تكون بيد أحدهم اليوم وعلى رأسه باليوم التالي، واستمرت علاقتي بـ«طارق غانم» بعدما تبيَّن أن ما لديه من الخصوم يفوق ما لديه من الأموال، خففت حموله وأثقل خزانتي، وعرَّفني بآخرين مثله، مستعدين لإنفاق الكثير كي يغمس آخر يده بالقاذورات ليُبقي أيديهم طاهرة، وقد كانت قاذوراتهم جبالًا، الخفي منها أضعاف الظاهر.

تبدلت الحياة على نحو لا يوصف، حتى بدا ما مضى منها أبعد مما يمكن تذكره، امتلك «يسري» كتيبة، أما أنا فصار تحت إمرتي جيش، أدير معاركه من خلف مكتبي بمقهى المهندسين الذي افتتحته أسفل برج سكني تملَّكته وانتقلت إليه، ولم أعد أنتشي بالتعري أمام المرآة والنظر لضخامة عضلاتي، بقدر ما صرت أسعد بتأمل قمصاني الحريرية وخواتمي المُرصعة.

زال الشقاء فزادت المشقة! النوم مجرد غفوات، والطعام رديء أعدُّه بنفسي، هكذا تصبح الحياة حين تتكسَّب رزقك من اكتساب العداءات، كل جنيه أُضيف لأرصدتي قابله شخص يتمنى موتي، كل خطوة يُحتمل

أن تكون فخًّا، كل قطرة ماء قد تكون سُمًّا، وكل مساء يحلُّ أشك في أن يعقبه صباح، لا أطمئن إلا بتحسس مقبض مسدسي يلاصق لحمي، وعَيَّنت حرسًا على كل باب أتوارى خلفه، وأغدقت عليهم العطاء لأضمن أن ترجح كفتي إذا حاول أحد شراء ولائهم.

رغم كل شيء تحتمت عليَّ المواصلة، بعض طرق الحياة ذات اتجاه واحد، والخطوة بها بمقدار ألف ميل، إن بدأتها فعليك أن تسلكها للنهاية، والطريق الذي اخترت كان جرفًا سحيقًا، كلما كبر حجمك به تسارع سقوطك، وقد كبرت لدرجة ما كنت لأتصورها، عندما بدأ كل هذا لم أرغب في أكثر من تأمين علاج أبي الشهري، وعشاء دسم نجتمع حوله يومًا بالأسبوع.

ربما كنت مُخيرًا في النزول إلى البحر، ولكني لم أكن مُتحكمًا بالأمواج، فحملتني لأبعد كثيرًا مما توقعت، جرفتني لعوالم جديدة، تعلَّمت بها أن للقوة أشكالًا عِدة، وأني تمنيت أضعفها، ميزان القوة الحقيقي كفَّتاه الثروة والنفوذ، ولا سبيل لاتزانه إلا بإنفاق الأولى لجلب الثانية، واستغلال الثانية لتأمين الأولى، وكنت أنا رمانة تلك الموازين بالنسبة لأصحابها.

توليت مهام عِدة نيابة عنهم، وعُرِفت بينهم باسم «عاطف الجن»، مُحقق الأماني الذي يحضر كلما دعكوا دفاتر شيكاتهم، فضضت اعتصامات عمال مصانعهم، وأمَّنت مرور بضائعهم المُهربة، وزَّعت رشاواهم في مواسم الانتخابات، وأجبرت منافسيهم على التراجع عن بعض المناقصات، يشيرون إلى العائق فأزيله من طريقهم، ويذكرون اسم حامل المعلومة فأنتزعها منه.

تقلبت الحياة وجاءت باللحظة التي تهربت دومًا من تخيلها، كان مجرد تصورها يرعبني، فارقني أبي وتركني وحيدًا واهنًا وسط رجالي وسلاحي ومالي وسطوتي، فاضت روحه على فراشه الوثير، مُحاطًا بممرضته وخدمه، آمنًا مُطمئنًا، فلا بد أنه كان راضيًا عني، ووجدت في هذا سلواني.

أكرمت مثواه، جعلت قبره روضة صبار وريحان، وصنعت من موته عيدًا للمساكين ليدعون له بالعفو والمغفرة، وإن كنت لا أعلم له ذنبًا سوى إنجابي، وأقمت لأجله مأتمًا يليق بوداع الملوك، ووقفت عند بابه حابسًا دمعًا لا يليق بمثلي، كاظمًا غيظًا لا يليق بجلال الموقف، قابضًا يدًا لم تجد من تصافحها أو من يشد عليها!

لم يحضر أحدهم للعزاء، ولا أعلم ما دفعني للاعتقاد باحتمالية ذلك، لعل ما بلغته أنساني قدري فتجاوزت حدي، وغُررت بمعاملتهم الودودة فتوهمت أني أحدهم؛ لكني لم أكن إلا عورتهم التي يخشون فضحها، عاهرة بفراشهم، يسعدون بوجودها ويسترضونها بكل غالٍ، ولا يكتمل سحرها إلا ببقائها في الظل.

انقضت ليلتي الكاشفة، وارتضيت الحقيقة التي أظهرتها، وأول ما يُعرف عن العاهرات أنهن لا يعتددن بأحد، ولا تُبهرهن هالة، ولا يرهبهن هيلمان، أعتى الرجال يأتوهن عرايا، وأَحَدُّ الشوارب تتدلى أمامهن، ليس بين هؤلاء الأنذال من يستطيع أن يدَّعي شرفًا أو مقدرة، لو عرفوا الأول ما طلبوا خدماتي، ولو ملكوا الثانية ما احتاجوا إليها.

جفاني النوم تلك الليلة، وكانت السويعات المتبقية قبل بزوغ الفجر كافية لأعيد ترتيب أوراقي وأحسم قراري، سئمت دور هامان، وأردت

أن أبني لنفسي هرمًا بأرض الفراعين، فاستدعيت «حسن الكردي» أقدم رجالي وأخلصهم، وأمرته بالاستعداد لعاصفة وشيكة، وحملته أثقالًا أعلم أنه قادر عليها، وكما عهدته دومًا سمع فأطاع ولم يسأل عما لم أنطق به، ومع أول رنين للهاتف أعلنت تسعيرتي الجديدة.

كانت أرصدتي وخزائني ومخابئ الطوارئ مُتخمة بأمواهم سلفًا، فلم أعد أريد منهم إلا تبادل النفع، وأن يفعل كل منا ما يجيده، أراد «سعد الشهاوي» إخراس الشاهد الوحيد القادر على الزجِّ بنجله وراء القضبان، فكان عليه أن يُسهل لي امتلاك قطعة أرض بثلث قيمتها، وترجاني «فوزي فتوح» لأسترد صورًا فوتوغرافية سُربت لحفله الماجن بفيلا الساحل الشمالي، ولعلمه بأن أهون ضيوفه قادر على فصل رأسه عن جسده، لم يتردد في إسناد بعض المهام بالأمر المباشر لشركة التوريدات خاصتي، ذات الشركة التي ساعدني «أشرف أبو المجد» في تأسيسها لأرسل في أعقاب زوجته الشابة من يراقبها.

كل اسم من هؤلاء بمثابة تعويذة سحرية أشبه بـ«افتح يا سمسم»، كنت «علي بابا» وكانوا أربعمائة حرامي، ففتحت لي أبواب الدنيا على مصاريعها، ولم تعد هناك مغارة تتسع لكنزي، فعيَّنت فريقًا من المحاسبين يواصلون النهار بالليل أمام شاشات الحواسيب ليعيدوا تدوير أموالي، ويعيدونها إليَّ مُنقاة من دنس أي شُبهة.

رصصت أحجار هرمي حتى خرقت قمته السماء، تاجرت بكل مشروع ومحظور، أعمال التوريدات والصرافة والمضاربة بالأسهم، واستوردت بضائع عديدة لأمرر بداخلها كيلوات من مسحوق الكوكايين، ولم أتخلَّ عن عملي الأصلي حفاظًا على الخدمات التي تُسهل كل هذا.

عجزت عن مراقبة قفزات حساباتي المصرفية، وتملكت أراضي لم تطأها قدمي، وسُجلت باسمي عقارات لا أعرف عناوينها، جرى كل شيء بسرعة حلم، أفقت منه لأجد نفسي قد استحلت أخطبوطًا بألف ذراع ممتدة بكل جانب، وناشبة بكل شيء، وبتلك اللحظة تبيَّنت مدى اختلال ميزاني، ولأعادل كفتيه كشفت عن نيتي للترشح في الانتخابات التالية.

أحكمت بناء خطتي، وتخيرت دائرة صغيرة بإحدى المناطق الريفية، إقامة مشروع خيري واحد على أرضها كفيل بإذاعة صيتي، ناسها مساكين تسهل استمالتهم بقول طيب وبعض الإعانات الغذائية، أما أهم ما يميزها فكان الشائعات المترددة حول الشذوذ الجنسي لنائبها «رجب الشيباني»، فتولى رجُلي «حسن الكردي» إيجاد ما يُثبت صحتها، ثم زار الرجل في بيته ولم يغادره حتى أقنعه بالانسحاب وتزكيتي أمام العوام.

اكتست جدران القرى بصوري، وحجبت لافتاتي شمسها، وجابت شوارعها عربات تصدح مُكبرات أصواتها باسمي، واحتشدت جموع أهلها بين يدي يهللون ويصفقون وأنا أصب وعودي في آذانهم، أتقنت الكذب فأجادوا دور المُصدقين، ورأيت الكرسي على بُعد خطوات مني، اعترضها «طارق غانم» بزيارة مباغتة، جاءها مُحملًا برسالة تحوي الوعيد في قلب النصيحة. أخبرني بأن السادة لا يُباركون فعلتي، وأن وجودي تحت القبة لا يشعرهم بالارتياح، وقال إن الأوان لم يفت، ولا تزال الفرصة سانحة للتراجع مع ضمان تسيير مصالحي، واختتم قوله بأن عليَّ تأجيل ترشحي لدورة أخرى لحين طلب الإذن ونَوْل الرضا.

عاشرت الفراعنة القدامى فترة كافية لأدرك مدى كراهيتهم لفكرة أن يُزاحمهم فرعون جديد مُلكهم ويشاركهم سطوتهم، مؤكد أن الخروج

من عباءتهم وتحصين ذاتي قد أقلقهم، وأخافتهم فكرة تحولي من درع لهم لسيف عليهم، وأثبتت رسالتهم أني ماضٍ في الطريق الصحيح، وما هي إلا أسابيع قليلة حتى يصبح لقب «النائب» أمرًا واقعًا سيقبلونه في النهاية، أو سأرغمهم على ذلك.

غفلت عن أن تلك الأسابيع أطول كثيرًا مما يحتاجه أمثالهم لتدبر الأمور، وانتبهت برنين هاتف مزعج في ساعة متأخرة يُعلمني بأن الشرطة تداهم مخازني، فتوجهت لهناك بثبات الواثق من نصوع صفحته، وبداخلي تتردد أصداء ضحكة مُجلجلة كلما تصورت حسرتهم بعد رد كيدهم. شددت قامتي ودلفت للمخزن مُعتزم الثورة؛ لكن احتبست كلماتي الساخطة في صدري، وأنا أرى رجال الشرطة مُتحلِّقون حول صناديق شحنة أحبار المطابع التي لسبب ما بقيت بموضعها رغم أني أمرت مُسبقًا بنقلها، وكان واضحًا أنهم عالمون -مثلما أعلم- بما تحتويه.

سمعت مرة أن قانون مكافحة المخدرات يرصد مكافأة لضباط الشرطة من قيمة المضبوطات، وإن كان الأمر كذلك فلا بد من أن قائد المجموعة قد أضحى مليونيرًا بعدما استمر رجاله بالعمل حتى ظهيرة اليوم التالي ليفتشوا عن كل جرام من الخمسين كيلوجرامًا من المساحيق البيضاء المخبأة داخل عبوات الأحبار، وما عثروا عليه لاحقًا في بيتي ومكتبي من أسلحة وعملات أجنبية لم يُحدث فارقًا كبيرًا، كان هذا الكم الهائل من الكوكايين كفيلًا بإخراجي من الساحة والحياة برمتها.

لم أفكر كثيرًا لأتمكن من ربط الخيوط، فقد كان الجميع حاضرًا، عدا «حسن الكردي»، توجب عليَّ من البداية معرفة أن منصب هامان سيكون مُغريًا له، كما أغراني أن أتوَّج فرعونًا، أحسنت تعليمه فلم يتردد في اغتنام الفرصة حين جاءته، ولن أندهش لو علمت بأنه اختلقها، وأن

تخلصه منِّي كان قربانًا قدم به فروض الولاء والطاعة. الوفاء ليس عملة نادرة، إنما عملة وهمية، لئن وجدتها فاعلم أنها مزيفة!

عجز ثلاثة من أكابر المحامين عن إفلاتي من الإعدام، وحتى تلك النقطة لم أخسر كل شيء ما دامت رأسي لا تزال فوق كتفي، وهي تحوي الأكثر والأثمن، وما تحمله من أسرار كفيل بألا يدع موضع قدم فراغًا بزنزانات هذا السجن الفسيح، لهذا كان عليَّ الحذر، أنا أعلم الناس بأنهم لن يسمحوا بوجود احتمال واحد بالمليون أن تُثار الشكوك حولهم، ولفترة طويلة كان هذا تحديدًا مصدر رزقي، والمشنقة ليست الوسيلة الوحيدة للتخلص من رجل داخل السجن.

كل وقع قدم يقترب يُنذر بالهلاك، كل نظرة تصوب إليَّ قد تكون متربصة، ولحماية حقي في كل يوم تركته المحكمة لي لأحياه، كان لا بد من الرجوع للأساليب القديمة.

لحسن الحظ لا أزال أذكر كيف تُشَدَّد القبضة وتُسدَّد اللكمة...

وأن بداخلي غضب عارم لأُنفس عنه...

❖❖ ❖❖ ❖❖

[7]

لأجل ما سوف يكون

كنت طفلًا ذا نظارة، وتلك لعنة لن يفهمها كثيرون، ذلك الحاجز الزجاجي المُرتكز على طرف الأنف يُبيِّن لك العالم بقدر ما يحجبك عنه، تشاهد عبره الأطفال يركضون من حولك وتعجز عن مجاراتهم خشية انكسار النظارة التي توصيك أمك بسلامتها كل صباح قبل أن تتمنى لك السلامة، وإذا ما هممت بالاشتباك مع أحد الحمقى -وما أكثرهم بالمدارس- لا بد أن تتأخر ثانيتين لطيها وحفظها في جيبك، وتلك فترة طويلة جدًا في عمر العِراك، كافية لتتلقى الضربة الأولى، ولن تكون الأخيرة ما دُمت تصارع شبحًا لا ترى منه إلا طيفًا.

النظارة تُلزمك الجلوس بالصف الأول، والصف الأول يُلزمك بمسح السبورة وحمل أدوات المُعلم، والحرص على اكتمال وتنظيم دفاترك تحسبًا لأي تفتيش مفاجئ؛ فالمُعلم لن يغفر أبدًا إحراجه أمام موجهي الوزارة. النظارة هي كُنيتك، تُعرَف دومًا بها، لا يتحمل أحد عبء سؤالك عن اسمك، فأنت بالنسبة للجميع «أبو نظارة» وهذا كله الجزء الهين.

كنت على الدوام سببًا في رسم البسمة على الشفاه، وانتزاع القهقهات من الحناجر، سبعة وستون كيلوجرامًا، بارتفاع مائة وأربعين سنتيمترًا يتدحرجون فوق الأرض، أشبه بالرجل الشهير بإعلانات إطارات

السيارات آنذاك، أو هكذا قال بعضهم، تحتل نصف وجهي عدسات غليظة يحيطها إطار أسود سميك، هذا الطراز المُعتاد للنظارات التي تَمُنُّ بها هيئة التأمين الصحي على المُبتلى بضعف البصر، وارتأت أمي أنها الأكثر صلابة والأنسب للمدرسة، ولم تأبه باسم «زكية زكريا» الذي لاحقني أينما ذهبت، واسمي الحقيقي لم يكن أفضل كثيرًا، أنا «تامر علي رضوان القفل»، وحتى تلك اللحظة لا أعلم ما الذي قد يدفع عاقلًا إلى أن يُسمي ابنه قفلًا، ليظل الاسم يطارد ورثته لأكثر من مائة عام!

لم يكن البشر بالنسبة لي إلا مصدرًا للإزعاج، وسببًا للألم، ولُب المعاناة، أتعجب استيعاذاتهم المتكررة من الشياطين وأنا لا أستعيذ إلا منهم. ألفت وحدتي وتوحدت معها وسكنت إليها، عطلاتي الصيفية حُكم بالحبس الانفرادي، عقوبة أقضيها راضيًا، مُسلسلًا إلى شاشة التلفاز، وأحيانًا أختلس النظر من الشرفة إلى صبيان في مثل سني يلعبون الكرة، يشاغبون المارة، وتلعنهم جارتنا العجوز وتتوعدهم بالشكوى لأهلهم، وتسكب الماء فوق رءوسهم، وأفعالهم التافهة تلك في نظري كانت مغامرات أسطورية، كثيرًا ما تملكتني الرغبة في مشاركتهم إياها، وسرعان ما كنت أصرف هذه الوساوس عن عقلي، فأنا لا أصلح لمُصادقة أحد، كما أن أمي لن تسمح بذلك، هي في الواقع لا تسمح بأي شيء!

كل الأبناء في نظر أمهاتهم غزلان، وفي نظر أمي الجميع كانوا ذئابًا متربصة بغزالتها البدينة. لا تتحدث لهذا، ولا تُساير ذاك، وهؤلاء سوف يفسدون أخلاقك، وأولئك قد يحقدون عليك. كانت هي المُبصرة وأنا الأعمى، تفكر وتقرر وتختار، وأنا أرضخ وأشكر وأُظهر كثيرًا من الامتنان. مجرد الامتعاض من تصفيف شعري إلى الجانب، أو رفض ارتداء البنطال القماشي الذي يليق بجدي الأكبر إساءة أدب تستوجب

العقاب، جعلت يومي سلسلة من التحذيرات وحياتي جبلًا من المحاذير، فأنا ابنها الوحيد الذي -كما تقول- تخشى عليه من الهواء، ولتحميه منه كتمت أنفاسه.

كانت أمي الحاجز الأول بيني وبين مُجاراة أقراني؛ لكنها لم تكن الأكبر، الحاجز الأكبر كان داخل عقلي الذي يسكنه شبح مقيت يُدعى «تيخا». من مَرَّ بمدارس البنين الحكومية يومًا يدرك أن لها طابع السجون، تسيطر عليها زُمرة من المشاغبين الأشقياء، وتحكمها أعراف قبلية تُشَرِّع الثأر، وتجعل الشكوى للناظر أو ولي الأمر عارًا يلاحق صاحبه الجبان.

ذات يوم أوعز إليَّ شيطاني بمشاركة الطلاب مباراة كرة قدم، فوجدوا ما يسليهم أكثر من اللهاث وراء كتلة المطاط، وقام «تيخا» أقدم طالب بالمدرسة -لتحطيمه الرقم القياسي في مَرَّات الرسوب- بانتزاع النظارة عن وجهي فحَوَّل الوجود للوحة سريالية تتمازج ألوانها وتتلاشى فيها الأشكال.

خرقت آذاني ترديدات: «بروطة.. بروطة»، وأرشدني وقع الصوت إلى أن هؤلاء الحمقى يدورون حولي، وشحوم أجسادهم ترجرج بضحكاتهم المجلجلة، جاهدت كي لا تدمع عيني، ولكن ذلك الكسر في داخلي كان أشد وأقسى فأجهشت بالبكاء، فتعالت القهقهات وانقلب هتافهم لـ«حيعيَّط حيموت»، ولم أدرِ ما المبهج في بكائي أو موتي، فجثوت على رمل الفناء أخفي دمعي وأواري النار في صدري، وظللت ألعن عاهتي حتى انفض حفلهم المجاني بصيحة مُدرِّس ربما أيقظه صياحهم من قيلولته في غرفة المعلمين.

لثلاث ليالٍ لم يعرف النوم سبيلًا لجفوني، وبالنهار الرابع كان الحدث الجلل، اختفى هاتف الناظر المحمول من داخل مكتبه، وكانت الهواتف

آنذاك تساوي ثروة صغيرة تستدعي إغلاق المدرسة، والتهديد بإبلاغ الشرطة، وعدم استثناء طالب أو مُعلم من الشُبهة، فشكَّل المعلمون لجان تفتيش على الفور، وبعد ساعة من البحث وجدوا ضالتهم داخل حقيبة «أحمد تيخا».

عجزت صفعات المُعلم المُنهالة عليه عن إفاقته من الذهول لدقائق، ملأ بعدها الدنيا صخبًا، يصرخ بأنه لم يفعلها ولا يدري كيف دُس الهاتف في حقيبته، ولسوء حظه كنت وحدي من يصدقه، وكنت من يعرف «كيف ومتى ولماذا»، كما كنت وحدي المستمتع بوقع ضربات الخرزانة فوق مؤخرته، ولعْق والده لحذاء الناظر ليصفح عنه ولا يدمر مستقبله، كنت الوحيد العارف بكل شيء سوى وجود ذلك العفريت المريد في داخلي، وأدين لـ«تيخا» بالفضل في تحضيره!

حضر عفريتي بهذا اليوم ولم ينصرف، بالشهور القليلة التالية فوجئ «أحمد عبد القادر» بأن الصفحات التي حَلَّ بها الواجب المدرسي اقتطعت، وجُن «هشام محمود» حين عثرت مُعلمة الدراسات الاجتماعية على أقصوصات مجلة إباحية مُخبأة داخل كشكوله، أما «محمد إسماعيل» فمستعد لدفع نصف عمره ليعرف من اتصل بمنزله وأخبر والده عن تدخينه لفائف التبغ.

هؤلاء وغيرهم لم يلاحظوا أني صرت فجأة مبروكًا، تلاحق اللعنات كل من يؤذيه بكلمة، ربما كان أسهل عليهم التصديق بأن هناك روحًا شريرة أو جنًّا سُفليًّا يسكن الفصل ويتلاعب بهم، أما «تامر القفل» فهو مسكين قليل الحيلة، مجرد برميل من الدهون يتدحرج فوق الأرض ببطء، خشية أن ينكفئ فتتحطم نظارته.

أُقر بأن للانتقام مذاقًا حلوًا، ولكن مُر القهر يبقى في الحلق أطول، وما فعلته -وبرغم كل ما تكبدته وما خاطرت به لفعله- لم يكن كافيًا لرأب الصدع في نفسي، فمضت حياتي على منوالها ومضيت بها مرغمًا، آملًا أن يتوصل العلم يومًا لجراحة تستأصل الذكريات، ربما أرتاح إذا استبعدت من عمري كل ما فات، وإن كنت غير واثق بأن الذكريات التي ستتراكم بالآتي منه ستكون أفضل.

حجبت نفسي عن الواقع وراء أطنان من ورق القصص والروايات، خير أنيس ومهرب لأمثالي، اعتدت تخيل نفسي مثل «أدهم صبري»[1]، ولكن أشد منه قسوة، لأُنكل بأعدائي ولا تأخذني بهم رحمة، ولكني أعلم بأني لن أكون إلا «رفعت إسماعيل»[2] المنحوس الذي تطارده اللعنات، غير أن لديه بدلة كُحلية تجعله فاتنًا، وأنا ليس لديَّ شيء!

كبرت، ولم تزدني السنون إلا أرطالًا إضافية من الدهون، زادت بدورها من احتمالات التعرض لتصلب الشرايين والسكتة الدماغية قبل إتمام عقدي الثالث، ورأيت هذا عادلًا، يكفيني من الحياة ثلاثون عامًا، الحياة التي لم أكن مُخيرًا في القدوم إليها، ومُحَرَّمٌ عليَّ شرعًا الخروج منها.

أتممت عامي السابع والعشرين، ونظريًّا تغيرت كثير من الأمور، وليتمادى القدر في سخريته اللاذعة تخرجت في المعهد العالي للخدمة الاجتماعية، كان أفضل خيار أتاحه مجموع الثانوية العامة، وأسوأ خيار للحياة العملية، وأنا آخر شخص قد يساعد الآخرين على تخطي

(1) أدهم صبري: شخصية خيالية لضابط مخابرات مصري ابتكرها الكاتب الراحل د. نبيل فاروق، وهو بطل سلسلة روايات «رجل المستحيل».
(2) رفعت إسماعيل: شخصية خيالية أبدعها الكاتب الراحل د. أحمد خالد توفيق، وهو بطل سلسلة روايات «ما وراء الطبيعة».

مشاكلهم، من الجيد أن لا أحد بهذا البلد يعمل بمقتضى شهادته، فانتهى بي المطاف -بعد وساطة خالي- محشورًا بكرسي مكتب بأحد مصانع الأدوات الكهربائية.

بمناسبة خالي، فقد خطبت ابنته «سارة»، أو بالأحرى خطبتها أمي، ثم أخبرتني بذلك، ولم أعر الأمر اهتمامًا، ربما لاعتيادي تصرفات أمي، وربما لأن «سارة» ممن يُقال عنهن «بنات حلال»، طيبة هي، هادئة الطباع، وعلى قدر لا بأس به من العلم والجمال، ولأني لم أكن راغبًا بالزواج، ولأني حتمًا سأتزوج ذات يوم، ارتضيت بها، من منطلق «الأقربين أولى بالمعروف»، هذا بافتراض أن الزواج بشخص مثلي معروف.

لفترة ليست قصيرة لم أعرف تحديدًا وظيفتي بالإدارة التي ألحقوني بها بالشركة، الموظف الجديد صيد سهل للقدامى، يُلقى على عاتقه الكم الأكبر من المهام، وينال القدر الأقل من التقدير، وكنت صيدًا سمينًا، لا أقصد وزني بالطبع، إنما خجلي القاتل وعجزي عن السؤال والجدال والاعتراض. غُصت وسط أكوام الملفات، وكاد يُعمي بصري التصاقه بشاشة الحاسب، ويُفجر رأسي إتخامه بالأرقام والتواريخ، بينما من حولي متفرغون للهمس واللمز وخبيث القهقهات، كلما اختلست النظر إليهم رأيتهم يلوكون سيرتي ودماء كرامتي تسيل من أشداقهم؛ لكن لا أستطيع الجزم، لعل كل هذا محض هواجس، لا وجود لها إلا في عقلي المعذور في شكوكه بالبشر الذين كانوا دومًا عند سوء ظنه.

جاءت البشرى بأن موظفًا آخر سينضم لإدارتنا، لن أكون الموظف الجديد بعد الآن، وصيد آخر في طريقه للفخ الذي علقت به شهورًا؛ لكني نسيت أن الأشياء الجيدة لا تحدث لي، والموظف الجديد كان هو نفسه فخًّا، وهَلَّ علينا يدق الأرض بكعبين مدببين يقوم عليها قوام

أنثوي ممشوق، لصاحبته وجه رقيق القسمات، تُعقد الألسنة وتعجز عن وصفه، لو كنت أؤمن بالتناسخ فحتمًا هذا الجسد بُعث فيه «أودري هيبورن» و«جريس كيلي» مُجتمعتين، ولو كنت أصدق الخرافة لقولت إنها النداهة، وأقسم على أن كل الرجال مستعدون لاتباعها إلى أقاصي الأرض.

«علياء موسى»، عَرَّفت نفسها بصوت من الجنة، وأنبتت بوجودها ريحانة في مكتبنا، وحتمًا كنت أول من لفت انتباهها، من لا ينتبه لبرميل محشور داخل قميص تبتلُّ ياقته بشلالات العرق المُنهمر على وجهه، يُسكته الخجل إذا أراد التكلم، ويُلعثمه الارتباك إذا اضطر إليه.

كنت أسمعها تتحدث للآخرين، فأعرفها أكثر، كانت خلوقة طموحة، تُعد رسالة ماجستير في إدارة الأعمال، وتعرف جيدًا كيف تكون لطيفة، وكيف تُبقي الجميع على بُعد المسافة التي تحددها، وكان هذا ضروريًّا، خاصة بعد تحول كل موظفي الشركة -الذكور طبعًا- لشعلة حماس، وتذكروا فجأة أن لجميعهم مهام مُتصلة بإدارتنا ليترددوا عليها عشر مرات يوميًّا، وفجأة أصبح أعزبهم يبحث عن ابنة الحلال، والخاطب منهم يرثي حاله، والمتزوج يلعن الغولة الرابضة في البيت.

كان «هشام محمود» بين هؤلاء، وهو أحد الحمقى الذين زاملوني بالمرحلتين الإعدادية والثانوية، كنت أعلم أنه موظف بالشؤون القانونية بنفس الشركة؛ لكننا لم نلتقِ -أو حرصت على ذلك- ولكن تغيرت الأمور بعدما طلع بدر «علياء» في سمائنا. «هشام» هو ذلك الطفل الحريص على مراقبة تزاوج قطط الشوارع، والصبي الذي ملأ وحدة تخزين الكمبيوتر بالأفلام الجنسية، والمراهق الذي يُعد من رواد التحرش، فصار ذلك

الشاب السمج الذي يُعد نفسه أظرف الظرفاء، يتمازح بالطعن في شرف الأمهات، ويتفاخر بدناءته وعدد المُعذبات بحبه.

أسوأ ما بالأمر كان ثقتي بأنه لن يُظهر شيئًا من ذلك أمام «علياء»، أمثاله لا يبرعون في شيء مثل الكذب، يكتسون بجلود الحرباء، يتلونون بالهيئة والطباع التي يعلمون أن الآخر يرغب في رؤيتهم عليها، كان واضحًا جليًّا أنه ينصب لها فخاخه، يمازحها بلطف، ويمتدحها دون مبالغة إذا سنحت الفرصة، وإذا همس لها فابتسمت خالجني شعور بأنه يتندر عليَّ أو يروي موقفًا مما كان في ماضينا.

كان تقربه منها مزعجًا، ربما لأني أيضًا موظف ذكر، لسبب لا أعرفه -أو أعرفه وأنكره- صرت أهتم بمظهري، وللسبب نفسه تكشفت لي عيوب «سارة» فجأة، ووجدت نفسي -على غير عادتي- أتذرع حججًا لأتبادل بعض العبارات مع «علياء». تساءلت عما قد يكون هذا، والإجابة كانت مرعبة، تحمل خيبة الرجاء واحتراق القلب وندمًا بامتداد العمر، فقبول فتاة مثلها بالزواج من شخص مثلي رابع المستحيلات بعد الغول والعنقاء والخل الوفي، ولعل الثلاثة أقرب منه للواقع والتحقق.

بفضل نطاعة زملائي الأعزاء صارت كل كبيرة وصغيرة تخص الشركة وموظفيها مُسجلة على حاسوبي، فلم يكن عسيرًا عليَّ معرفة تاريخ ميلاد «علياء»، ولحسن حظي -وهذا نادر- كان يفصلنا عنه أقل من أسبوع، فاتبعت النهج السائد بين الموظفين، وجمعت المال منهم لأجل شراء «تورتة»، وقضيت ساعات داخل متجر الهدايا حتى انتقيت ساعة يد اعتقدت أنها تناسبها، واعتزمت مصارحتها بما في خاطري، وليحدث بعد ذلك ما يحدث.

منذ ذلك اليوم صرت أنزع أصفاد سارة الفضية عن إصبعي عند بوابة الشركة، وأنا أجاهد لصرف تفكيري عن تصور رد فعل أمي حين أحقق أسوأ كوابيسها، وصرت أطيل النظر للمرآة كل صباح، فانتبهت لتلك النقاط الفاتحة الدقيقة بجانب أذني، ومثلها على ظهر كفي الأيسر، لم أشعر حيالها بالارتياح فلم أجد بُدًّا من استشارة طبيب، وتعلقت عيناي المذعورتان المعتادتان على توقع الأسوأ بشفتيه، والصاعقة تنطلق من بينهما في كلمتين: «بوادر بهاق».

حاول بعد ذلك الحدَّ من وقع الصدمة، فقال إن بالإمكان السيطرة على الوضع بالأدوية وتجنب التوتر والقلق، ولولا جلال الموقف لانفجرت ضاحكًا. يا سيدي أنا كتلة من القلق، لئن صدقت فما هي إلا بضعة أسابيع قبل أن ينسحب اللون من كل خلية في جسدي.

هِمت بالشوارع كما المندوه، أتأمل الوجود الغائم من وراء الدموع المُتكاثفة في حدقتي، يتردد صدى صرخاتي الصامتة في جنبات رأسي الملتهب بتكالب آلاف الأفكار المشتتة بين ما كان وما سيكون، ضاقت أنفاسي حتى أحسست بأن الروح المعذبة ستتحرر من قيد ذلك الجسد المُكتظ، وتتركه مُلقى على قارعة الطريق؛ لكن -كما المعتاد- الأشياء الجيدة لا تحدث، فعجز الألم والحزن عن إخراس دقات القلب المتهالك، فظل ينبض ليومين آخرين، قضيتهما حبيسًا بين جدران غرفتي أنتظر الموت الذي أعلم أنه لن يأتي ما دُمت أتمناه.

اليوم الثالث كان هو المنشود، بَرَدت لهفتي إليه، ولكن لم يعنِ ذلك تفويته، فحملت الهدية وتسلمت «التورتة» وتوجهت إلى الشركة، وكانت سعادتي برد فعل «علياء» تجاه كليهما أقل كثيرًا مما توقعت،

ولعل رد فعلي أنا كان أكثر فتورًا مما توقعت هي، أفسدت الأمر كعادتي وأهدرت فرصتي الوحيدة.

اجتمع الموظفون للاحتفال، وأحضر الساعي الأطباق والسكين، ولم يكن «هشام» ليسمح باقترابي منها خطوة، وإن كان يسبقني بمئات الأميال، فلم يجد إلا طريقته القديمة في النيل مني، وأعلن بدء فقرة «المونولوجست» مهللًا بعبارته السخيفة: «المكان أصبح مزدحمًا بعشرة أنفار.. (تامر) ونحن الخمسة»، «اكتم أنفاسك، رجاءً اترك لنا بعض الأكسجين»، «خبئوا الحلوى قبل أن يلتهمها وحده».

حدقت في وجه هذا البغيض من وراء قطرات العرق المُسالة على عدسات نظارتي، وبدأت الأصوات تتباعد من حولي، خفتت تدريجيًّا حتى تلاشت، وشردت إلى عالم عجيب، تجرفني فيه أمواج الذكرى إلى دوامات الهواجس. لم تتوانَ سياط الألسنة يومًا عن كي ظهر كرامتي العاري، ذلك المقيت بعد فترة سيتناسى تضاريس جسدي المتعرجة، وسينعتني بـ«الرجل المُبَقَّع»، وسيسألني: «هل استحممت بمُبيض الملابس بدلًا من الغسول؟»، وربما يُشبهني بالكلاب المُرقطة، أو يقول إن رأسي المكوَّر صار أشبه بمجسم للكرة الأرضية.

ردتني من حالة التيه صرخات مدوية والجميع يهرعون من حولي، واتسعت حدقتي عن آخرهما وأنا أرى السكين مغروزًا أعلى بطن «هشام» ومقبضه عالق بين أصابعي، غريزيًّا نزعته من جسده، فتهاوى وتناثر دمه على الحائط القريب. تجمدت في موضعي، أحملق بالسائل الأحمر اللزج المُنساب ببطء على النصل اللامع، ومن ورائه عيون جاحظة مُتعلقة بالشيطان المُتجسد أمامها. مضت لحظات وأنا أحاول الاستيعاب، وحين فعلت انفلت السكين من قبضتي المُرتجفة، وسَرَت

بجسدي صاعقة أقعدته فوق الأرض، وبصري الزائغ ينتقل بين لطخات الدم والذراع المُرتخي البادي من خلف الطاولة.

سبق أن رأيت هذا المنظر في خيالي مرات، ولم أتصور أبدًا أني قادر على فعلها يومًا. غمرني إحساس غريب بتلك اللحظة، امتزج فيه الخوف المُريع بالارتياح الجَم، تيقنت بأن الأمر قد قضي وفرغت الحياة منِّي أخيرًا. على الأقل لن أسمع الحانوتي يشكو صعوبة تكفين جثماني، ولن أراهم وهم يتهربون من حمل نعشي على أكتافهم.

ما من شيء سوف يؤذيني حتى لحظة وضع رقبتي داخل حلقة المشنقة، ربما فقط الندم... ندمي على مفارقة الدنيا وأنا لم أُخلِّف بها إلا جثة واحدة.

❖❖ ❖❖ ❖❖

[8]

النداهة

انحرف عقرب الساعة أخيرًا عن استقامته مشيرًا لتجاوز منتصف الليل بساعة كاملة، فبدأت مظاهر الحياة في الانسحاب من شوارع العاصمة، سكنت حركتها وهدأ ضجيجها وصارت طرقاتها مرتعًا للأشباح، فآنت ساعة خروجي، وبعد ساعة أخرى بلغت وجهتي، فخلعت معطفي السميك كاشفة عن قوام غض يُبرز قسماته فستان أحمر قانٍ ينحسر من الأسفل عن ساقين مرمريتين، ومن أعلاه يبرز نحر بلوري يضوي تحت الضوء الأصفر لعمود الإنارة القريب.

طالعت على سطح مرآتي الصغيرة انعكاس عينيَّ الزرقاوين، وتأكدت من سلامة أحمر الشفاه، وعَدَّلت وضع شعري الأصفر المُتهدل، وأضفت قليلًا من المساحيق لأزيد وجنتي توردًا، وحين تأكدت أن كل شيء على ما يرام ألقيت خُطاف سنارتي إلى بحر الغيب، ولم يطل الوقت حتى التقط أحدهم الطُعم.

أوقف سيارته الفارهة وأطل من داخلها برأس ضخم أصلع، حُفرت عليه قسمات وجه ستيني، وداعب شعيرات شاربه الكث وهو يتفحصني من الأسفل للأعلى، وسألني عن اسمي، فأجبته: «هناء»، فدعاني للركوب مع وعد مُسبق بأن يدفع بسخاء، وعلى طول الطريق أرسل أنامله الغليظة تعبث بجسدي، يختبر بها بضاعة سيدفع ثمنها غاليًا.

وصلنا شقته أخيرًا وكان يتصدرها «بار» عامر بأفخر أنواع الخمور، فأعددت كأسين وقرعناهما في صحته بالطبع، ثم عرضت عليه بدء ليلتنا برقصة خاصة فلم يُمانع، وانتظر حتى نفِدَ منه الصبر، وتأججت فيه الرغبة، وهَمَّ بالقيام، فمادت به الأرض وسقط فوقها.

اعتصرت عنق ذاك الخنزير بقدمي، ووقفت أراقب الشحوب يزحف على وجهه ويحيله للون الأصفر، وعيناه جاحظتان تكاد تقفز من محجريها، وفمه مفغور على اتساعه طلبًا للهواء، وأطرافه مُرتخية عاجزة، هذا ما تفعله مساحيق أقراص «فينوباربيتال» و«ديازيبام»[1] المُذابة بكأس الخمر، مقدار نصف ملعقة صغيرة منه كان كافٍ ليدمر جهازه العصبي، وتنهار معه وظائف أعضائه وتتطهر منه الحياة.

أفضل طريقة للكذب هي قول الحقيقة؛ لأن لا أحد يصدقها، حين أخبرته أن اسمي «هناء» حتمًا اعتقد أني أخدعه؛ لكنها الحقيقة، أنا «هناء أحمد عبد النبي السعيد»، تجاوزت نصف العقد الثالث بقليل، وما سبق لم يكن بداية قصتي، وليس بآخِرها، مجرد حلقة متكررة في سلسلة طويلة من الأيام تَشَكَّل منها عمري.

يقولون إن لكل امرئ نصيبًا من اسمه، وتلك حقيقة أخرى كاذبة، وأنا الدليل الحي على كذبها!

(1) فينوباربيتال Phenobarbital: دواء مهدئ يستعمل بشكل أساسي في علاج نوبات الصرع، ويستعمل كذلك في إدارة الأعراض الانسحابية لُمدمني الأنواع الأخرى من مجموعة أدوية الباربيتورات.

وديازيبام Diazepam: دواء مهدئ يستخدم غالبًا لعلاج حالات الأرق أو القلق المرضي وآلام العضلات، ويحظر تناوله أو تداوله دون وصفة طبية كونه قابلًا للإدمان.

تحرك عقرب الساعة متخطيًا السابعة والنصف صباحًا، فأعاد الحياة للشوارع التي أماتها بالأمس، فقمت أتخلص من كل أثر لليلتي الماضية، لأستعيد حياتي النهارية وأستعد لها. عاد لعينيَّ لونهما البُني، وأزال الماء الألوان المُختلطة عن بياض بشرتي الرائق، ولملمت خصلات شعري الأسود الفاحم أسفل حجاب أزرق، وبنظرة أخيرة على تناسق بنطالي الجينز مع قميصي الأبيض وسترتي الصوفية الصفراء صرت جاهزة للذهاب.

بعد ساعة من الانصهار بين كتل اللحم البشري، وبعدما نلت القدر اليومي المعتاد من السخافات، اتخذت موقعي داخل الصيدلية المُلحقة بأحد المستشفيات الحكومية، ولِستِّ ساعات سأبقى سجينة خلف تلك القضبان الحديدية، لأصرف قسائم الدواء من خلالها، هي واحدة من تلك الوظائف التي تُقايض طموحك بسداد الفواتير ودفع الأقساط المتأخرة. رغم مساوئ تلك الوظيفة ورغم مقتي لها لم يكن الحصول عليها سهلًا. بالواقع حياتي كلها لم يكن بها شيء سهل. وتلك أيضًا أمقتها!

كانت البداية من مركز الزقازيق بمحافظة الشرقية، تحديدًا داخل ملجأ الأيتام؛ لكنني لم أكن يتيمة، اكتشفت هذا وأنا بالحادية عشرة حين أغضبت المشرفة فنعتتني بـ«ابنة الحرام»، الكلمة التي تَعيَّن عليَّ العيش معها طويلًا، مرض مزمن مُتملك مني، ولن أبرأ منه إلا بالموت.

وأنا أتخذ أولى الخطوات بالعقد الثاني من عمري وقع ما حسبته لا يكون إلا بالأفلام، أمي -مجازًا- تذكرتني على فراش الموت، ورغبت برؤيتي قبل انقضاء الأجل، ولم أقوَ على الرفض، ساقني الفضول إليها، والرغبة في كشف السر الذي تعذبت بجهله لعشرين عامًا، ولم أحسب أن

كشفه سيزيدني عذابًا.. كانت رميمًا، يصعب التصديق بأنها في الخمسين فقط من عمرها، حطَّم الزهري[1] مناعتها، والتهم شحومها، فلم يُبقِ منها إلا جلدًا مهدلًا فوق عظم نَخَره الزمن.

أول ما أخبرتني به هو أنني خطؤها الأكبر، نموت بين أحشائها خلسة وهي غافلة، وحين أدركت وجودي قررت التخلص مني رحمة بكلتينا؛ لكن الطبيب خشي القيام بالأمر، وقال بأنها لن تتحمله، وكي لا تهلك تركتني أحيا. تجهل حتى أبي من يكون، غُرست بأرضها مئات البذور فلم تدرِ أيهم أنبتت، حدثتني عن الجوع والفقر والزمن الغادر، وأنها لم تملك من الحياة إلا نفسها فباعتها مرارًا لكل من مَلك ثمنها البخس، واختتمت كل هذا الهراء بطلب الصفح ولم تنله، ليس بخلًا به أو لأنها لا تستحقه، إنما لأني حقًّا لا أملكه، هذا الجزء ليس في تكويني، لا أفهم معنى السماح أو كيف يكون!

كان لتبرعات أهل الخير الفضل الكامل في إتمام دراستي بكلية الصيدلة، ووقَّعت عشرات الوثائق التي تُخلي مسؤولية الجميع وتُحملها لي وحدي، لأخرج من ضيق الملجأ لضيق الدنيا، فهي لا تتسع أبدًا لمثيلاتي، لا نفقه عنها الكثير، ولا نعرف بها أحدًا.

بمساعدة أحد المتبرعين الدائمين عُيِّنت بوزارة الصحة، وبالقليل الذي أملكه استأجرت أربعة جدران مُتصدعة بمنزل قديم، وأرجأت أمر فرشهم لوقت لاحق.

---

(1) مرض الزهري Syphilis: عدوى بكتيرية تنتشر غالبًا عن طريق الاتصال الجنسي، قد تبقى بكتيريا الزهري خاملة لسنوات قبل أن تنشط مرة أخرى.

صَدَّق الحاج «منعم إسماعيل» -مالك البيت- قصة اغترابي لأجل الوظيفة، فرأف بغربتي ووحدتي وكان كريمًا، وارتضى توقيع عقد إيجار لمدة عامين دون تقاضي نسبة مقدمة أو مبلغ تأمين، واعتاد طرق بابي في طريق عودته من أداء فريضة العشاء ليسأل عن أحوالي، فأنا مثل ابنته التي تحتاج ونيسًا يُطمئنها في غربتها، والجارة السابعة التي أوصى بها الرسول أخيرًا؛ لكنه لم يكن صبورًا، فسرعان ما فضحت نظراته الشرِهة خبث نواياه، ولم يجد منِّي إلا استغباءً مُحكمًا وادعاءً بعدم فهم ما وراء كلماته، وهذا لم يكن كافيًا لردعه ودرء شره.

ضجر بعنادي، وتملك اليأس منه، فتخلَّى عن مكره، وطرق بابي في ساعة متأخرة، وعبر شُرَّاعَة الباب وقف يُحملق بي بأعين مُحمرَّة زائغة، تفوح أنفاسه برائحة كريهة وغريبة وهو يطلب الإذن بالدخول، ورفضتُ، فطالبني مُتململًا بألا أدَّعي الفضيلة والشرف، وقال بأن «أم حسام» المُشرفة بدار الأيتام تسكن في نهاية الشارع، وقد أعلمته بكل شيء عني، وأن الابنة تمضي دائمًا على درب الأم.

شعرت بقبضة غليظة تعتصر قلبي وحِمم حارقة تسري بأوردتي، وانحبس صوتي فلم يلقَ منِّي ردًّا إلا بصقة على وجهه، فلعنني ولعن البطن التي حملتني من صُلب دنِس، وأمرني بإخلاء الشقة خلال يوم واحد، فاستجمعت شجاعتي وتحديته بتمسكي بالعقد، فقال بأن العقود لا تسري بحق الساقطات اللواتي يدعين الغرباء لفراشهن كل ليلة، وأتم كلماته بأنه لن يكون عسيرًا عليه إقناع الجميع بذلك.

غادر البغيض وتركني لوحدتي وظُلمتي وأفكاري المُريعة، فلم أنتبه لكوني مُنهارة على أرضية الصالة إلا مع تَسلُّل خيوط نور النهار التالي عبر شقوق الشِّيش. قضيت ليلتي أفكر فيما سيحدث وما لا أملك سبيلًا

لمنع حدوثه، تبدد أملي في البداية الجديدة، وكل ما خططت له عند مغادرة الملجأ بدأ في الانهيار مبكرًا جدًّا، فما من شيء قد يوقف حقيرًا مثله عن إنفاذ وعيده، ربما شيء واحد قد يفعل.

في الليلة التالية، وفي تمام موعد عودته تركت باب شقتي مواربًا، فدفعه بقدمه راسمًا العبوس على ملامحه، وقبل أن يُطلق سموم لسانه دعوته للتفاهم، رفض الدعوة فوعدته بالرضا إن بقي وتوعدته بالندم إذا رحل، فتسلقني بنظراته من سيقاني البارزة من طرف ثوبي المنزلي حتى شعري المُحرر من الحجاب، ثم جلس صاغرًا مُسال اللعاب.

أحسنت استقباله وأكرمت ضيافته، قبل أن أعلمه بحسم أنه لن ينالني إلا حلالًا، والحلال عندي مجرد ورقة موقعة من شاهدين، فعزَّ عليه التخلي عن دناءته -ولو كذبًا- وابتسم متهكمًا وهو يخبرني بأن الورقة ستكون من نسخة واحدة، وأيضًا لليلة واحدة، وأنه سيدفع ثمنها. استقبلت قوله بملامح جامدة كقشرة جليدية تواري خلفها إعصار غاضب، ولم أعلم بامتلاكي لهذا القدر من الصبر إلا وأنا أعلن قبول الصفقة، وبنبرة آمرة أخبرني بالقدوم لمتجره في شارع «القومية» بالساعة السادسة مساء الغد، ولم ينسَ تذكيري بوعيده إذا ما حاولت التلاعب به، وامتدت جلستنا لنصف ساعة أخرى، لَـمَّح خلالها كثيرًا لما سيكون بالغد، ثم غادر يُمني نفسه بليلة من ليالي شهريار الألف.

تغيبت عن العمل باليوم الموعود، وفي تمام السادسة -كما أراد- كنت جالسة داخل شقته أردد عبارات المواساة على مسامع زوجته وابنتيه، وأشارك الأخريات امتداح خُلق وخِصال الفقيد الغالي. لم تتوقف الابنة الصغرى عن الهذيان بذات القصة، تصف منتحبة تفاصيل ليلة أبيها الأخيرة، كان عائدًا مبتهجًا، وطلب منها إعداد عشاء مُعتبر، ثم جلس

يتابع برامج التحليل الكروي المُفضلة لديه، وحين أحضرت الطعام وجدته غائصًا بالأريكة مُنقطع الأنفاس. قصتها الأليمة كانت صادقة؛ لكن ينقصها الجزء الأهم، كوب شاي بنكهة «فينوباربيتال». ربما تجد ما يُعزيها لو علمت بأنه استمتع بكل رشفة منه، وقال بأنه أفضل شاي تناوله في العُمر كله!

باستثناء الكوابيس الليلية لم يطرأ أي تغيير على حياتي الرتيبة، وحرصت على ذلك، ولم يكن للناس حديث إلا هوان الإنسان والدنيا الفانية الغرور، اتعظوا يومًا أو بعض يوم، ثم غلبهم ضعف أنفسهم، فعادوا للطمع وعاودوا الفجور. وتلك الابنة التي كانت تتمنى الموت قبل أشهر قليلة، سمعتها عبر المَنوَر وهي تُلح بطلب إقامة حفل لخطبتها، بينما تُصر الأم على التريث لحين مرور الذكرى السنوية، فعلمت أنه لم يبقَ من الحاج «منعم» إلا صورة مؤطرة في صدارة منزله، وكانت تلك هي الإشارة التي انتظرتها للاختفاء دون ترك أثر أو إثارة شك.

أخطأت، وكان عليَّ تصويب الأمر، الحياة التي أردتها يجب أن تبدأ خارج الزقازيق والشرقية كلها، بعيدًا عن ثرثرة «أم حسام» وأي شخص آخر عرفني يومًا، فتقدمت بطلب للنفي لأي مكان، وبعد إلحاح واستحلاف وتوسل أرسلوني إلى طنطا، قضيت بها عامًا إلا قليلًا، ثم تم انتدابي لأحد مستشفيات القاهرة لسد عجز الموظفين فلم أعارض القرار، بالواقع وجدته فرصة مثالية للذوبان بزحام المدينة الكبرى.

استأجرت شقة صغيرة بأحد الأزقة الخلفية الواصلة بين شارعي الهرم والملك فيصل، ورُزقت جيرانًا طيبين، أناس يجيدون كبح فضولهم، والأسئلة التي تُرى بأعينهم لا تنطق بها ألسنتهم، فلم يطلب أيهم معرفة أكثر مما أخبرتهم به، وكان هذا كل ما أتمنى.

استقامت الأمور أخيرًا؛ لكن المعيشة بالقاهرة تختلف عن الزقازيق وطنطا، تلك الأضواء وذاك الصخب لهما ثمن، والوظيفة الحكومية تكفل لك معاشًا يؤمن مستقبلك؛ لكنها لا تمنح رواتب تُعينك على بلوغه! توجَّب إيجاد مصدر دخل إضافي، فعملت بالفترة الليلية بإحدى الصيدليات، وأسعدني تحرري لبضعة ساعات أخرى من جدران البيت.

اختبرني الدكتور «سامح مختار» -مالك الصيدلية- لأسبوع، أشاد بعده بالتزامي ونشاطي، وقرر أن ينقل إليَّ خبرته في تركيب الدواء، فوقف يراقبني أعيد صياغة إحدى تركيباته داخل المعمل المُلحق بالصيدلية، وصفق مُتحمسًا، وامتدح ثباتي وتركيزي، ثم لفحت أنفاسه الدافئة جانب عنقي وهو يُقر بأن عليه مضاعفة أجري، ولم يُريحني اقترابه لهذا الحد، وهممت بالاستدارة، فمنعتني أذرع التفت حولي كحيَّات، لدغت أجزاء متفرقة منِّي، وفحيح هامس بأذني يُطالبني بالهدوء والامتثال ويعد بالكثير.

شُلَّ عقلي وحركتي للحظات من هول الصدمة، وبعدها لم يكن صعبًا التخلص من قبضة خمسيني نحيل ترتجف أوصاله بتدفق «التستوستيرون» بدمه، طوحت رأسي للوراء فصدمت أنفه وشفته، وبدفعة قوية أبعدته عني، فسقط أرضًا وهو يحاول تفادي قوارير السموم المنتشرة حولنا، ونال من نعل حذائي نصيبًا.

لا أدري متى أو كيف عدت للبيت، ألقيت جسدي المنتفض بالفراش، ودفنت وجهي بالوسادة الغارقة بفيض دمعي، وانتحبت حتى أشفق عليَّ عقلي المُنهمك فجرفني لظلام دامس، وغط في نوم عميق انتشلتني منه طرقات عنيفة تكاد تنزع الباب من موضعه، قمت إليه فزِعة، فإذا بضابط وأميني شرطة زادني تجهمهم فزعًا، وقفزت صورة الحاج «منعم» إلى ذهني، فرأيت حبل المشنقة يتأرجح

أمام ناظري، ولم أكن قد استبدلت ملابسي منذ الأمس فأمرني مباشرة بمصاحبتهم، وأجَّل إجابة أي سؤال لحين الوصول إلى قسم الشرطة.

قبل دقائق فقط لم أكن لأتصور أني قد أسعد برؤية ذاك الوجه العَكِر مرة أخرى؛ لكنني تنفست الصعداء حين رأيت الدكتور «سامح» منتظرًا بمكتب الضابط، واطمأننت إلى أن سري الأكبر لا يزال مدفونًا مع صاحبه. لم يكتفِ هذا البغيض بما فعله وما لقاه، فجاء يتهمني بسرقة أدوية مدرجة على جداول المخدرات، ولم يتطلب الأمر ذكاءً لمعرفة أن كذبته ستكون أكثر إقناعًا وإحكامًا من صدقي، فأنكرت الاتهام دون ذِكر ما وقع وما لا دليل عليه.

الموقف والمكان لم يسمحا باختلاق القصص، فأعلمت الضابط بمن أكون وأين كنت، ولم أعي أني بذلك أقر بذنبي وأعترف بالجُرم، في نظره على الأقل، هي لقيطة إذن، قد تكون أي شيء سوى أن تكون مجرد امرأة مسالمة ومستقيمة، صحيح أني لم أعد كذلك؛ لكنني أيضًا لم أسرق أدوية هذا الحقير، كان جليًّا أن ثمة علاقة شخصية تربطه بالضابط، فتمادى في إتقان دور الحَمَل وهو يبدي استعداده للصفح عن المستذئبة إن ردَّت المسروقات، وطلب منه الانفراد بي ليرضي ضميره بمحاولة أخيرة لإقناعي، فمنحه الآخر ما أراد، وحين اختلينا كنت قد حسمت أمري، فأقررت بذنبي واستجديت العفو وأعلنت الاستسلام.

نلت بقولي هذا الخلاص، ونال «سامح» ما استحقه، لم يدَعْ لي خيارًا آخر، اصطحبني لشقة قال إنها ملك شقيقه المهاجر، وإن صَحَّ قوله فسوف يبحثون عنه طويلًا قبل أن يدلهم نتن جيفته لمكانه، وقد يصعب عليهم آنذاك تفسير سبب الهبوط المفاجئ في دورته الدموية.

تركته ليتعفن عاريًا، وخرجت إلى وحشة الليل، تحملني سيقاني من شارع لآخر بلا هدى، ووجدت في نفسي خِفة لم أعهدها قبلًا، تمثال أجوف، برغم هيئته البشرية خاوٍ من المشاعر، ليس في داخله إلا ظُلمة مُريعة تبتلع كل شيء، الحزن، الفرح، الحب، الكره، كلها باتت كلمات عديمة المعنى.

أطلق صفيرًا منغومًا بين شفتيه، أتبعه سيلًا من كلمات الغزل، وبنظرة خاطفة تبينت أنه خسيس آخر، مُغتر بقيادته لمليون جنيه مُرتكزة على أربعة إطارات. لم أعره انتباهًا وتابعت سيري، فتمادى في وصف قوامي بلسان خبير بعِلم التشريح، فانتبهت حينها إلى أن الغضب شعور آخر سقط من قائمتي، ولم يبقَ بي من الأحاسيس إلا تلك النشوة العجيبة التي ذكرتني بأنه لا يزال هناك بعض من مسحوقي الساحر بالقارورة، فالتفتُّ إليه بابتسامة تبشره بأنه سينال ما طلبه، وإن كان لا يعرفه!

لم ترهبني فكرة الموت يومًا، لم أدعُ بطول العمر، ولم أبصق من فمي -كما يوصي الموروث- حين يرد ذكره، ولم أحاول كشف الصلة بين تلك القذارة ومنع القدر. طالما كان ملاك الموت بطلي المُفضل، يزهق الأرواح الصالحة فيرفعها عن فساد الدنيا، ويزهق الطالحة فيكُف عن الناس أذاها، ورأيت أني بما فعلت أتحالف معه بشكل ما، فقط أشير إليهم ليأتي هو ويتمم الأمر.

موتهم وحده كان يردني للحياة، ينبض قلبي بأنين لحظاتهم الأخيرة، وإن كنت أُجبرت على القتل بالسابق، إلا أن التمادي به كان قرارًا حرًّا؛ لكن دون أن أدع مجالًا للصُّدف أو احتمالًا للأخطاء، كان عليَّ إرساء قواعد تنظم الفوضى التي أنتوي إحداثها.

أول قاعدة ألا تطولني يد أحد هؤلاء الأوغاد، فأبقيت مُدية حادة بين ثدييَّ لتكون المُنقذ والمُنجز إذا ما ساءت الأمور، أما الثانية فهي ألا يُقبض عليَّ، يجب أن يمتد عمري لأقصف أعمار أكبر عدد منهم، أما القاعدتان الثالثة والرابعة فكانتا لخدمة سابقتيهما، وهما ألا أقوم بالأمر على فترات متقاربة أو بأماكن مكررة، البحر واسع، فلِمَ ألقي الطُّعم بذات المكان؟! أما الخامسة والأخيرة فكانت أن أصير شبحًا، خفيًّا عن عدسات كاميرات المراقبة وأعين الشهود، فأنفقت ما كنت أدخره لشراء مساحيق تجميل وعدسات للعيون وشعر مستعار، أغلبها طلبته عبر صفحات البيع على «Facebook» من خلال حسابات وأرقام هواتف مختلفة، وحرصت على تسلُّمها في أماكن متغيرة.

بذلك لم يتبقَّ سوى أقراص الأدوية، ولم يكن الوصول إليها صعبًا، الصعب كان محو أثري؛ لكن من الجيد أني كنت أملك من الخبرة وثقة الآخرين ما يُعينني على التلاعب بأذونات الصرف، وقد احتسبت لكل شيء، وأعددت الأمر بعناية تضمن عدم كشف الاختلاس، وحتى إن حدث فسيُلقى اللوم على رئيسي الدكتور «بلال أحمد»، وغضضت طرف ضميري عن تلك النقطة، فهو بالنهاية -ورغم لطفه- أحد الذكور، وحتمًا اقترف بحياته ما يستحق عنه صب لعناتي.

صار القتل شهوة تفرض سطوتها، أباد التكرار رهبتها، فباتت متعة خالصة، أتحيَّن كل فرصة لأنتشي بها؛ لكني لم أستسلم يومًا لإلحاح رغباتي، ولم أدعها تخرجني عن النطاق الآمن الذي خلقته لنفسي بالقواعد الصارمة التي وضعتها.

كنت أفضلهم ممن التهم الشيب رؤوسهم، وأعادت خطوط الزمن رسم ملامحهم، هذا يجعلهم أكثر وضاعة وأقل مقاومة، ويزيد فرص أن يكون أحدهم ذلك الشخص الذي قذف بي للحياة في ساعة نشوة مَنسية!

لكن كل ذلك لم يكن شرطًا أساسيًّا، ولم أمانع إن ألقت أمواج القدر على شطآني صيدًا شابًّا، مثل ذلك الوسيم أزرق العينين، في حياة أخرى لربما تمنيت الجلوس بجواره في «كوشة» واحدة، وأن نقضي معًا عمرًا هانئًا مديدًا؛ لكن تلك الحياة لم تنعم علينا بأكثر من الجلوس داخل سيارة، قادها بسرعة جنونية نحو هاوية عمره القصير.

قادني لبرج سكني فارِه بحيِّ المعادي، وطلب منِّي الصعود للطابق العاشر عبر السلم الخلفي، كان في ذلك مزيد من الإهانة وكثير من المشقة؛ لكنه كان أكثر أمنًا وسلامًا، فلا يوجد بالخلف أفراد أمن أو كاميرات مراقبة. دققت مئات الدرجات بكعب حذائي المُدبب صعودًا باتجاه المصير المحتوم لوغد آخر، وحين بلغت وجهتي لاهثة وجدته يستقبلني بتلك الابتسامة المُظفرة الشرِهة التي لا ينقصها إلا نابان، رأيتها سبع عشرة مرة بآخِر عامين، تعتلي دائمًا محيا أمثاله في ساعة غفلتهم، العمر كله ساعة غفلة، رحلة جاهل على طريق مجهول، لا يدري أبدًا ما ينتظره على بعد خطوة.

تقدمته بدلال مُصطنع، أجرجره بتمايل قوامي اللدن إلى حتفه، وخرجت إلى صالة الشقة فوجدت ما لم أحسبه، ست أعين مُتربصة، تخترقني نظراتها المسمومة، فهممت باستلال المدية المُخبأة أسفل ملابسي، وقبل أن تطولها أناملي كان أزرق العينين قد طوقني بذراعيه من الخلف، فملأني الرعب، وحبست صرخاتي المستغيثة خشية أن تجلب الفضيحة مع النجدة، فرُحت أتلوى بين الذراعين المفتولين، وأركل الثلاثة الآخرين لأمنعهم من الاقتراب، وأنا أمطرهم بوابل من اللعن والشتم.

ضاقت حلقتهم حولي، وحين أيقنت بأن لا مفر من الصراخ أطبقت أصابع غليظة على عظام فكي، ودارت الدنيا حولي وأنا أرتفع بالهواء فوق سواعدهم، وساروا بي مهرولين لغرفة جانبية، ثم طُرِحت على

الفراش، فجثم أحدهم أعلى رأسي، أرتكز بركبتيه على كَفيَّ ليمنع حركتهما، كاتمًا صراخي بإحدى يديه، وشعرت بأصابع يده الأخرى تتسلل أسفل ملابسي، حتى مَسَّ المدية فسحبها للخارج، وابتسم في تهكم وهو يمرر نصلها على عنقي ببطء.

امتلأت حدقتاي بالدمع فتلاشت معالم الوجود، ولم أعد أرى من ورائه إلا ألوانًا قاتمة متداخلة وأشباحًا تحوم حولي، كأنما الأرواح التي زهقتها عادت من الجحيم فجأة لتثأر. اخترق أحدهم جسدي فشطر روحي نصفين، وقع المحظور، فخارت قواي وخمدت ثورتي، وهمدت حركة الجسد البالي وهم يتبادلونه بينهم، وتركتهم يعيثون به عسى أن يفرغوا منه سريعًا.

أمنوا استسلامي وأغراهم خنوعي فأرخوا قبضاتهم، وأنا وسطهم شاخصة بنظرات زجاجية لماضٍ بعيد، سنوات العمر كلها تكاثفت في لحظة أمامي كدخان أسود يخنق الأنفاس وينتزع الروح من مكمنها، ومن قلبه برزت عيون زرقاء تلمع ببريق شرس، حان دور صاحبها لينال نصيبه من الغنيمة التي أوقع بها.

ارتمى فوقي فغمرني بدنس عرقه، ولفحتني أنفاسه الحارة فاستعرت ناري، وغرزت أسناني بجانب عنقه، فأطلق صرخة ألم مدوية، والدم المُندفع من شريانه يغمر وجهي، وكلما حاولوا سحبه من فوقي تشبثت به، وبقيت أنيابي ناشبة بلحمه حتى انتزعته، وعندها فقط أفلتُّه ليتدحرج إلى الأرض يتلوى في بحر دمائه.

العيون المتجبرة ملأها الرعب، وتراجعت أمامي وأنا أنهض من رقدتي، لفظت لحم البغيض، وانتصبت فوق الفراش متغالبة على وهن عضلاتي، ومن بين شقوق جفوني المرتخية رأيت شبحًا على المرآة المقابلة، جثة متجيفة قامت من موت ألف عام، جسد عارٍ متهالك، وشعر

أشعث، وعلى ملامحها البائسة يختلط سواد الكحل بحُمرة الدم، كانت ترمقني بنظرات ماقتة، تكرهني بقدر كرهي للحياة!

كان شبحي آخر ما رأيت، لا أدري ما حدث باللحظة التالية؛ لكنهم أخبروني بأنهم عثروا عليَّ ملقاة بجانب الطريق، إلا أن هؤلاء الحمقى لم يمتلكوا قواعدي فلم يكن التوصل إليهم صعبًا، وحين استعدت وعيي كانت كل الألغاز قد حُلت بالفعل، هذه المرة خَلَّفت ورائي ألف دليل، طن من الحمض النووي، وبصمات لم تُمحَ، أما ملابسي وشعري المستعار وحقيبتي فتم العثور عليها بصندوق نفايات على بُعد أمتار من المكان الذي ألقيت به، وبالحقيقة كان السر كله كامنًا في قارورة مسحوق الأقراص.

لم أجادل ولم أحاول الإفلات؛ بل أقررت بكل شيء وبدقة متناهية، آن الأوان ليتعرى الحاج «منعم إسماعيل» أمام بناته، وأن تلعن زوجة الدكتور «سامح مختار» ذكراه للأبد وكذلك الآخرون. تصدرت صورتي الصحف وشاشات الفضائيات، وتناقلت الألسنة قصتي، ولعلهم ذات يوم يصنعون منها فيلمًا أو مسلسلًا، سأخلد بالأذهان، وسيذكرني التاريخ في قائمته: «ريا وسكينة، سفاح كرموز، محمود أمين سليمان[1]، خط الصعيد، التوربيني[2]... وأخيرًا هناء عبد النبي السعيد».

---

(1) محمود أمين سليمان: سارق منازل ذاع صيته، وأصبح حديث الرأي العام في خمسينات القرن الماضي، بعدما هرب من السجن ليبدأ رحلة انتقامه ممن وشوا به، وعلى رأسهم زوجته وشقيقها، قد بلغ عدد جرائم القتل التي ارتكبها 14 جريمة، ولقي مصرعه بعد صراع مع رجال الشرطة تطلَّب محاصرته لما يزيد على 75 دقيقة. وهو الشخص الحقيقي الذي ألهم الأديب العالمي «نجيب محفوظ»، لكتابة رواية «اللص والكلاب».

(2) رمضان عبد الرحيم منصور وشهرته «التوربيني»: ترأَّس عصابة لاغتصاب وقتل أطفال الشوارع. أقر خلال التحقيقات بأن عدد ضحاياه يزيد على 32 طفلًا. وقد قُضي عليه وعلى معاونه فرج السيد بالإعدام شنقًا، وتم تنفيذ الحكم في ديسمبر 2010.

كان دم ذلك الشاب مسمومًا، حمل فيروس الكبد الوبائي إلى جوفي، لم يفزعني الخبر، على كل حال سأرحل عن الدنيا قبل أن يتفاقم المرض، المرعب حقًّا كان النظر للفضاء عبر القضبان، والتفكير بالكلاب العُقُر المطلقة بالشوارع وأفلتهم القدر من قبضتي؛ لكن المطمئن أني لست الوحيدة، مثيلاتي كثيرات، سيواصلن ما بدأته، ولن يكنَّ مخيرات في ذلك.

عند الوصول إلى السجن يخبرونك بأن حقوقك وآدميتك تُترك خارجًا في صندوق الأمانات مع الملابس والمقتنيات؛ لكن حين جئت كانت تلك الأشياء قد سُلبت منِّي مسبقًا، حتى الملابس! حياة السجن مملة، رتيبة، من الجيد أنها لن تطول، ومن الجيد أن الجلباب الأحمر يُضفي على صاحبته هيبة تكف عنها أذى الأيدي والألسنة؛ لكنها -مع الأسف- لا تحجب النظرات.

لم يؤرقني سوى ذلك المُجند، بغيض آخر لذته بالحياة احتساء الشاي وإحراق التبغ والحملقة بأجساد السجينات العاملات، ولا يتكبد حتى عناء التخفي. رأيته للمرة الألف على وضعه المعتاد وأنا في طريقي لتلقي جرعة العلاج بمستشفى السجن.

سيتوجب عليَّ سرقة بعض الأقراص...

لمرة أخيرة...

❖❖ ❖❖ ❖❖

[9]

دم ابن يعقوب

احذر الأمور البسيطة.. تخدعك بذلك...

فلا تشعر بها وهي تُغير حياتك...

أو تُنهيها بأسوأ تصور ممكن!

أنا «عادل بكر المنسي»، أتممت قبل أسابيع عامي الثامن والعشرين؛ لكني لا زلت أذكر ذلك اليوم البعيد من عُمر الصِّبا، كان ذكرى مولدي الذي يُصادف في كل عام أسوأ مواسم قريتنا غرب محافظة الشرقية، منتصف يناير، حيث يغطي الوحل الشوارع، ويضرب الصقيع محاصيل الطماطم، منذرًا بخراب بيوت بعضها خَرَب فعليًّا بتسرب المياه الهاطلة عبر أسقفه المتشققة وجدرانه النَّخِرة.

تنقبض القلوب، ويسكنها الخوف، فتستقيم النفوس، وتستغفر الألسن لكل ما اكتسبته الأيدي طمعًا بالنجاة، ولمَّا تنجو ترجع لعاداتها القديمة، وتملأ صحيفتها بما تستغفر عنه بالعام التالي، فلا تتعظ ولا تمل التكرار، ووسط كل هذا كان يصر أبي على الاحتفال بهذا اليوم، رغم أن أعياد الميلاد لم تكن من بين عادات قريتنا، إنما تليق أكثر بـ«المُتفرنجين» من أهل الشمال، ولم أسأله يومًا عن سر إصراره، ربما لأني الولد الوحيد بعد ثلاث بنات، أو بالأحرى الولد الوحيد الذي عاش.

كان بالنهاية احتفالًا بسيطًا يتناسب مع دخل «كَلَّاف البهائم»، تقتصر مظاهره على «غدوة» عامرة من أيدي أمي تتضمن لحمًا ومرقًا، بجانب الجزء الذي أفضله، وهو اصطحابي للمدينة القريبة لأتخيَّر هديتي بين معروضات ألعاب الأطفال القليلة، التي تطورت مع سنوات عمري من عفريت العلبة للسيف المضيء وحتى مسدس الخرز.

بدأ اليوم بسيطًا، وإن لم يخـلُ من بعض العراقيل المعتادة والمألوفة في عالمنا الصغير، أغرق المطر الطُّرق فأوقف حركة «سيارات السرفيس»، فحملتنا إحدى سيارات الـ«7 راكب» لأقرب نقطة ممكنة من وجهتنا، ومنها كان علينا التكدس وسط آخرين فوق عربة خشبية يجرها حمار مسكين، ذنبه أنه ليس له مُحرك ميكانيكي تُعطله المياه أو لسان قادر على لعن جلاده.

سمعت آنذاك صوته للمرة الأولى صادرًا عن مُسجل خَرِب يتدلى من صهوة الحمار المصنوعة من الخيش البالي، صوت جهوري يحذر من الغفلة ويُنذر بسوء العاقبة، ويصف جهنم دركًا دركًا، ويتوعد فلانًا وفلانًا بالخلود فيها، فتجلجل من حوله الضحكات، وقبل رحيلي وجدتني أسأل سائق العربة عنه، فعاقبني لجهلي بنظرة نارية، وهو يجيب: «الشيخ أمين أيوب».

انقضى اليوم كما بدأ، وعُدنا بذات مشقة الذهاب، وأويت إلى الفراش بجانبي كرة قدم، كانت قبل ساعات فقط حلمًا بعيدًا، وظل صوت الرجل يطن بأذني يحاسبني، يدفعني للتساؤل إن كانت كتلة المطاط تلك من المُلهيات التي ذكرها، وأن النار ستذيب عظامي -فقط- لأني أهلاوي!

هكذا وُلدت علاقتي بمولاي «أمين أيوب» المتفردة في غرابتها، أشبه بعلاقة الشمس والقمر، وعلاقة القمر بمدِّ البحر وجزره، يسبح كل في فلكه ولا يدري بوجود الآخر ولا بمدى تحكمه به. كانت أحاديثه شفاء لسقم الروح، وترويضًا لجموحها، وتأديبًا لنزعاتها المارقة، يُلهم النفس الصبر بإخبارها بأن كل ما حُرمت منه لهو فتنة الدنيا يُزينها الشيطان، ويرسم الطريق للجنة مفروشًا بالأشواك، فيُطمئن القلوب بأن ألمها هو مُنجيها يوم الميعاد.

أتمت الشهور دورتها، وحين حلت ذكرى مولدي ثانية كانت غايتي الوحيدة ألا يُحتفَى بها، وألا يُسمَّى اليوم عيدًا ما دام لا يفطر به صائمون ولا يُحج البيت. عَزَّ على أبي قطع عادته؛ لكن أسعده سماع طفله يتحدث بالحلال والحرام، ويردد: «قال الله وقال الرسول»، فهان عليه الأمر، أما الرضا التام فكان من نصيب «الشيخ سمير»، حتى أنه أعطاني مسبحته جزاء التخلي عن تلك البدعة.

عُرِف «سمير» بين أهل بلدتنا بأنه «رجل بتاع ربنا»، طُبعت علامة الصلاة في منتصف جبينه، ويؤدي الفروض الخمسة بأول صفوف المُصلين، فأحب أبي رؤيتي ممسكًا بذيل جلبابه. كان أربعينيًّا بسيطًا، يمضي نهاره في العمل بمحل «الفرارجي» بالسوق الكبير، ويقضي ليله في تنظيف المسجد، ويبيت به أحيانًا، وبعد صلاة المغرب بأيام الإثنين والخميس يُحفِّظ الأطفال جزأي «عَمَّ» و«تبارك».

أما ما كان مغريًا به حقًّا فهو امتلاكه -في المسجد- شرائط الشيخ «أمين أيوب»، والأهم معرفته بمعنى كلامه والقصد من وراء تلميحاته، كنا نستمع سويًّا لجزء من الدرس، وهو يكشف غموض اللفظ ويُبسط

الأحكام التي يصعب استيعابها في مثل عمري، ثم يحملنا الحديث بعيدًا إلى كل شيء بالدين والدنيا.

حدثني كثيرًا عن «فرقتنا الناجية»، وسمعت منه عن حَدِّ الحِرَابة، وعرفت كيف يكون وعلى من يقع، ولماذا لا يُطبَّق في بلادنا السائرة في رحاب الغرب، وسألته مرَّة عن سر غياب شيخنا عن شاشة التلفاز، وعدم ظهوره في برامج مثل «حديث الروح»[1]، فأجابني بأني ما زلت أطهر من أن أعي دنس العالم الحقيقي، وأن الشيخ «أيوب» ومن على عهده ينطقون بالحق الذي يخشاه المُتحكمون في التلفاز، واختتم قوله بأن مشايخنا بالأصل يَعفُّون عن الظهور في برنامج يُعرض بين فيلم يُشيع الفاحشة ونشرة إخبارية تُشيطن «ملا عمر»[2] والأخوة معه.

وجدت «سمير» نهرًا منبعه لسان الشيخ «أمين أيوب» ومصبه مُخِّي، وقد اعتاد -وربما أحب- العلاقة التي نشأت بيننا، حتى بدا في مرات عديدة أكثر مني تلهفًا للقاءاتنا، وكانت كل كلمة تخرج من فيه مُصدَّقة لديَّ، وكيف لا تكون وهي تُسبَق بعبارة: «في صحيح الدين...»! لم يكن في حاجة للإتيان بأدلة أو براهين، كانت الحياة برمتها دليلًا كافيًا لأصدِّق وأؤمن وأبصم باليدين والقدمين.

كان لأبي حرص غريب على متابعة النشرات الإخبارية وموجزات أهم الأنباء، يستمع باهتمام أغرب لعبارات مُجتزأة من خطابات تبدأ

---

(1) «حديث الروح»: أشهر البرامج الدينية اليومية على شاشة التليفزيون المصري، بدأ عرضه منذ عقد الثمانينات، وتناوب تقديمه كثير من علماء الأزهر الشريف، من أبرزهم الدكتور عبد الله شحاتة.

(2) مُلا محمد عمر مجاهد: مؤسس حركة «طالبان» وزعيمها حتى وفاته في عام 2013، كما تولى رئاسة دولة أفغانستان في الفترة ما بين عامي 1996 و2001. انتهت ولايته الرئاسية بالغزو الأمريكي للبلاد واختيار حامد كرزاي لرئاسة الإدارة الأفغانية المؤقتة.

بـ«الإخوة والأخوات» وتنتهي بوعود بتحسن الأحوال، وأحيانًا تقارير وإحصائيات تؤكد أنها تحسنت بالفعل! تُعطيه تلك العبارات أملًا في المساء، ويسلبه منه نهارًا طول الوقوف بأحد طوابير الانتظار، أمام مخبز العيش أو الجمعية الاستهلاكية أو على سُلم المستوصف الطبي. اعتاد تسول حقوقه وانتظار المَنِّ عليه بها، حتى نسي أنها حقوق، فلم يفكر يومًا في المطالبة بها علنًا أو التذمر من ضياعها سرًا.

كانت حياتنا منزوعة البركة والسبب معلوم، أمي التي تخرج للسوق كل يوم مكشوفة الوجه، ربما ربع متر فقط من القماش كان كفيلًا بنجدتنا من المعاش الضنك، ولأمطرت السماء ذهبًا وأنبتت الأرض فضة، ولعلَّ ما اجتاح الأمريكان أرض العراق، وما طال أمد احتلال الصهاينة لفلسطين.

أدركت تلك الحقائق تدريجيًّا والسنون تمضي وأنا أتقدم معها بالعمر، مواصلًا ملء العقل والقلب بكلام مولاي، متمسكًا بأن أكون -في اليوم الموعود- واحدًا من فرقته الناجية بين الاثنتين والسبعين الهالكات، أما ما لم أدركه فهو أن السنين لا تدع شيئًا على حاله، وأن علاقات الناس معادن تزيدها الأيام بريقًا أو تتركها للصدأ يأكلها من كل جانب.

عشت مغتربًا وسط أهلي غربة صالح في ثمود، كثرت المشاحنات بيني وبين أبي، حتى صرنا نتحاشى التحدث لبعضنا إلا إذا أجبرتنا الضروريات، فلم أرغب في حمل وِزر تركهم معصوبي الأعين، عامهين في خطاياهم، واستنكر هو -على حد قوله- أن يأتي من يعلمه إسلامه وقد تجاوز من العمر خمسين عامًا، لم يفته فرض في أربعين منهم.

أما زملاء الدراسة فلم يكن فيهم واحد مقرب، كانوا يتندرون عليَّ بتسميتي «الشيخو»، وكنت أعف عن مخالطتهم، أو مجاراتهم في أحاديث

أغلبها -في تلك الفترة- عن مصَّاصة «ماريا»، وحصان «نجلا»، ومَلبن «دانا دَندن»! لم يكن شيء من هذا يليق بشعيرات لحيتي التي بدأت إطلاقها، كما أن تلفازنا العتيق لم يكن مؤهلًا لاستقبال ذلك الاختراع الثوري المُسمَّى «وصلة الدش»، فكان ما تلتقطه أذناي من فتات كلامهم شيئًا من وراء الخيال، وللصدق لم أتوقف عن تخيُّل كل تفصيلة منه في ساعات نومي.

بقي الشيخ «سمير» وحده قائمًا وسط رُكام حياتي المُزلزلة؛ لكنه لم يخلُ من الشروخ، فلم يسبق له التفكير -ولا أنا- في أن نهره سوف ينضب، وأن عقلي سوف يتسع لروافد أكثر تدفقًا، لم أعد في حاجة لشروحاته وتفاسيره، وحتمًا آلمته خسارة مُريده الأوحد. أصبح من اليسير فهم كل حرف في كتب الشيخ «أمين أيوب» ومجلدات أئمته «ابن تيمية» و«ابن القيم»، الكتب التي أدركت متأخرًا أن «سمير» بالكاد يمكنه قراءة عنوان أغلفتها، وعلى الأرجح سيكون ذلك بتشكيل خاطئ!

كانت تفصلني شهور قلائل عن وداع هذا العالم، فلم أهتم كثيرًا بشيء مما يحدث فيه، فقد أصر أبي وبشكل مبالغ على إلحاقي بالجامعة، ولو كان ثمن ذلك اقتلاع عينيه، وبالفعل تراجعت معيشتنا -البالغة الحضيض بالأساس- ليدخر من المال ما يكفي لإرسالي إلى إحدى المدن الكبرى حين يئين الأوان، حتى أنه وأمي صارا يقتصدان في علاج كل ما يحتملان ألمه، كان هذا سبيله لتعويض شقاء ماضيه، وضمانه لأن يكون مستقبلي مغايرًا له.

أذهلتني وأرعبتني القاهرة وهي تبتلعني في جوف زحامها، وخفق قلبي بشدة مع تنقل نظراتي الزائغة بين اللوحات الإعلانية العملاقة على رؤوس المباني الشاهقة، والمئذنة العالية البادية من وراء الجسر

الهائل، وسيل البشر والعربات المُنهمر فوق الطريق العريض، صخبها يصم الآذان، تتداخل فيه أبواق السيارات مع نداءات الباعة وهمهمات المارة وتوسلات الشحاذين. تخبط بعشرات الأجساد المتلاحمة، وأنا تائه ببصري بين الطرق الممتدة بكل جانب، أتساءل في خاطري أيهم سأمضي به؟ وعَمَّ سيقودني إليه؟!

صاحبني أبي في رحلة تقديم المستندات لكلية الهندسة بجامعة عين شمس، ولم أره يومًا بمثل السعادة التي كان عليها وهو يُتمم تلك الإجراءات المعتادة، ثم أوصلني إلى العم «فاروق» -بلدياتنا- الذي دبَّر لي مأوى متواضعًا بمنطقة الطالبية، ثم تركني أبي مع آماله المعلقة برقبتي، ومبلغ يكفي بالكاد أجرة المسكن، ويؤمِّن لي الطعام إن لم أسرف حتى آخر الشهر.

كانت أيامي الأولى بالعاصمة -أو بالأحرى بقربها- رتيبة، يمر الليل كله وينقضي النهار بطوله وأنا حبيس الجدران. لقتلني الملل لولا المُسجل الصغير الذي حملته معي، فكان صوت الشيخ «أمين» أنيس وحدتي التي تقطعها زيارات العم «فاروق» الخاطفة للسؤال عني والاطمئنان على حالي.

ذات نهار راودتني فكرة بَرَّاقة، من العار أن أجيء للمدينة ولا أحضر درس الشيخ، عَلَّ الأبدان تلتقي بعد سنوات من تلاقي الروحين في الملكوت. كنت أعلم أنه يقيم حلقة عِلم بأحد مساجد «المعتمدية»، وأن هي الأخرى تتبع الجيزة، وبسؤال الحلاق المجاور للمسكن أرشدني إلى حافلة «خط الطوابق»، ومن أين أستقلها، وبسؤال الكُمسري عرفت بأي نقطة أنزل منها، وأخيرًا صدقت مقولة: «من يسأل لا يضل» واهتديت إلى المسجد المقصود.

لحظة أن وقع بصري على مولانا صعبة الوصف مستحيلة النسيان، عبقت أنفاسي برائحة بخور فوَّاح كأنه رحيق الجنة وأنا أتقدم لداخل المسجد، ثم لاح لي الشيخ، يجلس في نهايته على كرسيه المشغول بنقوش الأرابيسك، لحيته الكثيفة تزيده هيبة لا تُنقصها ابتسامته الحالمة الدائمة، وجلبابه وعمامته ناصعا البياض يُحيطانه بهالة ملائكية تُشع نورًا، فبدا كشمس ساطعة لها ألف كوكب، زدتهم واحدًا وأنا أتربع وسطهم على الأرض.

رغم نسائم ديسمبر الباردة المُنذرة بشتاء قارس، كان هذا المكان مُلتهبًا بحماس رواده وغضبهم، ككل شِبر من البلد المتقلبة على صفيح متأجج، لم يكن قد مَرَّ إلا أسابيع قلائل على إطلاق الرئيس لإعلانه الدستوري[1]. أهاج ذلك العلمانيين والليبراليين فخرجوا ينوحون على الشاشات، بينما اعتلى مشايخنا المنابر معلنين التأييد، حاشدين الناس لصد هجمة أذناب «ماركس» على الدين، وحول هذا كان حديث مولانا المُثبِّت للقلوب والمُبشر بنصر الله.

انتظرت انتهاء الدرس لأقترب منه، فأنال من بركته ويفيض عليَّ نوره، وأن أتلقى كفه الشريفة بيدي وأطبع على ظهرها قبلة تبجيل وعرفان؛ لكن صدني ألف كفٍّ آخر، وتحلق حوله المقربون، وشقوا له ممرًّا وسط المكبرين حتى سيارته. ورغم أني لم أبلغ مبتغاي بقيت تلك

(1) أصدر الرئيس المعزول محمد مرسي إعلانًا دستوريًّا مُكملاً في 22 نوفمبر 2012، أبرز ما تضمنه كان تحصين القرارات الرئاسية من الطعن عليها، وكذلك تحصين مجلس الشورى واللجنة التأسيسية. وقد قوبل هذا الإعلان برفض قاطع من القوى السياسية المعارضة، كما تقدم عدد من مستشاري الرئيس المستقلين بالاستقالة احتجاجًا على هذا الإعلان الدستوري.

اللحظة هي الأسعد في حياتي، وظللت أستعيدها في كل يوم، إلى أن انتصف الشهر وكان هذا الموعد المُحدد لبدء الدراسة.

قادتني بوابة الجامعة إلى عالم أكثر غرابة، متبرجات يخالطن مخنثين آمنين العقاب، وأصوات عالية لا تستحي من إعلان الخروج على الحاكم ورفض تطبيق شرع الله؛ لكني اعتزمت من اليوم الأول غض الطرف، وسد الأذن، وحفظ اللسان، وألا يشغلني شاغل عما جئت لأجله، أولًا لإرضاء أبي، فرغم الشقاق بيننا كنت أعلم قسوة ما يعانيه هناك ليُرسلني إلى هنا، وثانيًا لأن ذلك أملي الوحيد للإفلات من الجحر الخانق الذي عشت به عمرًا والخروج إلى رحب الحياة.

كان المسجد ملاذي من هذا الجنون، فصرت أقضي به الفترات الفاصلة بين المحاضرات، فأتَّقي البرد، وأتجنب مخاطبة الجاهلين، ولا أدفع مليمًا. وفيه التقيت «عمرو نافع»، كان شابًّا خلوقًا شديد الالتزام، يكبرني بعامين، عرَّفني برفقته، وكنا نتقاسم كثيراً من المشتركات فتآلفنا سريعًا، وتبدد شعوري بالاغتراب.

استقرت الأحوال واعتدت صخب المدينة، واكتسبت روتينًا جديدًا فعادت الأيام متشابهات، حتى جاء النهار الذي التقطتها فيه عيناي وسط الجموع، وكان صعبًا ألا تفعل! جسد ضئيل، يحدد تضاريسه لباسها العصري، يهتز بقوة مع تلويح ذراعيها مُفرط الحماس، يتلاعب الهواء بخصلات شعرها الكثيف المُجعَّد، وتطل من وراء نظارتها الطبية بعينين داكنتين تُشعان ببريق شرس، وتتدلى من كتفها حقيبة مُرصعة بمشابك «المجد للشهداء» و«الثورة مستمرة» وكل هذا الهراء.

إنها «إنجي ممدوح» الطالبة بالفرقة الرابعة، ولم يكن اكتشاف ذلك بالأمر العسير؛ فهي داخل تلك الأسوار أشهر من العميد نفسه، واحدة من اللواتي يخضن انتخابات اتحاد الطلاب، ويقمن الأنشطة، بل سمعت أنها بالعامين السابقين كانت تخرج على رأس التظاهرات، وينساق المائعون من الرجال في ذيلها.

وجدت السكينة في البُعد عن بلدتنا، فصرت أتغيَّب عنها أسابيع، وإن زرتها فلا يكون لأكثر من يوم وليلة، آثرًا السلام متعللًا بكثرة المذاكرة، وكنت أتلقى شهريتي بانتظام عن طريق العم «فاروق». أحكمت دائرة حياتي الجديدة، وألفت حدودها، ولعلي أحببت تكرار دورانها. كنت أتوجه صباحًا للمحاضرات، وأذاكرها بمكتبة الجامعة حتى العصر، ثم ألتقي «عمرو» ورفاقه، فنتناقش حول الأحداث، ونلعن أراجوز ليلة الجمعة والملاحدة المتربصين بالإسلام، ونتباكى على الشيخ «حازم»، لو أن الله مَنَّ علينا بتوليه الأمر لفعل وفعل، وكان الحنين يجرفني في بعض الأيام إلى المعتمدية حيث الشيخ «أمين أيوب»، وفي أكثرها كنت أعود للبيت، فأتلقى «إنجي» بين ذراعي، ونبقى معًا طيلة الليل، ثم أصحو لأجدها تبخرت في فضاء الواقع، فأستعد لبدء اليوم من جديد.

استحالت رؤياها رغبة مُلحة تحركها غريزة غامضة، أشبعها بتتبع تحركاتها ومراقبتها في صمت، خاشيًا أن تنتبه أو يلاحظ غيرها نظراتي المُتسللة، التي لم تعد تراها إلا كما تأتيني ليلًا في مناماتي، حتى أفسدت عليَّ عِدة صلوات. لِمَ هي؟! ليست فاتنة، بل أن حظها من الجمال أقل من كثيرات حولها!

أهي سهام العشق التي يتحدثون عنها؟! وإن كان لها وجود، فلماذا وكيف قد تصيبني سهام «إنجي»؟! فالعشق -كما يصفه أهله- يُرغِّب

المرء بالزواج، وزوجتي لا بد أن تكون مسلمة سلفية المنهج حنبلية المذهب أيوبية الهوى، أما تلك فهي أليق بأن تكون -على الأكثر- ملك يمين حين يحتدم الأمر وتُقدَّر للخلافة العودة، فمثلها لن تُسلِم أو تمتثل، وستبقى صامدة تقاوم حتى تحتكم القبضة، ثم تنكسر شوكتها على فراش أحدنا، ولسبب ما شيء في داخلي يأمل أن يكون أنا.

تخطيت السنة التمهيدية بالجامعة، واخترت التخصص في دراسة هندسة الاتصالات، ولم يُخفف هذا من وطأة الذل على النفوس التي مَرَّ عليها العام ثقيلًا، تاركًا الأرواح مُظلمة والعقول مُشتتة والظهور مُنقضة بخيبات الأمل، حتمًا هكذا شعر آدم حين طُرد، غير أننا لم نقرب شجرة ولم نكن من الظالمين!

رحلت أيام العزة سريعًا، ووأدت الحلم أيادٍ ملعونة، خرجت على حاكم جاء بشرعية ديمقراطيتهم وشرع مُبايعتنا، دَعونا للتظاهر فلبينا، وللاعتصام ففعلنا ما أُمرنا، وجاءتنا ألف بشرى في كل ليلة من فوق المنصة، كانت دخان كذبات تطلقه أنفاس مُنتشية بالأوهام، وقضي الأمر في يوم مهيب سيظل كل من شهده يذكره لآخر عمره، عدنا بعده لشتاتنا الأول، غرباء في وطن غريب.

ضاقت بنا الأرض، تُميِّزنا الشعيرات الكثيفة على جوانب وجوهنا، فتجذب إلينا النظرات الفائضة بالبغض والشماتة في كل طريق، فنمضي وسطها مُنكسي الرأس، نداري الخزي، ونكتم الغضب وراء وجوه رخامية باردة.

تخرجت «إنجي» فلم يعد هناك ما يُسلِّي الوقت بمراقبته، وبات «عمرو» يتغيب كثيرًا، فما عاد لديَّ من يهون الأمر بمحادثته فيه، وحتى

الشيخ «أمين أيوب» مُنِع من ارتياد المساجد، فحُرمنا مجلسه، ولكنه وجد طريقه إلينا عبر موقعه على شبكة الإنترنت.

تمر الأيام مَرَّ نسر محمول على الريح حين نود دوامها، وتزحف زحف دودة تشق طريقها بنخر الأرض حين لا نرغب إلا في زوالها، والمشترك بين ما نريده وما لا نطيقه منها، أن كليهما يمضي لا محالة، هكذا كان الأمر، وفي لحظة -بدت كأنها حلَّت بغتة- وجدتني على أعتاب العام النهائي بالجامعة، أرسل بصري إلى الآتي فلا أرى غير خلاء مُقفر تُطبق عليه سماء مُظلمة، طمست نجومها سُحب خانقة من رماد ماضٍ مُحترق.

دعاني «علي فياض» -أحد معارفي الجدد بالمدينة- لحضور عُرس شخص سمَّاه «محمد حفني» وصفه بأنه «أحد الإخوة»، وأصَرَّ على ذهابي، فرافقته إلى حيث أراد، والتقيت هناك «عمرو نافع» وأكثر من وجه مألوف، وجاءتنا أطباق العاشوراء وأكواب الخروب وعرق السوس. مَرَّ بعض الوقت حتى انفرج الباب عن عجوز قصير مدمج الجسم، مُطلق اللحية، برَّاق العينين، اتجهت إليه الأبصار، وهَمَّ بعض الحضور بالوقوف، فرفع يده الممسكة بالمسبحة ليبقيهم بأماكنهم، وردد التحية وهو يتقدم للداخل، وجلس أمامي متكئًا على عصاته بكلتا يديه.

أغمض عينيه، وراح يهز رأسه طربًا بالقرآن المتلو، وظل على ذاك الحال حتى ختم المقرئ بعبارة التصديق، ففتحهما وندَّ ثغره عن ابتسامة وهو يسأل عن اسمي، وأجبته فدعا لي بالبركة والسداد، وكان ذلك مُستهل حديث طال بيننا، أنصت لكل حرف منه، وبقي وجهه صفحة صماء خالية من التعابير، ثم أمسك كفي ووضع بها مَسحة مِسك ورَبَّت عليها برفق وانصرف.

لم أدرك عندها أن تلك المسحة العطرة كانت الإذن الذي تلقاه «عمرو» و«علي»، فاصطحباني إلى المخزن المُلحق بمحل العطارة المملوك للعريس، والموجود أسفل مسكنه، وحين اطمأنا إلى اختلائنا شَدَّ أولهما على كتفي وبشرني الآخر باصطفائي، فتساءلت والحيرة تأكلني: اصطُفيت مِن مَن؟ واصطُفيت لأي شيء؟! فرد «عمرو» بأن الله وحده يصطفي جنوده من عباده، وتابعه «علي» بأنه مُقدَّر لي أداء «الفريضة الغائبة»[1].

وقعت الكلمة كنصل بَتَّار، شطر الجمجمة ونَشب بالمخ وأبقاني حيًّا لأُعذَّب، فسَّر كشف السر غرائب عديدة، كنت ألاحظها وأنكرها؛ لكن ما عاد شيء من ذلك يهم. تمنيت الثأر، وحلمت بدنيا مُطهرة من أولئك الأنجاس وخدمهم وتابعيهم؛ لكن لم أتصور أبدًا أن يكون هذا بيدي، أنا فقط أندس وسط حشود المتظاهرين، وربما أقضي ليالي معتصمًا على الطرقات، أما ما يدعونني إليه شأن آخر، ومجرد معرفتي به يملأ قلبي بالهلع.

عدت للبيت منهكًا، أوصدت بابه ونافذته الوحيدة، وانزويت في آخر الفراش ملاصقًا للحائط، ولم يعطف عليَّ النوم براحته، وراح عقلي يدور في دوامات من مرويات قديمة عما يجري وراء جدران معتقلات الزبانية، وسقطت في هوة الخوف، أكابد هلاوس تتمخض من باطن ظلمتها المريعة.

---

(1) مصطلح يستخدم من قبل الجماعات الإرهابية للإشارة إلى ما يُسمونه «الجهاد»، وهو عنوان كتاب للمهندس محمد عبد السلام -أحد المُدانين في اغتيال الرئيس السادات- نُشر في 1980، وفي تقدير كثيرين يمثل الكتاب أولى محاولات تأصيل وجمع أفكار تيار الجهاد في مصر، عوضًا عن التناقل الشفهي.

خرقت طاقة نور بطول خمسة بوصات غلاف الظلام الثقيل، انبثقت من شاشة هاتفي المحمول، بحثت عما يشتت العقل، ولم أجد غيرها إلهاءً، كان اسم «إنجي ممدوح» مسجلًا مُسبقًا بقائمة «Recent Searches»، وبنقرة واحدة ارتصت أمامي عشرات من صورها، صار تصفحها عادة اكتسبتها منذ أن تخرجَتْ واحتجبت عن أنظاري.

راقبت تحولاتها في كل يوم، أطالت شعرها واكتسبت شيئًا من الوزن، وتخلت عن نظاراتها الطبية. كَبَّرت الصور ودققت النظر في كل جزء منها، وعلى غير المعتاد لم تحرك فيَّ شيئًا، وإن حاولتُ، يمتلك الخوف مقدرة عجيبة على إماتة كل غريزة سواه، فانتقلت لحيلة أخرى، وشغلت عقلي بالبحث عن إجابة السؤال القديم، وككل مرة لم أجد فيها من سحر الأنوثة ما يؤجج مكامن الرجال، ربما باستثناء القوة المستفزة التي تُظهرها، فتدفعك للرغبة في ترويضها وإخضاعها، ووهج عينيها المُشعتين الذي يغريك بإطفائه!

استرد النوم سلطانه، وطغى على الهواجس والهلاوس والحيرة، فطرد عقلي خارج نطاق الخدمة قبيل الفجر بقليل، ولم أهنأ به إلا لسويعات، ثم انتشلني رنين جرس الباب من أعماقه، ودَبَّ نشاط مفاجئ في أوصالي أقامني في ثانية واحدة على قدميَّ، ودقات قلبي المضطربة تتساءل عن هوية زائري الغامض بتلك الساعة الباكرة، والذي لم يكن سوى «عمرو نافع» الذي جاء هو الآخر حاملًا سؤالًا، مُقررًا عدم الرحيل دون تلقي الإجابة التي يرغب في سماعها.

امتد الحديث بيننا لأكثر من ساعتين، خرجت عباراته مُفعمة بالحماس والخوف وأحيانًا السخط، وجرى كله بصوت خفيض، حريصين على ألا يجاوز حدود الجدران، بدأه بأنه ما كان ليُرشحني لولا يقينه من سلامة

عقيدتي وصلابة إيماني، وأخبرني بأنه لا يُراد مني إلا العلم الذي تعلمته، وسيقتصر دوري على وصل شرائح الهاتف بالعبوات الناسفة، ولن أعلم -إن شئت- أين ومتى ولماذا سوف تُزرع، ثم اختتم الحديث بأن تلك دعوة من الله لنصر دينه وإعلاء رايته، وأن أبواق الحرب نُفخت يوم انقلب الطواغيت علينا، والحياد في زمن الحرب والخيانة سواء.

تكاثفت كلماته الأخيرة فوق رأسي كسحب معتمة ينهمر منها ماء حارق، يُزيل ملامح الوَرَع ليكشف عن وجه مُسوَّد بالخزي، ورحل أخيرًا مفسحًا المجال للتفكير وتدبر الأمر، وكان الحق جليًّا وهو في صفه، قد صدق في كل كلمة نطقها. طالما كَبَّرت وسجدت شكرًا لكل صفعة تدوي على وجه الملاعين؛ لكني كنت كمن يشاهد عرضًا للسيرك، تعجبه شجاعة الرجل وهو يضع رأسه بين أنياب الأسد، فيلهب يديه بالتصفيق، آمنًا بأنه متى قرر الوحش إطباق فكيه ستبقى رأسه فوق كتفيه.

طاردني الشيخ «أمين أيوب» طيلة ثلاثة أيام، أرى وجهه على صفحة القمر، وتتشكل السُّحب المتفرقة في سماء النهار على هيئته، وتطل نظراته من قلب كل وجه أصادفه، ولا يتوقف صوته عن الطنين بأذني، فيضيق صدري بالعار الذي ألحقته بنفسي، وتجري في حلقي مرارة تكاد تقتلع مني الروح، ورغمًا عني أتساءل: ماذا لو كان هذا قدري؟ وماذا لو كانت حياتي كلها إعدادًا لتلك اللحظة وكنت أنا المختار؟! علَّ مجيء «عمرو» إليَّ هو بقرة بني إسرائيل، فهل ينتهي بي الحال ساجدًا للعجل؟!

صحبني «عمرو» إلى شقة بإحدى العمائر القديمة بمنطقة إمبابة، وكدت أسقط مغشيًّا عليَّ من هول ما رأيت. ينتهي الأمر دومًا بنبأ عاجل وشريط حداد بزاوية شاشة التلفاز؛ لكنه يبدأ من هنا، من داخل

تلك الأنابيب المعملية الفائحة برائحة أقرب لروائح المُنظفات النفاذة، والصناديق الحاوية لكيلوات من مادة بيضاء بلورية[1] تمنيت لو أني أجهل ماذا تكون، فمجرد الوجود بقربها يزيد رعبي رعبًا!

أنهى الرجال عملهم، وآن دوري لوضع اللمسة الأخيرة، وبأيدٍ ثابتة وقلب منتفض ثبَّتُّ الهاتف المحمول فوق العلب المعدنية وأوصلته بها، عالمًا بأن رنينه سيفتح طاقة لجهنم على الأرض تلتهم أحد الجبابرة الكافرين، وربما آخرين معه؛ لكنها الحرب -كما قال «عمرو»- وما حرب بلا ضحايا، وكل شيء فداء للغاية الأسمى، والله بالسر عليم.

اجتاحت رياح التوجس الباردة أعماقي، فلم أعد أرقد من الليل إلا قليله، وإن فعلت رأيتني أشرب اللبن من ضرع كلبة عوراء كثيفة الشعر، فأهب من نومي مستشعرًا مذاقه في فمي يثير بالنفس غثيانًا، وكل جزء مني ينضح بالعرق. أنتظر قليلًا حتى يعاود الدم الهارب التدفق بأوردتي، وأتمالك نفسي إن استطعت، ثم أقلِّب بالهاتف مفتشًا عن النبأ المُرتقب، وتلقيته بعد ليلتين. كان خبر مقتل أحد القضاة يتصدر المواقع والصفحات، مذيلًا بصف من التعليقات تختلط فيها الشماتة بهلاكه والدعاء بهلاكنا.

سَرَتْ في جسدي رجفة عنيفة أفلتت الهاتف من بين أصابعي، فأغرقتني أمواج الظلام مجددًا، ومعها استشعرت دفئًا يُسال بين سيقاني، ودمعًا يتفجر من مقلتي عينيَّ، فشدَدْتُ قبضتي على ملاءة الفراش، وعضضت على شفتي لأمنع نشيج بكائي، فمن تلك اللحظة بات لا بد من أن يكون كل شيء سرًّا، حتى البكاء، هذا إن كنت لا أرغب في الموت. وأنا لا أرغب، وتلك هي المعضلة.

---

(1) مادة «TATP» شديدة الانفجار.

كذب من قال إن وقوع البلاء أهون من انتظاره، ففي الانتظار أمل ولو ضئيل أن يحدث أمر وتأتي معجزة تمنعه.. ما زلت صغيرًا، وأمامي عمر كان يجب أن يكون مديدًا. أين كان عقلي وأنا أقصفه؟! قتلنا قاضيًا وتركنا ألفًا غيره ليعلِّقونا بالمشانق، وحتمًا سيفعلون، فلهؤلاء الشياطين أساليبهم التي لا تخيب، أما من اتخذتُ جانبهم فلا يتهاونون في شيء، وإن فعلوا فلن يكون في الانشقاق عنهم. فريق يتوعدني بالجحيم وآخر يعدني بالجنة، وكلاهما يُعجِّل بقيامتي.

هل أُحدِّث «عمرو» بالأمر؟ لكن ليس للمرتد من عذر، ولا يعقب إهدار الدم عفو. هل أرجع البلدة وأمكث في بيت أبي؟ لكن بماذا سيفيدني ذلك؟! أخيرًا وجدتها، أبتر إصبعًا أو اثنين، ربما عقلة واحدة تفي بالغرض، وعندها أصير معيبًا عديم النفع. لكن بعد ماذا؟! ما وقع قد وقع، ولن يديم المولى ستره عليَّ إن انسحبت من ساحته وخرجت من تحت رايته.

قضيت الأيام التالية أعيد قراءة كتب الشيخ «أمين أيوب» واستمعت لخطبه، باحثًا فيها عما يُثبِّت القلب ويشد العزم ويهدي النفس، وسَلَّمت الأمر كله لله، وبقيت مرغمًا على العهد. لم أحاول الاتصال بـ«عمرو» أو غيره من الإخوة كما أمر، ومَرَّت أسابيع أخرى قبل أن يُرسَل في طلبي، وأخبرني بأن ضربتنا التالية قد حانت، فلم يجد مني إلا إيماءة طاعة وانصياع.

تكرر الأمر مرة تلو الأخرى حتى اعتدت مذاق الدم، ولم أعد أرتاع لاستقبال أنباء القتل، وكنت أرغم لساني على ترديد أدعية الشيخ «أمين أيوب» لحاملي لواء الله من المجاهدين في سبيله، فيتذكر عقلي وعده لهم،

فلا أرى في صور السيارات المُتفحمة ولطخات الدم وتبعثر الأشلاء إلا درجات ترتقي بي نحو الفردوس الأعلى.

لم أخض امتحان البكالوريوس وقررت تأجيله للعام التالي، إن بقيت حيًّا حتى ذلك الحين، وانقطعت تمامًا عن زيارة البلدة، ربما ظنني أبي عاجزًا عن مواجهته بعدما خيَّبت أمله؛ لكنني لم أقصد بذلك إلا حمايته هو وأمي وإخوتي، بجعل قطيعتنا أولى المعلومات في تقارير التحريات إذا ما ساءت الأمور.

أحطتُ نفسي بدائرة الإخوة، واحتجبت بهم عمن سواهم، وتعاهدنا بالروح والدم على الثبات حتى يُطبَّق شرع الله في أرضه، وإن سقطنا فيكون سقوطنا ملحمة تُخَلَّد بعدنا وتُلهم غيرنا، وتظل سيرتنا تُردَّد إلى يوم البعث. وكان كل ذلك محض هلاوس، أفقنا منها وهم يقتلعوننا من بيوتنا ونحن نيام، وتبيَّنَّا لاحقًا أن «علي فيَّاض» كان أول من سقط، ولم يحتفظ بلسانه أو يتمسك بعهده لأكثر من ساعة.

كانت أيامي الأولى بالسجن شاقة كما كان أول عهدي بالجهاد، وكما ألفت هذه ألفت تلك، وسَلَّمت بالأمر الواقع والمصير المحتوم، ومَنَّيت النفس بالشهادة وعظم الأجر وحور العين المتلهفات لصعودي، ولكن ماذا لو لم أكن متلهفًا لهن؟! ألا نلقى بالسماء كل ما نتمنى؟! أنا لم أتمنَّ بالدنيا إلا «إنجي» فلِمَ لا ألقاها بالآخرة، ويكون أهل النار من نعم أهل الجنة؟!

ظل ذلك التصور يراودني متأرجحًا بين الجدية التامة والهزل الكامل، حتى اقترب موعد المُحاكمة، وبلغتنا أنباء طلب شهادة الشيخ «أمين أيوب»، فاستبشرت، قُدِّر لي النظر إلى وجهه لمرة أخيرة قبل الرحيل،

ولا بد من أن المشهد سيكون مهيبًا كوقفة «موسى» أمام كهنة «فرعون»، يلقي كلماته بالحق فيخزيهم ويقلب سحرهم عليهم، ولعل منهم من يخر ساجدًا ويُسلم معه.

اشرأبت الأعناق من داخل القفص ومن خلف المنصة، وتحولت الأبصار كلها إلى ذلك الشيخ الهرم وهو يدلف إلى القاعة، واقشعر بدني وأنا أراه يقف أمام القاضي برأس مرفوع، وأَقسمَ بالله العظيم على قول الحق، وأعقب قسمه بأنه عابد وليس عالمًا، ولا يُصدر فتاوى، وليس مؤهلًا لها، إنما ينقل العلم من الكتب للعوام، وأن الجهاد في رأيه يكون بالكلمة وصالح الأعمال، وأنه بريء براءة الذئب مما اقترفه هؤلاء الجاهلون.

امتقع وجهي ومادت بي الأرض، فتشبثتُ بالقضبان مُتحاشيًا السقوط وأنا أحملق في وجه الشيخ ببصر مبهوت، لم يطرف له جفن، أو يتلعثم لسان، وهو يهدم بطَرق كلماته حياتي كلها، مُنكرًا كل ما عشت لأجله وأموت في سبيله.

إنها الدنيا، أصدق ما بها أنها كذبة كبرى، وليس لمن يختارون سبيلي رجاء إلا بالآخرة، حيث يُوَفَّى العهد ويُلقَى الوعد. الوعد الذي منحني إياه رجل أقسم لتوه بأنه ليس شيخًا.

❖❖ ❖❖ ❖❖

[10]

أسكارس

اشرأبت عنق أمين الشرطة وجحظت عيناه كذكر ضفدع في موسم التزاوج، حدَّق بي وأنا أتقدم باتجاهه كأنما تلقَّى مكافأة طول صبره بعد ساعات عجاف من مُراذلة النشالين ومشاكسة المتسولات. لم يكن معتادًا على رؤية مثيلاتي بهذا المكان، امرأة ثلاثينية متأنقة، في بذلة جلدية ترسم بدقة حدود قوام تتهاوى القلوب بتمايله، متوجة بشعر أحمر قصير ينحسر عن وشم يُزين جانب عنقها الطويل، ويتدلى قرط مثير من جانب حاجبها، ولعينيها الخضراوين سحر خاص لم يتأثر بدمعها المنهمر.

أفسدتُ متعة الرجل حين وصلتُ إليه فقلصتُ زاوية رؤيته، وظل يرمقني حتى أحرقت سيجارته المتآكلة أطراف أصابعه وهو يحاول تخمين سر وجودي، وبالتأكيد جالت بخاطره أنماط بعينها من الجرائم، ربما تمنى لو كان هو مُرتكبها؛ لكني عصفت بما بقي من عقله وأنا أعرِّفه باسمي «إيناس محمد عادل»، وأخبره بأني جئت للإبلاغ عن جريمة قتل... وأني القاتلة!

استغرق ذلك البائس بعض الوقت ليستوعب ما سمعه، اعتقد للحظة أني مُنتشية؛ لكني بدوت له -رغم انهياري الوشيك- مُتزنة بالقدر الكافي لأعي ما أقول، فهرع للخارج كمن تلاحقه الشياطين، ثم عاد بعد دقائق واصطحبني لمكتب المأمور، وهناك أحاطتني نظرات متسائلة، وآذان

مترقبة لأول ما سوف أتفوه به، فاستأذنت بإشعال سيجارة، عَلَّ بعثرة دخانها ترتب أفكاري فأعلم من أين أبدأ القصة وكيف.

أمضيت بالحياة أقل من أربعة عقود، وعلى الأغلب هذا كامل نصيبي منها، رغم هذا كان صعبًا عليَّ العودة للبداية، كانت بعيدة كأنما جرت في زمن آخر وعشتها في عُمر مختلف، كنت فيهما فتاة تخطو خطواتها الأولى بعالم اليافعين، ابنة للطبقة الوسطى، تتحلى بأخلاقها وتتبع سلوكياتها وتؤمن بمعتقداتها، وما كانت لتتخيل يومًا أن يمس طرف السيجارة شفتيها الطاهرتين، أو أن تذهب لقسم الشرطة لسبب سوى الإبلاغ عن فقدان بطاقتها الشخصية.

كانت نموذجًا مثاليًّا لبنات طبقتها، حجابها ليس تقوى بقدر ما هو اتقاء لشر الألسنة، تتواجد بالبيت قبل الثامنة، وتلتهم دروسها الخصوصية ميزانيته، يحلم أبوها بيوم تخرجها، وتنتظر أمها ليلة زفافها، أما هي فأقصى أمانيها حضور حفل «تامر حسني»، وأكبر مخاوفها أن يعثر أبهما على صورته المُخبأة بين صفحات كتابها.

كُتب على البنات في مجتمعي ثلاثة أقدار: أولها حلم لا يُثمر، وثانيها حب لا يكتمل، وثالثها وجوب الرضا بالاثنين. أحببت فكرة الإرشاد السياحي، ووددت التخصص في دراستها؛ لكن أبي لم تكن لديه نفس العاطفة تجاهها، رأى فيها مُخالطة للأجانب وهم أدناس أنجاس حسب وصفه، وتلك المهنة تتطلب السفر باستمرار وربما المبيت خارجًا، وهو أمر ترفضه ثوابتنا الأخلاقية الجليلة، ولا يليق بالمُكرمات المكنونات، فانتهى بي المطاف -ليُكمل القدر سخريته مني- ضمن صفوف كلية «الحقوق»!

قادني قدري الأول إلى الثاني، فهناك التقيت «ياسر القليوبي» جالسًا على درجات سُلم المبنى الرئيسي، المكان الذي يُشاع بين الطلاب أنه مهد قصص الحب المُلتهبة، وقد كانوا صادقين. ربما كان انجذابي لياسر طبيعيًّا، أما انجذابه إليَّ فكان انتصارًا حقيقيًّا، لا بد أن نبأ ارتباطنا أحرق كثيرًا من القلوب غيظًا، وأصابني بقدر ليس هينًا من الحسد، كان من النوع اللافت للنظر والانتباه، له نصيب وافر من الوسامة، حريص دومًا على أناقته وحُسن هندامه، ينتمي لعائلة ميسورة، وعمه هو الدكتور «نبيل القليوبي» المحامي البارز الذي يُدرِّس لنا مادة «قانون المرافعات» وبالطبع مكانه محجوز في مكتبه فور حصوله على درجة الليسانس.

حمل «ياسر» تناقضًا غريبًا ومثيرًا، اجتمع به اعوجاج العاهرات واستقامة الرهبان في غير تنافر، لاهٍ أرعن لدرجة لا تسمح لمن ترتضي الارتباط به بأن تغفو عن مراقبته، ومجتهد في دراسته بصورة تجعلها تنام قريرة العين مُطمئنة لمستقبلهما معًا، وكان جامحًا في طموحه، إذا ذكر المال تحدث عن ملايين الجنيهات، وإن تحدث عن المناصب جرفته أحلام يقظته إلى لقب المحامي العام أو النقيب، أو ربما يتخذ مسارًا مغايرًا ينتهي برئاسة المحكمة الدستورية أو كرسي الوزارة، كنت أسمعه فيسعدني حماسه للمستقبل الذي ينسج خيوطه في كل لحظة من حاضره، ويُرهبني الإحساس بأنه مستعد لفعل أي شيء -بالمعنى الحرفي والدقيق- ليبلغه.

مرت أيام الجامعة سريعة كانسلال قوس فوق وتر، ولم ندرك حينها أن تلك آخر نغمات معزوفتنا الحالمة، كانت فترة الدراسة نقابًا ساترًا للواقع، انكشف فبيَّن مدى تشوهه وتوحشه. حدَّثت أمي عن «ياسر» وبدورها أخبرت أبي بأمره، فسلَّم رأسه لشيطانه الحاضر على الدوام، وثارت ثائرته وسمعته يصفني بالفجور وفساد الخُلق، وكتبت لي أمي عمرًا جديدًا حين

أقنعته بأن الشاب جاد وأبدى حُسن نيَّاته بطلب مقابلته، فارتضى مُلاقاته على مضض، مُتربصًا به وكارهًا له، ولكن المُعضلة أن «ياسر» لم يكن قد أظهر النوايا التي ذكرتها أمي وافترضتها من حديث لم أقصد منه إلا البوح والخلاص من ثقل كتم السر عنها.

فشلت مبرراتي المُسبقة بألف قَسَم في إقناع «ياسر» بأني لم أتعمد تعجل الأمور، وقال إنه غير مستعد لتلك الخطوة قبل تثبيت قدميه بمكتب عمه، واتخاذ خطوات حقيقية على الطريق الذي أفنى سنواته الماضية في رسمه. امتدت مكالماتنا الهاتفية لساعات جفت خلالها منابع دمعي، وكَلَّ لساني بالاستحلافات، ولكنه بالنهاية كان مُوقنًا بأن الباب إن أغلق فلن يُفتح ولو دَمَت يداه بالطرق فوقه، فَغَلَّب حكمته على سخطه، وارتضى الأمر الواقع الذي اتهمني بفرضه عليه.

أمضيت نهار الخميس الموعود ساجدة مُتضرعة، داعية بأن تمر ليلته بسلام، غمرتني سعادة وزلزلني خوف لم أعرفهما من قبل، وأنا أتتبع حركة عقرب الساعة، تارة يدور كحصان مُنفلت، وتارة كسلحفاة عرجاء، وبين هذا وذاك مَرَّ الوقت، فجلست مُتصنمة مُنصتة أترقب رنين جرس الباب، ولم يكن هناك سوى صمت مقيت، دام حينًا قبل أن تخرقه دقات قلبي المرتجف، وزفرات أبي الحارقة، وتمتمات أمي الداعية باللطف في القضاء، وأخيرًا رسالة مُسجلة تنبئني بأن الهاتف الذي أستنجد به مغلق أو غير متاح!

كانت ثورة أبي تلك المرة عارمة، عجزت حِيَل أمي أمامها، فحَرَّم عليَّ الخروج، وكسر شريحة هاتفي المحمول، فصارت جدران البيت حدود عالمي البائس، ولأسابيع تعذبت بنظرات أمي اللائمة ونظرات أبي المتهمة؛ لكن الأشد قسوة كان شعوري بالخذلان، وأشواك الحيرة

الناشبة في عقلي، لم أقوَ على تحطيم صنم لم أؤمن يومًا بسواه، وتعبدت في محرابه غير راجية إلا رضاه، كل جزء في تكويني رفض فكرة أني كنت بهذا الغباء، وأنه كان محض حجارة لا تنفع ولكنها حتمًا تضر.

باتت أيامي تواءم متطابقة، نفس الأحاديث والأحداث بكل نهار وليل، حتى قرعت «هدى سراج» بابي، وعَرَّفت نفسها لأمي بأنها صديقة جاءت للزيارة والاطمئنان، وكانت هذه أولى كذباتها، فهي -حتى تلك اللحظة على الأقل- كانت أبعد كثيرًا من وصف الصديقة، إنما مجرد زميلة دراسة، لا أذكر حتى أننا تبادلنا يومًا أرقام الهاتف.

اختلينا بأنفسنا فزال العجب، وأعلمتني بأن «ياسر» هو من أرسلها بعدما يئس من فشل محاولات اتصاله بي، وعبر هاتفها المحمول تحدثنا للمرة الأولى بعد غياب، وبرغم كل شيء رق قلبي لسماع صوته، وسَرَت بأوصالي ذات الرجفة المعتادة، بل أظنها كانت أشد. قال إن طارئًا قد وقع منعه من الحضور، وأنه تصادم مع عمه وطُرد من العمل، وأننا باقيان على العهد، وسنجد سبيلنا لإصلاح الأمور، وأقسم بي وبحبنا على ذلك.

كشفت «هدى» الأسرار، ولأنها هي الأخرى مُتدربة بنفس مكتب المحاماة كانت عالمة بأدق التفاصيل، فأخبرتني بأن العم اكتشف قيام «ياسر» بتمرير أسرار إحدى القضايا للخصوم، وأنه توعده بشكواه وشطبه من جدول النقابة، وحتى إن لم يفعل ذلك فمن يُطرد من مكتب محامٍ بمكانة «نبيل القليوبي» يصعب قبوله بأي مكتب آخر.

صَدَّقتُ روايتها لاتساقها مع طبيعة «ياسر» الطامعة التي لا يتنصل منها ولا يخفيها ولا يرى بها نقصًا، لم يحاول تبرير فعلته، ولم تسع هي

لتجميل الصورة؛ لكني توليت كلا الأمرين في داخلي حتى شعرت بالإشفاق عليه.

بعثتْ مكالمته القصيرة فيَّ الروح، ورَدَّت للحياة ألوانها المُنسحبة؛ لكن لم يبارحني الخوف، كنت عالمة بأن العقدة قد استحكمت، وأنه اقترف ذنبًا لا توبة منه، ولن يلقى من أبي صفحًا ولا غفرانًا، راودني ألف تصور للآتي، وأسوأها لم يتضمن «أحمد رزق أحمد رضا»، ذلك الشبح الذي خبأه القدر للنهاية، وأظهره من العدم ليُطفئ به آخِر بارقة أمل.

ربطتنا بـ«أحمد» هذا قرابة من النوع المعقد، فجده لأمه المتوفاة ابن خالة جدتي لأمي، وهذا يفسر عدم لقائنا قبل الليلة المشؤومة التي جمعتنا بحفل خطوبة إحدى قريباتنا، وبعدها أبدى رغبته -عبر وسطاء- في التقدم بطلب يدي، وكانت سعادة أبي بالغة، فوالد العريس المنتظر على حد وصفهم أسطورة، بدأ حياته حَمالًا واستمر بالصعود حتى أسس شركة للمقاولات، ثم نسى كل ما أنجزه بعدما نَخر الألزهايمر مخه، فتولى «أحمد» إدارة الشركة خلفًا له، ولم يكن له إلا أخ غير شقيق يدعى «كريم»، ويُشاع بجلسات النميمة العائلية أنهما ليسا على وفاق.

صارحت أمي بسر زيارة «هدى»، وأخبرتها برغبة «ياسر»، فصَمَّت آذانها عن توسلاتي، وحسمت الأمر بقولها بأن ما من مخلوق يجرؤ على محادثة أبي بشأن ذاك النذل الذي طُويت صفحته للأبد، وعددت مزايا «أحمد» الذي لا ينتظره مستقبل باهر فحسب، إنما هذا المستقبل قد تحقق بالفعل، ولم تسألني عن قبولي أو رفضي، وكان أمرًا مقضيًّا.

جرت الأمور سريعًا، فالعريس كان مستعدًّا بكل شيء ولأي شيء، وبعد أشهر معدودة وجدت نفسي مُشَيَّعة بالزغاريد إلى فيلا حلوان التي

يسكنها رفقة أبيه، وحاول «أحمد» بأسابيعنا الأولى أن يكون ودودًا، وسعى لاسترضائي بكرمه ولين كلامه، وحتمًا كان هذا شاقًّا عليه، فهو ليس من طبيعته، بيئة عمله -التي خرج إليها مبكرًا- خَشَّنت روحه برغم ما بها من حِلم وطيبة، فلم يبرع في التلاعب بالكلام وصياغة العبارات الآسرة للعقول والقلوب، وكان يتنقل كثيرًا بين المحافظات لمتابعة مشاريع شركته، وبكل مرة يعد بتعويضي عن الغياب، غير أن غيابه كان عوضي عن العذابين: لوعة الفقد، وحرقة الذنب!

عندما يرحل عزيز نعتاد غيابه ولو بعد حين، ونألف الحياة بدونه ولو مُرغمين؛ لكن إن فقدناه حيًّا نفقد الحياة معه، ونضل بها بعده، يُعذبنا علمنا بوجوده تحت سمائنا، وأن رؤياه صارت علينا مُحرَّمة، لا يزال قلبه ينبض بين ضلوعه، ولكن ربما لم تعد دقاته تنشد اسمنا، وكلما طال البُعد عنه زادت اللهفة إليه، فتُحوله لهاجس نخشى أن تفلت به ألستنا أثناء النوم، وتحاصرنا صورته في ساعات صحونا، ولكل ذلك لم أدرِ وأنا أطالع تلك الرسالة النصية القصيرة إن كانت حقيقية، أم عقلي فقط يتمادى في العبث بي؟!

أعدت قراءتها مائة مَرَّة وراجعت رقم المُرسل -الذي أحفظه عن ظهر قلب- ألفًا، فتوقفت عن مخادعة نفسي بالاعتقاد بأنها مجرد هاجس، تذكر تاريخ عيد ميلادي، وبطريقة ما توصل لرقم هاتفي الجديد، وما كان هذا ليصعب على واسع الحيلة مثله، وأرسل يُهنئني بكلمات قليلة مُختتَمة برمز قلب، تمامًا كالماضي الذي استرجعته كاملًا في ثانية واحدة، فطغى على الحاضر وأنساني آلامه.

سرت كما المندوهة إلى ذلك الجزء المنزوي من حديقة الفيلا، وغير مُخيرة أو دارية أعدت الاتصال بالرقم، ولم أفق من لحظة التيه التي مَرَّت

بي إلا وصوته الهامس يطرب قلبي المشتاق. كانت مكالمتنا قصيرة مقتضبة العبارات، مجرد تحية وتهنئة وسؤال عن الأحوال، كلمات معدودة كل واحدة منها يتوارى خلفها ألف معنى، وكما توقعت وتمنيت فُتِح الباب الذي تحاشى كلانا الاقتراب منه منذ جرى ما جرى، وكان هذا الحديث المختصر بداية أحاديثنا الممتدة.

تخطينا بمكالماتنا السرية حدود دوائر حيواتنا المُريعة، وسرقنا بها من الزمن لحظات سعادة تعيننا على احتمال ساعاته المريرة، وبعد فترة لم تعد تغني من الشوق شيئًا فطلب لقائي، وشاركته رغبته؛ لكني لم أملك جرأته، فمعارف أبي كثر، ومعارف زوجي أكثر، ولأن النحس جزء أصيل منِّي سأصادف القريب والغريب منهم يوم أن ألقاه.

امتلك «ياسر» مقدرة ساحرة على الإقناع، كان نطق لسانه بأي كلمة سببًا كافيًا لأنساق وراءها مُغمَّاة، كرر طلبه وألح فيه، وشكا احتياجه إليَّ، وقال إنه افتتح بمشاركة صديق له مكتبًا لأعمال الكمبيوتر، وهو مكان مناسب وآمن للقائنا الذي وعد بأنه لن يستمر إلا لدقائق، وكنت أشد احتياجًا لرؤياه، فارتضيت اقتراحه، واعتزمت أن يكون هذا الوداع الذي استحققناه ولم نحظ به.

تغافل «ياسر» عن ذكر أن المكتب لا يزال تحت التجهيز، وأن مقره شقة جده القديمة؛ لكني لم أهتم، لم أكن بالأصل مُصدقة أن أيًّا من هذا حقيقي، وأني برفقته مجددًا ولو لمرة أخيرة، وأنه يقف أمامي بشحمه ولحمه وليس صورة من إفرازات هلاوسي، وعلى كل حال كان لا بد من أن يكون للوداع خصوصيته، وأن يتفرد بانفرادنا؛ لكنه لم يكن قصيرًا كما حسبنا وتواعدنا.

كان هناك الكثير ليُقال، حدثني عن أحلامه التي بعثرتها أزمته مع عمه، وتحدث عن معاناته بدوني، وحاول لومي على خنوعي واستسلامي، فأوقفته بإشارة ودمعة، وأخبرته بأني لم أخطط بأن يسير اللقاء بهذا الاتجاه، وأن تُهدر دقائقه في العتاب، أردته سعيدًا لأن ذكراه هي كل ما سيتبقى لي منه؛ لكن قولي لم يُرجعه، وبكى كطفل أفلتته أمه وأضاعته وسط الزحام، وحكم على زواجي بالبطلان، قال إن الشرع اشترط الإيجاب والقبول، وأنا تم إرغامي وما كنت لأقبل بسواه.

أدمَت كلماته جراح الروح الغائرة، فتقاربنا لنتداوى ببعضنا، وأعلن الإيجاب فأنلته القبول، وجرفنا فيض مشاعرنا في غمرة سُكرنا بالولَه إلى المحظور، لحظة واحدة -أو هكذا بدت لنا- لم ندركها إلا بعد فواتها، تاركة فينا أثرًا سيدوم ما بقي من العمر، وبركان ثائر من أحاسيس متضاربة؛ لكن الندم ليس بينها!

تخدَّر الألم وعُوِّض الحرمان، وأعدنا الأمر فتضاءلت رهبته بفعل الاعتياد، ولم يكن يتيقظ ضميري إلا ساعة خيانتي لنفسي ولعهد الحبيب بوجودي بين ذراعي «أحمد»، وأنا بذلك الحضن الذي أُلقيت إليه بلا رغبة منِّي أو إرادة، وكلما راودتني فكرة الطلاق أرجعني عنها احتياجي لحُجة وسبب وإيجاد إجابة لألف سؤال سوف يُثار، فأعاود الاستسلام كجثة بين يدي مُغسلها، وأصبر على لفح أنفاسه الحارقة حتى يفرغ أو يمل.

بدأ تشغيل المكتب، فلم يعد يلائم لقاءاتنا النهارية، وما كان خروجي المتكرر ليلًا ليمر دون لفت الانتباه وإثارة الشك، وحُرمنا بعضنا مجددًا فاستعرَت رغبتي في اجتماعنا، رغبة أهون ما بها الشهوة، إنما تنسمتُ بها حريتي المسلوبة، وكانت طريقتي للتمرد، ووجدت فيها شيئًا من الانتقام

وإن لم أدرِ ممن أنتقم تحديدًا، من أهلي أم زوجي أم نفسي! على كل حال كان للأمر لذة تستحق أن يُفعل أي شيء لأجلها، فدعوته للمجيء إلى الفيلا في ليالي سفر «أحمد».

أمسكت بالدفة للمرة الأولى، وأقنعت «ياسر» بأن أحدًا لن يلاحظه إن تسلل عبر بوابة الساحة الخلفية، ولا يوجد بالفيلا إلا خادمة تأوي لغرفتها بالجناح الشرقي عقب صلاة العشاء، وحماي العجوز الذي تعوقه عظامه الرميم عن مجرد التفكير في الصعود لطابقي العلوي، أما «أحمد» فكان يجيد دور الزوج الصالح، ويهاتفني عشر مرات بأيام غيابه، فأمنت ألا يرجع فجأة ليجد آخر في فراشه على غرار الأفلام رديئة الحبكة.

احتسبت لكل شيء عدا الكلاب اللعينة، طالما كرهت وجودهم، وبتلك الليلة فقط أدركت السبب، أهاجهم اشتمام رائحة غريب في بيت سيدهم، وحبسهم بالحجرة المُنعزلة بالحديقة الأمامية لم يكفُّهم عن النباح، فهرعت للأسفل آملة أن يكون إطلاقهم كافيًا لإرضائهم وإخراسهم، فوجدت الرجل العجوز -بإحدى نوبات استرداد وعيه النادرة- قد استبقني إليهم وسأل عن سبب احتجازهم، وبينما أفتش بعقلي عن إجابة مناسبة رفع بصره للأعلى ورأى الشبح العاري المُطِل من الشرفة، أدركت على الفور ما سيحدث باللحظة التالية، فعاجلته بإطباق يدي على فمه، وارتمينا معًا فوق أرض الحديقة لأمنع صياحه من إيقاظ الخادمة أو جذب انتباه جار، موقنة بأنه خلال لحظات سيهدأ وينسى أمر خيانتي لابنه، وربما ينسى ابنه نفسه؛ لكن صمته جاء أسرع مما توقعت، ورأيت السائل الأحمر اللزج ينساب من أسفل الرأس المرتطم بالحجارة!

كادت تنفلت منِّي صرخة مدوية لولا ظهور «ياسر» أمامي بذات اللحظة مشيرًا بالتزام الصمت، وتلفَّت حول نفسه ليتأكد من عدم

وجود عمائر مرتفعة حول الفيلا، ثم طالبني بتمالك نفسي، والإصغاء له جيدًا، وأعادني لداخل الفيلا كي أراقب الخادمة وأقطع عليها الطريق إن استيقظت من سُباتها، بينما حمل هو الرجل الميت كحانوتي عتيد إلى الساحة الخلفية، وقضى المتبقي من ساعات الليل في حفر أرضها، وعند شروق الشمس كان قد أعادها مستوية مرة أخرى.

لم يكن تعامله بثبات مع الموقف المريع هو المثير للدهشة، إنما الخطة التي أعدَّها بينما يحفر قبرًا بيدين عاريتين وجاروف قديم الأحق بذلك، ولم يكن لدي فرصة للانشغال بشيء سوى تنفيذها كما يجب، فانتظرت في غرفتي حتى جاءتني الخادمة مذعورة تخبرني بأن سيدها العجوز قد تبخر، وأن بوابة الحديقة مفتوحة على مصراعيها، فتحررت من ثباتي المصطنع، وانهرت تمامًا وأنا أستنجد بـ«أحمد» عبر الهاتف، وأخبره بأن والده الخرِف غادر وحيدًا، ولا بد أنه هائم بالشوارع لا يدري من يكون أو لأين يذهب.

ساندت «أحمد» بالأيام التالية كأي زوجة أصيلة، أبشره باقتراب الفرج، وأتابع معه نتائج عملية البحث، وأجيب الاتصالات الواردة من الطامعين بالمكافأة المالية التي رصدها لمن يدلي بمعلومات عن مكان الرجل التائه، وأهون عنه حماقات أخيه الذي بدأ يلوح بورقة اقتسام ما خَلفه الأب وراءه، أما «ياسر» فكان يتواصل معي يوميًّا ليضمن ثباتي وعدم استسلامي لعذاب ضميري، فيذكرني بأنه كان حادثًا غير مقصود، وأن الموت لذاك العجوز المُحَمَّل بأمراض الدنيا رحمة، وبأننا عالقان معًا بهذا الأمر، ومعًا سوف نتخطاه.

أصابني المرض، فظننت أن الهم والخوف هما ما أرقداني الفراش، حتى جاء الطبيب يبشرني بوجود برعم صغير يُفتح في بطني، ولم أكن

واثقة أي البذرتين أنبتت؛ لكن حساباتي التقريبية رجَّحت كفة «ياسر»، فأطلعته على الأمر وأعلمته بنيتي في التخلص من الجنين، فثار وغضب وحذرني من مساسه بسوء، وقال إنه لا بد للطفل من أن يولد وينسب لـ«أحمد»، ولكنه لن يسمح بأن يُربَّى وينشأ بعيدًا عنه.

لم أفهم مقصده أو خشيت ما فهمته، فجعل كلامه أكثر وضوحًا، وقال إن الابن المكلوم لا يزال يبحث عن الأب، ولن ييأس قبل اكتشاف حقيقة ما وقع، وبهذا يصبح لدينا سببان أهونهما كافٍ للتخلص منه بأسرع ما يمكن.

ما كنت لأحتمل وزر روح أخرى، فكان رفضي لفكرته الشيطانية قاطعًا وصارمًا، ولم تفلح كل وساوسه في زحزحتي خطوة واحدة عن قراري المحسوم، يكفيني شبح واحد يجثم فوق صدري طوال ساعات الليل، كنت صادقة في رغبتي في الخلاص ووضع حد لكل هذا؛ لكن ليس بتلك الطريقة، ولم أتصور النهاية أبدًا على هذا النحو.

تملَّك الغضب «ياسر» حتى أفقده رُشده وصوابه، فبات يختفي لأيام متتالية لا يجيب خلالها على اتصالاتي، ثم يظهر فجأة ليحدثني حول أحقيته بتربية ابنه -إن كان كذلك- تارة راجيًا وتارة متوعدًا، وظللت أنا عازمة على إجهاض حملي متى واتتني الفرصة وجاءتني الجرأة، وبينما أنتظر بدأت ألمس تغيرًا مُريبًا بـ«أحمد»، كأنما يعلم بما أنتويه، شيء ما في أفعاله وهفوات كلامه كان ينبئني بذلك، ورأيت في عمق نظراته حِمَمَ بركان مُستعر ترقُب اليقين لتثور؛ لكن يقين من ماذا؟! إجهاض الطفل؟ أم الخيانة؟ أم تراه اكتشف السر الأكبر؟!

رفض «ياسر» إخباري بأي تفاصيل، مؤكدًا أن ذلك أفضل للجميع، ولم يكن مطلوبًا مني سوى إجابة وابل من الأسئلة، ونسخة من مفاتيح الفيلا، فكانت صدمتي حقيقية حين استيقظت ذات صباح لأجد «أحمد» مُسجى ذبيحًا على أرضية غرفة الصالون، وكان وقع المفاجأة عليَّ أشبه بالصاعقة، ووجدت نفسي محاصرة بالمحققين، مُجبرة على إجابة سيل آخر من الأسئلة، وكنت صادقة في كل كلمة نطقت بها أمامهم، بما في ذلك أني لا أعلم ولم أسمع ولم أرَ شيئًا، وحدثتهم طويلًا عن زوجي الصالح الذي له مئات المنافسين وليس بينهم من يرتقي لمرتبة العدو، ورجوتهم باكية أن يقتصوا من الحقير الذي يَتَّم ابني قبل خروجه للحياة.

ساقتهم الشواهد للاعتقاد بأن القاتل جاء في ساعة متأخرة، وأن «أحمد» اجتمع به لفترة كافية لتدخين سيجارة، وجدوا عُقبها بمنفضة الطاولة، ثم ارتكب جريمته بأداة حادة أقرب للمشرط الجراحي، وغادر دون أن يسرق شيئًا، وبقليل من الجهد تبيَّنوا أن السيجارة تعود لأخيه الطبيب «كريم»، ورَجَحت كفة الأدلة أمام كفة إنكاره، وكانت نظرية قابيل وهابيل مُقنعة للمحققين ومُطمئنة للقاضي، فأرسلوه لحبل المشنقة موصومًا بعار الغدر، ملعونًا بحرمة الدم.

كان كل شيء مُحكمًا، حتى ظننت لوهلة أن «كريم» هذا فعلها حقًّا، لولا نفي «ياسر» المُتباهي، ودون أن يكشف كيف تدبر الأمر، أشار إلى أن اختفاء الأب والابن ما كان سيمر دون إثارة الشك حولي، فأنا الوحيدة المقيمة معهما تحت نفس السقف، لذا بدلًا ن أن نُخلِّف وراءنا لغزًا مُحيرًا، كان الأجدر بنا تقديم حل مُرضٍ، خاصة بعدما علم منِّي أن الأخوين بلغا طريقًا مسدودًا، وتوقع أنها مسألة وقت قبل أن يفكر أحدهما في

التخلص من الآخر، وخشي أن تأتي الخطوة الأولى من الشخص الخطأ، فتحتم عليه استباقهما ليضمن سير الأحداث بالاتجاه الذي أراده.

تحقق لنا ما أردناه، وصرت قريبة من امتلاك ثروة ضخمة، فكان أول قراراتي طرد أبويَّ وكلبَي الحراسة من جنتي، وأبقيت أربعتهم ينبحون خارج أسوار الفيلا، وتولى «ياسر» -تحت اسم محامٍ صديق- إتمام الإجراءات القانونية الضامنة لحفظ وتجميد الأموال لحينٍ استنفاذ «كريم» لدرجات التقاضي وحتى أضع حملي، داعيًا في كل وقت بأن يكون ذكرًا، كي لا يفلت جنيه واحد من قبضتنا.

تحررت الروح الحبيسة بعدما شُوِّهت، وأُطلقت بفضاء الدنيا مثقلة بالأوزار، ينهشها الندم ويملؤها الرعب، وتُغالب الاثنين بالهرب لعالم من الأوهام، وكانت «هدى سراج» مُرشدتي إليه. انسلخت نفسي عني حتى لم أعد أعرفها كلما طالعتها على صفحة المرآة، أحرقت أطنانًا من التبغ المخلوط بأشياء أخرى، وتناولت حبوبًا لا أعلم لها اسمًا، ولكنها كانت تجلب النوم.

استماتت «ياسر» في محاولة كبح جماحي، بالنصح والترجي والوعيد، ولم يردَّني شيء، كان إحراق تلك اللفائف فقط هو ما يطرد الأشباح من رأسي، ويُخفي عن ناظري لطخات الدم الناشعة من الجدران، إلا أنه كان مُحقًّا في مخاوفه، وبعد أسابيع قليلة أفقت في فراش أحد المستشفيات، لا أذكر متى أو كيف جئت إليها، وأعلموني بأني فقدت الوعي وكنت قريبة من فقدان ما هو أكثر من ذلك؛ لكن الأمر مَرَّ بسلام، أنقذ الطبيب حياتي وأرسل الطفل ليودع الحضانة، وقالوا إنه ذكر، وبرغم سوء حالته أمامه

فرصة للنجاة، وبميلاده انقضت عِدَّتي، وأخيرًا لم يعد هناك ما يحول دون إتمام زواجنا رسميًّا[1].

بلغنا بعد أسابيع أن «كريم» ارتدى -في محبسه- الزي الأحمر، فصار عليَّ إفساح رأسي لشبح ثالث سوف يحتله عما قريب؛ لكن ما كان يهم بتلك اللحظة هو أن كل ما اكتنزه الحاج «رزق أحمد رضا» طوال عمره المديد، بات ملكًا لي ولحفيده -قانونًا على الأقل- الذي سمَّيته «زياد»، وآنذاك أخبرت «ياسر» بضرورة التخلص من فيلا حلوان التي ما عدت أطيق البقاء بها ولو ليوم آخر، فقال إن بيعها ليس بالقرار الصائب، فقد يرغب مالكها الجديد في إجراء إصلاح أو تعديل بالساحة الخلفية، وعندها يكتشف سرنا الدفين.

رأى «ياسر» أن من الأفضل تأجيرها بشروط صارمة، تضمن عدم المساس بهذا الجزء منها، وكنت مستعدة لقبول أي شيء، ما دام ينتهي بانتشالي من بؤرة الجحيم القابعة بها، فانتقلت للإقامة بإحدى الشقق المفروشة مؤقتًا، حتى أتممنا ترتيبات زواجنا، وانتقلنا معًا لفيلا فارهة أخرى بأحد أرقى شوارع حي المعادي.

تحقق ما أردت؛ لكن ليس كما تخيلت. لم يكن بيتنا قطعة من الجنة، ربما لأن الجِنان لا تسكنها شياطين، والجدران الأربعة التي كانت منتهى الأمل والحلم ما كنا نجتمع بينها لأيام مُتصلة، ولم يعد يربطنا شيء أكثر من تلال الأوراق التي يجب أن أوقعها لتمرَّر، حتى أني ضجرت، وعرضت عليه توسعة سلطة تفويضه أو منحه توكيلًا موثقًا يُسهل الأمور، فكان

(1) اتفقت المذاهب الأربعة على أن عدة الحامل المتوفى زوجها تنتهي بوضع الحمل، ولم يخالف ذلك إلا بعض الصحابة رضوان الله عليهم. فتوى دار الإفتاء المصرية رقم (1897) بتاريخ 21/7/2011.

يرفض اجتنابًا لوساوس الشيطان، وكي لا يبدو أمامي طامعًا بالثروة التي يدير فعليًّا كل قرش منها.

أخطأت في تقدير الأمر، لا تعترف الأشباح بالحدود، فلم تقبع مكانها مع ما خلَّفته ورائي يوم الرحيل، إنما صارت أكثر صخبًا، فصرت أكثر شراهة لكل ما يُغيِّب وعيي ويشوش ذاكرتي ورؤيتي، وكان «ياسر» يسلخ مسامعي بأحاديثه المتكررة عن ارتفاع العائدات وخططه للتوسع وإعادة استثمارها، كان يذكر هذا على سبيل التفاخر، أو ليبرر غيابه الدائم، ولم يكن يعنيني بكل هذا سوى أنه يؤمِّن راتب المُربية التي ألقيت لها الطفل لتعتني به، وأحصل -دون حساب- على المال الكافي لفعل كل ما يُلهيني عن التفكير بالماضي.

انشغل «ياسر» عني بهوس الأرقام الذي أصابه، وانشغلت عن انشغاله بتكوين صداقات جديدة، وجلسات الثرثرة الفارغة بالأندية والمطاعم ومراكز التجميل، وصرت أغير قصة شعري ولونه ومظهري كاملًا كل بضعة أسابيع، وخلال نفس المدة أبدأ البحث عن صنف آخر من حبوب الإلهاء لم يفقد تأثيره على عقلي بفعل الاعتياد.

فعلت كل شيء للتخلص من تلك الذكريات، ولما أيقنت من فشلي بحثت عن طريقة للتأقلم معها، وبالنهاية تبيَّن أن ما من سبيل للخلاص إلا بالعودة للماضي وعدم الانجراف لهذا الطريق من البداية؛ لكن تُرى إن واتتني تلك الفرصة، أكنت لأفعل أمرًا مغايرًا وإن تضمن التخلي عن «ياسر»؟! ألح عليَّ السؤال، وظل بلا إجابة.

بعض الذنوب رمال متحركة، إن مسَّتها القدم فلن تتوقف عن الغوص بها، وقد التهمني ذنبي بالكامل، أماتني، وإن ترك بداخلي قلبًا

ينبض ورئتين تتنفسان، وعقلًا أعجزته حيرته، لا يُفرق بين حقيقة ووهم وهاجس، فلم أعد أعي لأي من الثلاثة تنتمي تلك الصناديق أسفل فراش الطفل، والتي تحتوي كل أثر باقٍ لـ«أحمد»، واعتقدت دومًا أن روحه قابعة بداخلها، فكنت أرهب الاقتراب منها أو حتى النظر إليها.

راودتني بإحدى ساعات يأسي فكرة جنونية، بأن مواجهة شبحي المريع قد تكون السبيل الوحيد للخلاص منه، ولربما يتوقف كل هذا الصخب إن أطلقته من قمقمه، ففتحت الصناديق التي لم تمسها يد منذ أن غادرنا الفيلا، وكانت مجرد إرث من مهملات رجل ميت: جواز سفر، ورخصة قيادة، وخطابات بنكية، ومستخلصات رسمية، وغير ذلك من المستندات منتهية السريان، وألبومات صور قديمة، وهاتف محمول انقطع شحنه.

أثار الهاتف المحمول فضولي لسبب أجهله، هاتفني حدسي بأن عليَّ تفقده، فأوصلته بالشاحن، وخفق قلبي وارتجفت أناملي مع إضاءة شاشته وتعالي نغمته الافتتاحية، وأدخلت الرقم السري البسيط -المُسلسل من 1 إلى 6- الذي لم يحاول المرحوم إخفاءه عني، ولم يكن هناك ما يدعوه لذلك، فلم يكن ضمن أقسام وتطبيقات الهاتف ما يستدعي التوقف أمامه، فقط صور مبانٍ بمراحل إنشائية مختلفة، ومرفقات الرسائل أغلبها رسومات هندسية وكشوفات رواتب ومصروفات، والمكالمات الصادرة والواردة جميعها لأشخاص لهم صلة بعمله، باستثناء رقم واحد غير مُسجَّل بأي اسم، رغم استقبال أكثر من عشرة اتصالات واردة منه. لا إراديًّا قررت الاحتفاظ بالرقم الغامض حتى أجد وسيلة لتحري أمره، ومع نقل أول خمسة أرقام منه إلى هاتفي ضربتني صاعقة أعفتني من عناء البحث، ووجدته مُسجلًا لدي باسم «هدى سراج»!

فاقت المفاجأة قدرتي على الاستيعاب، فشُلَّ عقلي رافضًا الإقرار بغبائه، والاعتراف بأن زيارات «هدى» كانت من أجل التودد لزوجي، وأني سهلت مهمتها، ورغم أني لم أرغب يومًا بهذا الزواج انتابتني غُصة مريرة، للخيانة وطأة شديدة القسوة حين لا تكون أنت مرتكبها.

استحضرت شياطيني بإحراق لفائف الحشيش، فانقشعت الغشاوة مع تساقط رمادها، وأعدت التدقيق بتواريخ ومُدد المكالمات، فرأيت الأمر من المنظور الآخر، لم تكن تسعى لإسقاط «أحمد» في فخها، إنما الفخ كان منصوبًا لي. بدأت محادثاتهما تقريبًا بالتزامن مع حالة الشك والريبة التي سيطرت على «أحمد» وساقته لحتفه، وكنت قد توقفت قبل حين عن الإيمان بالصُّدف.

كانت «هدى» الوحيدة العالمة بسرنا -أنا و«ياسر»- وقد كشفته له، هكذا تبدو الأمور أكثر اتساقًا، وتجيب على سؤال «كيف؟» الذي انشغلت به طويلًا، أما سؤال «لماذا؟» فإجابته يسيرة: المرأة لا تُقدم على مثل تلك الحماقات إلا حين تغار، ولا تبلغ غيرتها هذا الحد إلا إن كانت مُتيَّمة. المرأة إن عشقت جعلت حضنها جنة المحبوب، ولكنها تفضل دفعه بيديها لغياهب الجحيم على أن تمس أنامل أخرى أوتار قلبه.

جاهدت للإبقاء على اتزاني، أو ما بقي منه، وساورني الشك بوجود حلقة مفقودة، ولاستكمالها طلبت لقاء «هدى» كما المعتاد، وأسقطت هاتفي أسفل مقعد سيارتها، وتعقبته عبر هاتف آخر، فانتهى مطافه إلى موقع فيلا حلوان، التي لم يكن مستأجرها الجديد سوى «ياسر» نفسه، ليلتقي بها سرًّا تلك الساقطة، على نفس الفراش الذي تبادلنا فوقه عهود الحب والدم.

فقدت آخِر ذرة تعقُّل لديَّ، وتوجهت إلى هناك مستعدة لمواجهة سيل من الإنكارات ثم التبريرات ثم قسم بالحب على الندم والتوبة؛ لكن لم أجد في نظراته إلا برودًا مقيتًا، وهو يعترف بزواجه منها، وتوعدتها بالقتل فنعَتَني بالسكيرة المُختلة، وقال إن ما أتعاطاه حوَّلني لرماد امرأة مُحترقة يعف عن ملامستها.

هرعت إلى سيارتي معمَّاة بدمعي المنهمر، أتمنى لو أن كل هذا إحدى نوبات هلاوسي، رغم يقيني بأنه ليس كذلك، ولم أجد مفرًّا من حقيقة أنه دودة تسللت إلى باطني ونمت بين حشاياي، واستنزفتني ببطء حتى لم تُبقِ منِّي شيئًا.

رأيتني في عقلي أقطع شراييني أو أرتمي من شرفتي أو أفرغ علبة الحبوب كاملة في جوفي، أو الأقرب من هذا كله، أدير عجلة القيادة باتجاه أي سيارة مُقبلة وأصطدم بها؛ لكني أيضًا امرأة مُغرمة، وما كنت لأتركه ورائي لتهنأ به أخرى.

تهلك الديدان بهلاك حاضنها...

وهكذا علمت كيف تكون النهاية...

وكيف هو الوداع الذي نستحقه...

❖❖ ❖❖ ❖❖

[11]

الشيطان يروي القصة

يقولون بالمثل الشعبي الدارج: «القرد بعينَي أمه غزال»؛ لكن أمي كان نظرها حادًّا، فلم ترني إلا خنزيرًا، دللته بتركه يُمرمغ في وحل الدنيا.. كنت حِملًا لم ترغب فيه من الأصل، فسهُل عليها التخلي عنه، ولربما سعدت بذلك، كرهتني بلا شك، صحيح أنها لم تصرح بهذا الشعور، ولكنها لم تبذل أدنى جهد لمحاولة إخفائه، فما أنا إلا ندبة تُذكرها بأقسى جراح العمر.

أبي الذي لم ألقَه وهبني كل شيء أملكه، وهو من سلبني كل ما رغبت في امتلاكه، أنا «ياسر ياسر سعد القليوبي»، عز عليه حتى أن أنفرد باسمي فألصق بي اسمه، كما أورثني قدرًا كبيرًا من وسامته، ونصيبًا مماثلًا -كما يقولون- من طِباعة وخِصاله، ولم يكن قولهم هذا على سبيل المدح!

كان والدي مصرفيًّا مرموقًا، جذب أمي بحُسن الملامح والمظهر، وأبهرها باللباقة وخفة الظل، ورغم أنه يكبرها بثلاثة عشر عامًا تمنته زوجًا، وتحققت أمنيتها، وبعد عامين من لقائهما الأول كانا يستعدان لاستقبالي، وقبل أن أتم عامي الأول جاءتهم طعنة الحياة الغادرة، فانهارت أحلامهم الوردية فوق رأسيهما.

خدعه رؤساؤه فتورَّط في منح قرض ضخم دون تلقي ضمانات كافية، ولم يكن بمقدوره التنصل من المسؤولية المثبتة بعشرات المستندات

المذيلة بتوقيعه، وبعدما هرب الرجل بالمال لم يعد أمامه سوى فعل المثل لتفادي السجن، وأخبر أمي بأن في مثل تلك الحالات يجمِّدون أموال الأسرة بالكامل، وطالبها بالإسراع ببيع مجوهراتها والأرض التي ورثتها عن جدي، ليحفظا المال بأحد الحسابات المصرفية المؤمَّنة في لندن، حيث سيقضيان ما بقي من عمريهما.

رحل أبي، وانتظرت أمي أن تسمع منه أو عنه خبرًا، وطال انتظارها أسابيعًا وشهورًا، وفي النهاية استسلمت للحقيقة التي أدركها الجميع بينما أصرت على أنكارها، ولم تتحمل الاعتراف بها، فأودعت بإحدى المصحات تُعالج من أثر صدمتها النفسية، ثم تحررت من قيد زواجها بحكم قضائي، ورحلت -هي الأخرى- رفقة زوج جديد لإحدى دول الخليج العربي، ولم يلتفت أي منهما لما خلَّفه وراءه!

لم أدرك أصل القصة إلا متأخرًا، أما ما أدركته فور أن بدأت أعي ما حولي كان مدى اختلافي عن الآخرين، ورقة شجر سقطت عن غصنها على قارعة الحياة التي لم أحظَ منها إلا بجِدَّة عجوز تولت رعايتي، وقد أخبرني الأطفال بالمدرسة ذات يوم أنها ليست كذلك، إنما عثرت عليَّ عند باب أحد المساجد، وأني «لقيط».. لم أفهم معنى الكلمة؛ لكني استشعرته من وقعها في نفسي، فأعدتهم لبيوتهم بشفاه مشقوقة وقمصان ممزقة، وعدت للجدة بإخطار استدعاء لولي الأمر، وسؤال دامع عن حقيقة ومعنى ما ذكروه.

جاءت بألف دليل على كذبهم، ولكن بقيت كلمتهم تؤلمني، كانت كذبتهم أقرب لواقعي من الحقيقة، لم تُهدر سنواتي الأولى في عالم الأطفال الوهمي، أرتني الحياة وجهها القبيح مبكرًا، فلم تفزعني حواديت العفاريت وأمنا الغولة، وذقت مرارتها فلم أبكِ لأجل قطع الحلوى.

تخلى عني أبواي، فعلماني بذلك ما يصعب على الآخرين تلقينه لأبنائهم وإن أبقوهم في أحضانهم عمرًا. الدنيا لا تجود على الناس بفضلها، إنما يملكها من يبيع لها روحه ويقدم لها القرابين، ويفوز فقط من يعلم بما يريده وما عليه التضحية به لأجله، كنت أنا قربانهما، فصار الناس أجمعون قرباني، عرفتهم وعاشرتهم وأحببت منهم البعض، مُعتزمًا بشكل مُسبق التخلي عنهم متى تطلَّب الأمر، لانتزع من الدنيا حقي بالحياة التي كان يجب أن تكون.

تعرفت بـ«عمر مالديني» في المدرسة الإعدادية، ذلك الصبي المحسود من الجميع، المُطلَق بالشوارع بلا رقيب أو حسيب، حتى المعلمين كان يتحاشونه تجنبًا لتبجح أهله ولسانهم السليط، وتلك هي الحياة الرغدة لمن هم في أعمارنا، الصدفة وحدها جمعتنا على نفس المقعد، أما تطور علاقتنا فكان قراري الحر، صاحبته بالشوارع ورافقته في ساحات لعب كرة القدم التي بَرع فيها، وحتى جرائمه شاركته إياها! كنت أتولى إشغال البائعين ليسرق لنا بعض أكياس البطاطس أو ثمار التين الشوكي.

انقطع «عمر» عن المدرسة لاحقًا، ولكن علاقتنا لم تنقطع، وتقدم بنا العمر فما عادت الحلوى تسرُّنا أو تكفينا، فصرت أراقب الأجواء حتى ينتهي هو من كسر نوافذ السيارات ونهب محتوياتها. اطمأن «عمر» دومًا لوجودي إلى جانبه وإتقاني دور «الناضورجي» الذي أوكله إليَّ، ولم يدرِ أبدًا بأني كنت مستعدًا دائمًا لإطلاق ساقي للريح مع أول بادرة شك، فقد وضعت تصورًا كاملًا لمستقبلي، ولم يكن السجن -أو «عمر» نفسه- جزءًا منه؛ لكن المال كان ضروري لوضع لمساتي الأخيرة على الصورة التي رسمتها لنفسي بأعين الآخرين.

أنا «ياسر القليوبي» سليل إحدى العائلات العريقة والميسورة، هكذا عرفني طلاب كلية الحقوق، ولم أكن كاذبًا تمامًا، فعائلتي بالفعل تضم العديد من ذوي المناصب المرموقة، غير أن صلتي بأغلبهم محدودة أو منقطعة؛ لكن وجود أحدهم ضمن هيئة التدريس أفادني في تدعيم روايتي، وترددت على مكتبه قاصدًا اكتساب وده وتوطيد علاقتي به، وما كنت أحدد هدفًا إلا وأصيبه.

كانت «هدى سراج» أول من التقيته خلف أسوار الجامعة، ولم تكن حقيقة مشاعرها خفية عني؛ لكنها كانت بمثابة نسختي الأنثوية، لعلها فقط وجدت فيَّ فرصة مناسبة وسُلَّمًا يرتقي بها خطوة نحو طموحها، وسرعان ما كانت ستكتشف الخواء أسفل قشرة الذهب الزائفة، ولهذا رجَّحت كفة «إيناس محمد».

رأيت في «إيناس» براءة الطفل التي سُلبت منِّي قهرًا، والطهارة التي لم أعرفها إلا بنواقضها، كانت جميلة حالمة كأميرات الرسوم المتحركة، أحبتني وأحببت حبها لي، أسرتني نظرتها المنبهرة، وإنصاتها المصدق لكل كلمة تُقال، فتقاربنا، وأبقيتها على المسافة التي أردت، والتي لا أضطر معها لمصارحتها بما كان في ماضيَّ أو تُمكنها من كشفه.

نلت درجة ليسانس الحقوق بتقدير جيد جدًّا، وكانت سعادة جدتي بالغة، أدت رسالتها، وأزاحت حِملي الهائل عن كاهلها، وقالت إن فرحتها لن تكتمل حتى تشهد ليلة عُرسي، وكنت أعرف أخرى تشاركها ذات الأمنية والرغبة؛ لكن كان على كلتيهما الانتظار، صحيح أن «نبيل القليوبي» قِبَل انضمامي لطاقم المتدربين في مكتبه، وهذا يفوق أحلام أكثر طلاب دفعتي تفاؤلًا؛ لكنه إليَّ مجرد بداية، هم اختاروا سلك طريق

ممتد بطول الأرض، واخترت أنا العروج إلى السماء، وامتلاك نجومها في قبضتي.

أردت مستقبلًا ناصعًا، فتوجب عليَّ نفض نعليَّ من غبار الماضي وأنا أخطو باتجاهه، فلفظت «عمر مالديني» خارج دائرتي، كان أحمق، تمادى في رعونته حتى صار وجهًا مألوفًا بأقسام الشرطة، وضيفًا دائمًا في زنزانات الحجز، وعارًا يصِمُ كل من يقترب منه، توهم أني قد أنغمس في مستنقع أشقياء الشوارع الخلفية، وأصبح منقذًا قانونيًّا لهم، ولم يكن هذا خيارًا متاحًا.

لكن في النهاية ليس كل ما بالماضي يمكن أن يُترك به، وبطريقة ما شقَّت «هدى سراج» طريقها إلى حاضري، ولم أعلم آنذاك أنها سوف تواصل مسارها حتى تبلغ مستقبلي أيضًا. لم أساعدها في مسعاها إلا أنها امتلكت مواهبها الخاصة التي أقنعت العجوز بقبولها بين المتدربين في مكتبه، فصرت وإياها زملاء عمل، ومعرفتنا السابقة فرضت علينا التقارب، خاصة أننا غريبان وسط غابة من الخبثاء المتصارعين على تملق الرجل الكبير.

كانت «هدى» نحلة بحق، لا تمل التحليق، ولا تتوقف عن الطنين، ولا تتردد في لدغ كل يد تقترب منها، تجوب ساحات المحاكم وراء «نبيل القليوبي»، ولا تُرى إلا مدفونة الرأس بملفات القضايا، كنت أتساءل أحيانًا إن كان لديها وقت لتأكل وتشرب وتنام، ولكن تلك الاحتياجات الأساسية لم تكن تعنيها بقدر حاجتها لمعرفة قوانين اللعبة وإجادة ممارستها، ولم يتطلب الأمر سوى بضعة أشهر لتبلغ مستوى الاحتراف، وتدرك أن الملاعب وُجدت للاستعراض، أما الفوز الحقيقي فيُحرز في

الغرف الخلفية، ولهذا دعتني للقاء الدكتور «فتحي فايق»، وكنت أعرف صاحب الاسم، فأيقنت بأن النحلة قررت الإجهاز على ذكرها.

ورد اسم «فتحي فايق» عشرات المرات بأوراق القضية التي كُلِّفت بتوليها، وذلك بصفته خصمًا رئيسيًّا لموكلتنا، دخلت المسكينة إلى مشفاه لتُزيل حصوة من الكلى فغادرتها بدون الكُلية نفسها، ولم تكن المفقودة تلك التي بها الحصوة! جاء الرجل بعرض واضح ومباشر ومحدد، عشرون ألف جنيه نقدًا لأضيِّع سهوًا أحد المستندات، وكلانا كان يعلم أن سُمعة الجراح المرموق لا تساوي تلك الملاليم، وأن مثل هذه الفرص لا تأتي المرء كثيرًا، فانتهت مفاوضاتنا إلى إضافة صفر للرقم المعروض.

فكرت في إضرام النيران بخزانة الملفات، أو أن أخفيه ببساطة وأدع الشكوك تطول كل موجود بالمكتب، وأخيرًا اهتديت لفكرة قد تكون الأذكى، وقررت استبدال نسخة مزورة بالتقرير الطبي، لأعيد بذلك الملف كاملًا مكتملًا لـ«نبيل»، وأمنح محامي الخصم مفتاح الطعن في كل ما جاء به. بينما أنا عالق وسط الصراع الملتهب الدائر في عقلي، أفصحت «إيناس» لأمها عن سرنا، ثم جاءت تطالبني بالوفاء بوعدي، تخيَّرت التوقيت الأسوأ لتثير غضبي فنعتُّها بـ«الحرباء»، واتهمتها بمحاولة إرغامي على التقدم لخطبتها، وكان هذا فراق بيننا.

راقت فكرتي الأخيرة لـ«فتحي فايق»، فأرسل إليَّ «محروس» -الممرض ومساعده الأمين- الذي تولى إحضار التقرير المزيف، وسلَّمته النسخة الأصلية، فوضع بين يدي بذرة الثروة التي طالما راودتني في أحلام نومي ويقظتي. كان ذلك المظروف الأصفر مبهرًا ومهيبًا، متخمًا بألف ورقة نقدية لم تمس أناملي أنعم منها يومًا، ولم أشم أذكى من رائحة

الحبر الذي طُبعت به، ولا أخالني عشت أسعد من تلك اللحظة، أو لعلي لم أعش قبلها.

تبدل كل شيء لنقيضه في ثانية واحدة، حتى نحيب «إيناس» صار طربًا، ذكرني بأن المظهر الاجتماعي ضرورة تفرضها الحياة التي أعد لها، فلم أجد مانعًا من الاستجابة لها، ما دامت –ولو مؤقتًا– غير طامعة بأكثر من الخِطبة، ولكن حين تشهر سكينك أمام الثور لا بد أن تكون ضربتك ذابحة، فجرحه لن يزيده إلا هياجًا، ولن يستسلم لموته قبل أن يُنشب قرنيه وسط أضلعك، وهذا ما لم أحتسب له، يوم أن أعمتني حماقتي وجرحت كبرياء «نبيل القليوبي»!

كنت واثقًا أني لم أدع ثمة دليل ورائي؛ لكن من قال إنه يحتاجه، كان الظن وحده كافيًا ليصب عليَّ لعناته، ويزيحني بطرف حذائه خارج عالم المحاماة بأكمله. كانت «هدى» مُقربة منه، فأقنعته بأن أي اتهام رسمي سوف ينال من سمعة المكتب قبل أي شيء، فأرجعته عما كان ينويه، واكتفى ببضعة مكالمات أوصد بها كل باب في وجهي.

تبدَّل كل شيء لنقيضه مرة أخرى، وأيضًا في ثانية واحدة، كأنما بعثني القدر للحياة فقط ليُذيقني عذاب الموت! انعزلت وسط أطلال حلم انهار يوم أن وضعت في بنائه أول حجر، وتخلفت متعمدًا عن موعدي مع والد «إيناس»، فالحسرة كانت متأججة فيَّ، تلتهمني من الداخل إلى الخارج، تُفحم عظامي وتذيب شحومي، فلم أخَل أني مُغادر محبسي هذا حيًّا.

جاءتني «هدى» بعد أسابيع، ووقفت على عتبة بابي تتأمل تلال أعقاب السجائر، وسألتني إن كنت أريد الانتحار؟ فأجبتها بأن كل ما

أردته عجزت عن تحقيقه، حتى هذا! حدثتها عن «إيناس» فتطوعت لزيارتها وتوضيح الأمور لها، وقد أوفت بالوعد؛ لكن جاءت خطوتها متأخرة، وكان قد ظهر منافس آخر على الساحة، وهزمني في معركة لم أواجهه فيها، ولم أنسحب منها، وصار عصفوري في قفص غيري، وكان قفصه ذهبًا خالصًا، فلم أُلقِ عليها لومًا، فما أُرغمت هي على فعله كنت لأفعله بإرادة كاملة إن واتتني الفرصة.

سارعت «هدى» بإظهار حقيقة نيَّاتها وسر توددها المفاجئ، وكشفت عن خطتها لاستكمال ما بدأناه، والذي تناولت هي شهده وتجرعت وحدي مرارته، ورغم ذلك لم يكن لدي بديل عن الموافقة، فقالت إننا لن نعيد ارتكاب حماقاتنا السابقة، إنما فقط سوف نفسد خدعة الساحر بفضح سرها.

امتلكت «هدى» المعلومات الدقيقة والمُفصلة؛ لكنها احتاجت لوسيط ينقلها دون أن تضطر للكشف عن نفسها، فكنت حمامتها الزاجلة، أجتمع بالمحامين الخصوم، وأعرض عليهم كل ما سيجيء بمذكرات «نبيل القليوبي» وما سوف يعتمد عليه في مرافعاته من قرائن وأسانيد، فيحتاطون منه ويهاجمون ثغرات حصنه.

تجاهلت «هدى» -عن عمد- ذكر كيفية وصولها لتلك الأسرار؛ لكن لم يحتج الأمر لكثير من الفطنة، فالرجال أمثال «نبيل» لا يتخلون عن حذرهم إلا فوق الفراش، إما في غمرة الانتشاء، وإما على سبيل التباهي الذكوري المقيت، وكان واضحًا للجميع منذ ضمها لفريقه أنها تسيل لعابه، ولكني لم أعرف إن كانا قد تزوجا عرفيًّا أم جرت الأمور بينهما بشكل أسهل، ولم أهتم بالمعرفة.

تمادينا -أنا وهدى- في لعبتنا حينًا، اعتقدنا أننا نقطف ثمار الشجرة، بينما كنا -دون دراية- نقطع جذعها، قد تلاعبنا بالحاوي حتى فرغ جرابه من الحِيَل، فانفض الجمع من حوله، ولم يبقَ منه وله إلا صيت زمن مضى كان فيه مبهرًا، أما نحن فبقي لنا ما جمعناه من مال، وكان قدرًا لا بأس به.

آمن كلانا بالمثل القائل: «القرش صياد»، فقررنا استغلال حصيلتنا في الدخول إلى عالم التجارة، ولاجتناب علامات الاستفهام والتعجب العديدة اتفقنا على افتتاح مكتب صغير لخدمات الكمبيوتر، نمهد به الطريق نحو تأسيس شركتنا الخاصة باستيراد وتوريد أجهزة وملحقات الحواسيب وآلات تصوير المستندات، ولمزيد من الحرص والحذر لم نتملَّك عقارًا، واتخذنا من شقة عائلة جدتي المُهملة مقرًّا مؤقتًا، وأوكلت «هدى» إليَّ أمور الإدارة، لتنأى بنفسها عن الصورة لحين إيجاد وسيلة تحررها من قبضة العجوز الماكر دون إثارة شكوكه.

تقاسمت مع «هدى» كل شيء، المال والحلم ومكتب الحاسب الآلي والشركة المزعومة، ولحظات سعادة من النوع الذي يعلق بذاكرة المرء ولو عاش ألف عام! كانت لا تزال تحمل لي في داخلها شيئًا من إعجاب الماضي، وكان لها سحر يغوي أتقى القلوب، مُهرة غراء جامحة، استحقت فارسًا لم يغزُ الشَّيب رأسه، ولا ترتعش قبضته حول لجامها، ولا تطقطق فقرات ظهره فوق صهوتها.

اعتادت «هدى» الاعتقاد بأن جزءًا من اتفاقي السابق معها كانت غايته الثأر من «نبيل القليوبي»؛ لكنه لم يكن، إنما فعلته لأجل المال، أما انتقامي فكان هي! لا شيء أقسى على الرجل -أي رجل- من ضياع امرأة ظن أنها ملك يديه، وإن لم تكن بنظره إلا عاهرة، فمجرد الشعور بتفضيلها لآخر عليه كافٍ لهدمه حجرًا حجرًا ولو كان جبلًا.

أردت أن يعلم «نبيل القليوبي» بالأمر، وفكَّرت في إرسال مقطع مصوَّر إلى هاتفه لأريه غروره وكبرياءه وغطرسته يتهدَّمون بين سيقاني؛ لكني كنت قد اكتفيت من حماقات اندفاعي، وما جرى بالسابق علَّمني فنون الصبر، فما عدت أشعل حريقًا دون ضمان ألا تمسني ناره.

أهاج كل هذا رياح ذكرياتي، فاستَعَرَت بها ناري الموقدة تحت ركام رماد الأيام والأحلام، أنا الآخر فقدت امرأة فأصابني الحجر الذي أردت رمي «نبيل» به، فوجدتني أتصفح حسابها على «Facebook»، ربما هذا ما يدعونه الحنين، أو لعله كان فضولًا؛ لكن الحساب الإلكتروني لم يشفِ أيًّا منهما، فقد كان مُهملًا ولم يشهد أي نشاط لشهور طويلة، حتى أنها لم تحذفني من قائمة الأصدقاء، وقد أحببت هذا.

ذكَّرني تفقد حسابها بمدى هوسها بأمور التجسس والاختراق، وتخوفها من كل ما يتعلق بالإنترنت، وأني كنت من دَشَّن هذا الحساب لأجلها، ولحسن الحظ لم تستبدل كلمة المرور، وكما توقعت قد ربطته برقم هاتفها الجديد... وماذا بعد؟ قفز السؤال المُحَيِّر إلى رأسي حين لم يعد يفصلني عن مَدِّ حبل الوصال سوى لمس شاشة هاتفي؛ لكن ماذا إن رفضت التقاطه؟ وماذا إن تشبثت به؟! لا مفر من الاستسلام للحقيقة، والتسليم بأن رفضها لن يغير من حقيقتها شيئًا.

حسمت أمري وأعدت دفن «إيناس» بأقصى أركان ذاكرتي، لولا أن إشعارات «Facebook» نبهتني إلى اقتراب عيد ميلادها، ولم يبدُ لي أن الأمر مصادفة، كانت إشارة قدرية تلقيتها فاتبعتها إلى المجهول، وأعددت لعودة دراماتيكية مُبهرة، انتظرت اليوم الموعود، وباللحظة المناسبة صعدت للمسرح وأُزيح عني الستار، وقدمت عرضي برسالة

من سطرين، وألف صفحة من المعاني المُستترة، وبعد دقائق صَدَح هاتفي بتصفيق حار لجمهور مخلص ومشتاق.

طالت أحاديثنا الهاتفية حينًا، ثم دعوتها للقاء بمقر مكتب الحاسب الآلي، متغاضيًا عن كشف هوية من يشاركني إياه، وهناك تخطينا كل الحدود الفاصلة بيننا، ووجدنا أنفسنا ننصهر في جسد واحد، دون وسوسة أو إيعاز من شياطين، كانت لحظة كلانا تمناها، وتخيلها، وربما دبر لها في نفسه قبل المجيء ولو أنكر هذا!

«ماتت أمك».. هكذا بلغني النبأ، بتلك البساطة، رحلت غريبة عني في بلاد غريبة عنها، ولم أعرف حقيقة شعوري تجاه الأمر، ربما انتابني شيء من الإشفاق على جدتي وحسب! أخبروني أنها عانت لشهور قبل انقضاء الأجل، يجد البعض سلوانه في معرفة أن الميت قد ارتاح من عذاب المرض؛ لكن جزءًا منِّـي وجد السلوان في مرضها نفسه، تألمت شهورًا لقاء إيلامي عمرًا، حقًّا ليست حياة عادلة.

كنت بائسًا تعسًا، فكرت في إيجاد السكينة في شيء من الجنون وحضن دافئ، فلبيت دعوة «إيناس» والتقيتها في فيلا زوجها وفوق فراشه، ولم تكن لدي رغبة أو بي طاقة للحديث عن الأمر، فلم أعلمها بسبب تراجعي عن رفض اقتراحها أو سر جموحي بتلك الليلة، لم تدرِ أبدًا أي شياطين كنت أطرد من داخلي، وقبل أن يتم انصرافهم عني، قاطع نشوتنا احتداد نباح الكلاب اللعينة.

كَسَت «إيناس» عُريها برداء شفيف على عُجالة، وهرعت إلى الحديقة لتخرسهم، فاستبقها إلى هناك والد زوجها، ووقفت أراقبهم من وراء ستارة الشرفة، لم أسمع حرفًا مما دار بينهما؛ لكن بدا أن العجوز الخرِف

قد تملَّكه الارتياب، ولكسر من الثانية رفع بصره باتجاهي، وبرغم المسافة خال لي أني رأيت بريق الصدمة في عينيه، قبل أن تعاجله «إيناس» بطرحه فوق الأرض.

انطلقتُ إلى «إيناس» بأسرع ما أمكنني، وجئتها باللحظة الحاسمة لأمنع بإشارة من سبابتي أصداء صرختها الفزِعة من زلزلة دنيانا، وللحظات بقينا نتأمل رقعة الدم تتسع ببطء أسفلَ رأس الرجل المُسجى على الأرض، ثم أمرتها بالعودة للداخل لتُعيق الخادمة -إن صَحَت من نومها- بينما أتدبر أنا أمر العجوز.

بعد فترة لم أعِ مداها كنت أسحبه لقلب الحفرة التي أعددتها له في ساحة منزله الخلفَية، وجعلتها عميقة كفاية حتى لا ينبعج سطحها حين ينتفخ، وعندما بدأت في إهالة التراب عليه، لمحت رجفة طفيفة تسري بأنامله؛ لكني كنت قد جاوزت نقطة الرجوع بألف ميل.. تحتم موته، وتحتم أن تظل «إيناس» معتقدة بأنها أماتته، فهويت بالجاروف على جمجمته مرات حتى سمعت صوت تهشم عظامها، وعندها فقط أدركت حقيقة شعوري.. كنت غاضبًا، أنا غاضب على الدوام؛ لكنه بتلك المرة كان أشد، وبلغ أقصى حدوده حتى أني لم أستطع تمييزه.

لم تندم أمي، وما كان يجب أن تموت قبل تلك اللحظة التي عشت أترقبها عمري كله، كان عليها أن تأتي إليَّ زاحفة، وتتذلل وتذرف من عينيها دمًا، كان يجب أن تظل لي أُمًّا ولو مُرغمة، كما سأظل لها ابنًا ولو مُكرهًا.. استوت الأرض تحت قدمي مرة أخرى، فجثوت فوقها يُبلل ترابها دمع انهمر من عيني فجأة، وفعلت ما منعت نفسي عنه منذ أن بلغني الخبر، وتمتمت شفتاي بآيات فاتحة الكتاب، مُطمئنًا إلى أن بعد ما فعلت توًّا لن تجلب كلماتي لها رحمة أو تضيء لها قبرًا.

لم يشكك أحد في صدق الرواية التي لقنتُها لـ«إيناس»، وانهمكوا في البحث عن خائر البدن والعقل الذي ضل سبيله في شوارع العاصمة، وبهذا مَرَّ الأمر بسلام؛ لكن ليس هينًا اكتشاف الإنسان لجوانبه المظلمة، خاصة إن كانت بهذا السواد، غاصت يدي في بركة الدم ونفسي لم تجزع، تملكني الخوف لأيام، ولكن لم يَخِزُني ذلك الشيء الذي يسمونه ضميرًا، تقبلت حقيقتي بسهولة، وهذا هو الأمر المُريع!

أما ما لم يسهل تقبله فهو أن ما جرى كان فقط لأجل امرأة، والدقائق القلائل المُهدرة في قربها، كان لا بد من الحصول على شيء أكبر في المقابل، شيء بحجم حياة «أحمد رزق أحمد رضا»، ذلك الذي جمعني القدر به في غفلة من كلينا، ثم ربط بيننا بصلة دم من نوع خاص، ولكنه مَنَّ عليه بكل ما حرمني إياه، مَلَّكه الثروة واحترام الآخرين و«إيناس»، ووهبه أبًا كريمًا استحق أن ينبش الأرض بحثًا عنه.

تجمعت شذرات أفكاري المبعثرة حين أخبرتني «إيناس» بأمر حملها، واعتقادها بأن الجنين يعود لي، هكذا أعادت قطع الشطرنج ترتيب نفسها فوق الرقعة، ولم يبقَ سوى القيام بحركتي ليُطيح ذلك البيدق الصغير بالملك ووزيره، ويُنصبني وصيًّا على العرش، ولم يحل بيني وبينهم سوى خندق حفرته «إيناس» برفضها التام للفكرة، مُهددة في كل لحظة بالتخلص من ملاكي المنقذ الساكن بأحشائها.

اشتعلت الحرب على جبهة أخرى عندما أطلعتني «هدى» على صور مُلتقطة بهاتفها المحمول لرماد قماش مُحترق، فلعنت عقلي المُهمل الذي هداني للتخلص من ملابس الليلة الموعودة بإحراقها في مقر المكتب، ولعنت البوَّاب الذي يتأخر دومًا في جمع القمامة، ويترك روائحها تجذب أنوف المتطفلين، ولم تدع لي فرصة لاختلاق إحدى قصصي، ومرَّرت

إصبعها على الشاشة لتأتي بصورة نعل حذاء، وكبرتها سبعة أضعاف لتُريني نقطة دم بين تجاويفه، لا أدري كيف التقطتها عيناها؛ لكنها فعلت وجاءت طالبة تفسيرًا.

حان وقت اختبار لأي مدى نتشابه، فابتدأت حديثي بسؤالها: «لِمَ نتكبد عناء صُنع الثروة إن كان بمقدورنا الاستيلاء عليها؟!»، لمعت عيناها، فأجبت السؤال بأن الأمر لا يتطلب سوى وثيقة زواج من «إيناس»، وكنت أعلم أن علاقتنا تسمو فوق اعتبارات الغيرة والامتلاك، قطَّبت حاجبيها فأوضحت أبعاد خطتي، فتجهمت ملامحها وتمنت لو لم تعرف شيئًا عما حدث أو ما يجب حدوثه.

وضعتُ «هدى» أمام خيارين، فضح سري بالمجان أو حمله معي لقاء نصف الغنيمة، فسلكت طريقًا ثالثًا، واختارت كتمانه على أن تنال جانبًا من الخير الذي سوف يَعُم بصفتها زوجتي الأولى، وكان شرطها نافذًا، فعقدنا القران بذات الليلة، وألزمتني بمؤخر صداق من ستة أصفار، أما مهرها فكان فردة حذاء تقودني مباشرة للقاء عشماوي.

«إن أردتَ للأرنب أن يقفز حرِّك الجزرة»، كانت تلك حكمة «هدى»، فاتصلت بـ«أحمد رضا» تطالبه بإبعاد زوجته عن زوجها دون أن تُعطيه اسمًا، أرادت فقط أن تزرع في قلبه الشك الذي حصدته «إيناس»، فجاءتني بعد أيام طالبة النجدة، مستعدة أخيرًا للإصغاء والرضوخ.

أمضيت الأيام التالية في تتبع ضحيتي، ليس الزوج المخدوع، فأنا بشكل ما أسديه معروفًا بإخراجه من الحياة، إنما الضحية كان أخوه «كريم»، طبيب الأسنان، وقد كان روتينيًّا حدَّ الملل، يعيش وحيدًا منذ

انفصاله عن زوجته، يغادر ويرجع يوميًّا في مواعيد محددة، ولا يغير شيئًا من عاداته، حتى المقهى القريب الذي يتردد عليه في منتصف النهار.

أعدت التفكير بالأمر مرة تلو المرة، ولم أصل إلا لذات النتيجة، لا يمكنني القيام بالأمر بنفسي، لم أكن واثقًا من قدرتي على فعل ذلك، واحتجت لُمتمرِّس لا ترتعش أنامله حول النصل، ولا يتردد في شق عنق، فاستدعيت شبحًا من الماضي، والتقيت «عمر مالديني» في منزله دون وسيط أو مكاملة مُسبقة، لتبقى ادعاءاته -حال سقوطه- محض هراء بلا شاهد أو إثبات، وكما توقعت لصديق طفولتي منذ أمد بعيد، غيَّره الزمن للأسوأ، بل أسوأ كثيرًا مما توقعت، فعلمت أنه رَجُلي المناسب، وبمجرد سماعه لرقم خمسين ألف جنيه أظهر استعداده لزهق روح أبيه نفسه؛ لكن لم أكن أرغب في مجرد زهق روح، إنما زهقها كما أريد تمامًا، وكان هذا شرطي لينال الجزء المتبقي من الأجر المتفق عليه.

في تمام الثانية عشرة من الليلة التالية، كان «عمر مالديني» يتجاوز سور الفيلا الخلفي، بينما كنت أنا رابضًا أمام بيت «كريم» لأتأكد من أنه لم يغادر المنزل ولم يلتقِ أي مخلوق قد يشهد لصالحه، وراقبت الساعة وأنا أتخيل «مالديني» يتقدم لداخل الفيلا مستخدمًا المفتاح الذي سهَّلت «إيناس» حصولنا عليه، ويتربص بـ«أحمد» الذي يسهر عادة لساعة متأخرة، ثم يقتاده إلى المكتب أو الصالون، وهناك يجهز عليه بمشرط جراحي.

أخيرًا، يضيف لمستي السحرية بفض العبوة البلاستيكية الصغيرة في منفضة السجائر، ويترك ما بها هدية، ينقصها كارت إهداء لرجال المباحث، لسوف يسعدهم أن يُخَلِّف الجاني عقب سيجارة يحمل لُعابه وبصماته، غير أنه كان قد خَلَّفه فعليًّا بالمقهى، والتقطه أنا بحرص خبير

متفجرات، وأسوأ ما بالأمر كان اضطراري لتدخين واحدة من نفس النوع -غير المفضل- لتُترك مع العُقب كمية الرماد المفترضة، هكذا تُسد ثغرات أروع قصصي وتكتمل تفاصيل أروع لوحاتي!

اكتشاف الجوانب المُظلمة في أنفسنا يغيرنا بأشكال مختلفة، لم تعد «إيناس» الشخص الذي عرفته سنوات، وإن احتفظت بنفس الملامح، لم تستطع تقبل الواقع كما فعلت أنا، فالتهمتها ظُلمتها واعتصرتها، وحين لفظتها للخارج مرة أخرى كانت قد أحالتها مسخًا معتوهًا، ولم يُعنني الأمر ما دامت بطنها تواصل الانتفاخ.

أصبح مصيري مُعلقًا بين روحين، على إحداهما مُفارقة الحياة والأخرى خارجة إليها. لم أعبأ كثيرًا بالأولى، فقد تدبرت أمرها على نحو جيد، أما الثانية فكانت ما يؤرقني، حرمتني وضعية الجنين الشاذة معرفة نوعه، وجنون أمه أرعبني حول مصيره، أتساءل في كل ثانية لأي مدى سوف يصمد وسط مستنقع الكحول والمهدئات في جوفها.

فشلت مِرارًا في منعها عن تلك السموم، وخشيت إجبارها فتفقد ما بقي من اتزانها وتنعق بالسر، وفي لحظة انهارت وانهار معها كل شيء، وأخرجوا الطفل من بين أحشائها مُسممًا بدمائها، كان أنثى، وحتى ميراثها المنقوص لن ننال منه شيئًا، وإدراك ذلك كان أشد ما قاسيته، حين ظننت أن القدر أخيرًا يبتسم، كان فقط يتهكم عليَّ وهو يحيك خدعته الأكبر.

ضجرت من الحياة وباتت ألاعيبها أسخف من أن تُحتمل، فاعترفت بخسارتي، وقررت اللحاق بتلك الوليدة على الجانب الآخر، لولا اتصال «هدى» باللحظة الفارقة لتخبرني بأنها قد تولت الأمر. استدعت هي

أشباح الماضي تلك المرة، وكان شبحها الممرض «محروس»، عَلِمت بأن من يسهل عليه تناقل الأعضاء بين الأبدان قد يجيء بها وهي لا تزال تخفق في جسد واحد، ولمعرفتنا المُسبقة قبل تقاضي نصف ما طلب بشكل مؤقت، وفي المقابل سلَّمنا رضيعًا ذكرًا، دون أن يعلم بأن ذلك الرضيع نفسه هو من سيُسدد المتبقي من ثمن بيعه.

أكد «محروس» أن الرضيع لإحدى فتيات الشوارع، وليس هناك من يبحث عنه أو يتحرى أمره، وحتى «إيناس» لم نُعلمها بالأمر، فآمنت بأنه طفلها، وسمَّته «زياد»، وامتلك «زياد» هذا في كفه الدقيق مفاتيح الجنة، التي دخلتها بعقد قراني على أمه التي انقضت عِدَّتها حين أخرجته للحياة كما تعتقد.

أقام الزمان ميزان عدله أخيرًا، ونلت من الحياة ما أردته وما استحققته، ثروة طائلة تدار بيدي واسم «إيناس» وولدها، تلك المخبولة الهائمة في عالم هواجسها، والتي لم أعد أبغض بالحياة أكثر منها، وكلما عُدت بالذاكرة يصعب عليَّ تصديق أني كدت في لحظة أنهي حياتي، وأنها كانت السبب، ولم يُبقها بالقرب منِّي سوى تعقيدات الوصاية القانونية التي تضع أغلب الثروة في قبضتها رغمًا عنها وعني.

استقرت الأوضاع على هذا النحو لفترة، حتى قادها شيء أجهله إلى فيلا زوجها الأول، التي تخلت عنها رهبةً مما يرقد في ساحتها الخلفية، وهناك اكتشفت زواجي من «هدى»، وكان هذا المسمار الأخير في نعش علاقتنا، التي انتهت يوم أن قتلت طفلتي، هي على الأغلب كانت كذلك، وغادرت تلك الليلة هائجة، تهلل باللعنات وتتوعد بالهلاك.

كانت «هدى» مُطمئنة لرَدَّة فعلها الطبيعية، أما أنا فكنت قد سئمت جنونها، وبعدما شهدته ما كانت لترتضي التوقيع على أي مستند آخر، أو لعلها تقرر عزلي من الإدارة، فكان من الحكمة الاكتفاء بما اختزنته لنفسي، ووضع حَدٍّ لتلك الفوضى الضاربة في حياتي، ولحسن الحظ أن مسكننا الجديد كان فيلا، ولها أيضًا ساحة خلفية!

عدت إلى الفيلا في ساعة متأخرة، ورغم ذلك لم تكن موجودة كعادتها، فأذنت لجليسة الطفل والخادمة والبواب بالانصراف، ثم جلست بالبهو أترقب وصولها، أحرق لفائف تبغي بشراهة، ومع دخانها بدأت شياطيني تبعث أفكارها برأسي، قد يكون ذبحها ودفنها حَلًّا أسرع؛ لكني أحتاج حلًّا أذكى، ربما جرعة زائدة من مخدراتها تفي بالغرض، أو غرقها تحت تأثيرها في حمام السباحة.

قاطع استرسال أفكاري صوت محرك سيارة يقترب، وخرجت لألقي نظرة وكلمة وداع، فوجدت ضابطًا على رأس قوة من الشرطة يتقدمون عبر البوابة التي كنت تركتها مفتوحة على مصراعيها، وسألني إن كنت «ياسر القليوبي»، وعلى خلاف العادة لم أسأل عما يريد أو أطالبه بإشهار إذن النيابة، فقد كانت الإجابات كلها واضحة ومعلومة، تلك الحقيرة للمرة الأولى في حياتها -وبالتأكيد الأخيرة- استبقتني بخطوة.

انتابتني نوبة ضحك هستيري منعتني من إجابته، ووسط ذهول نظراتهم ارتميت فوق الأرض، أحدق بالسماء المُظلمة، وجسدي يُرجرج بعنف مع تعالي ضحكاتي الهستيرية، وأنا أضرب فخذي براحتَي يدي كقرد ثمل.

ابتسامة القدر لم تكن تهكمًا، كانت بداية لسخريته المُجلجلة، تركني أغزل خيوط الحياة التي تمنيت خيطًا خيطًا، لأهديها إلى طفل شوارع، وقد فعلت كل مستحيل لأضمن حقه بها، حتى صرت أنا نفسي أعجز عن إثبات العكس، ومنحته معها اسم أب قتيل وأُمٍّ هي قاتلته!

لعلِّي بما فعلت ودون قصد قد منحته الحياة.. أو لعلَّي سلبتها منه، وكتبت السطر الأول بقصة شيطان آخر.. سيكملها هو...

ولربما يرويها ذات يوم...

لكني.. لن أكون حاضرًا لسماعها.

❖❖ ❖❖ ❖❖

[12]

إلا إذا... إلا أن...

«16، 15، 14، 13... 0... 5، 6، 7، 8...».

أمضيت سنينًا أراقب الأرقام تتقلب صعودًا ونزولًا على تلك الشاشة الصغيرة، أتوقع في كل ثانية أن تتسارع فجأة، ويعقبها ارتطام مدوٍّ ينتهي به كل شيء؛ لكن ذلك لم يحدث، وواصلت تقلبها الرتيب، ومعه ضاع العمر داخل ذلك الصندوق المعدني المُعلق بين السماء والأرض!

كنت بأوائل الثلاثينات حين تم قبولي لتلك الوظيفة، عامل مصعد بأحد المستشفيات الاستثمارية الكبرى في مدينة المنصورة، وظيفة تستمد أهميتها في الأساس من هَواني، مؤهلي الوحيد لشغلها هو أن طعامي ومسكني وملبسي وعلاجي وتعليم أبنائي يقل عن تكلفة إصلاح تلك الآلة إن تركوها للناس يتكدسون داخلها ويعبثون بأزرارها ويتركون توقيعاتهم للذكرى على الجدران.

أنا مجرد واحد من الملايين التائهين وسط زحام الحياة، من ذلك النوع الذي لا يُنتبه إليه حيًّا ولا يُذكر ميتًا، حتى اسمي ليس به شيء مميز، يتشاركه كثيرون ولو بترتيب مختلف «محمد أحمد محمود»، هذا المدَوَّن بالأوراق الرسمية؛ لكنني عُرفت طيلة حياتي باسم «محمد عواد»، اللقب الذي أُلصق بي وبإخوتي وأبناء عمومتي، يُقال إن جدنا الأكبر كان من

أعيان بلدتنا، وإنه باع فدادين أرضه وصَنع من أوراق ثمنها عناقيد زَيَّن بها أعناق راقصات الموالد وفرشها تحت أقدامهن، فأطلقوا عليه اسم «عواد» سخرية من حاله، استنادًا للفلكلور الشعبي الموروث «عواد باع أرضه.. شوفوا طوله وعرضه».

مات جدي ولم يُوَرِّث أبناءه ونحن من بعدهم سوى ذلك الاسم، الذي ظل يذكره الناس رغم نسيانهم القصة وراءه، فلم يعد يزعجنا أن نُنادى به، ربما لأننا جئنا في زمن كل شيء فيه مُباح بيعه، وبأبخس الأثمان. أسمع مثل الآخرين أن كشف ستر البيت على الإنترنت صار يجلب أموالًا، وهذا أمر يصعب على أمثالي فهمه، والمشاهير كل رمضان يتاجرون بالفضائح على كبرى الشاشات، وينوحون حسرة وندمًا، وشُيَّاب يهينون وقارهم لقاء دولارات برامج المقالب، وحتى الدين لم يعد يتطلب الكسب منه رأس مال سوى لحية وعِمامة، مع عروض خاصة من وعود المغفرة وصكوك الجنة، أما الأتعس حظًّا وحالًا فهم من لا يملكون بالحياة سوى أنفسهم، فيقتطعون من أحشائهم أجزاءً لسد الجوع.

زمن يُعلن فيه عن فك الأعمال وإبطال السحر على التلفاز، والمخدرات عرفت خدمات التوصيل للمنازل، والذي كاد أن يكون رسولًا أصبح وحشًا للكيمياء، وأسطورة للفيزياء، وجحشًا للأحياء، والرشاوى صار لها بند «إكراميات» في إقرارات الضرائب. لم ينجُ في ذلك السوق المفتوح إلا الضمائر والنفوس.. فلا بضائع تُباع بعد فسادها!

عشت حياة مشروطة، عمرًا من الآمال المُعلقة بالأسباب التي لا تأتي، محصورًا بين «إلا إذا... إلا أن...» آمنت بأن حالي لن يستقيم إلا إذا أتممت تعليمي، إلا أن أبي كان عاملًا بسيطًا بهيئة السكة الحديد يرعى أربعة صبيان وبنتين. ما كان الحال ليتحسن إلا إذا اقتنصت فرصة السفر،

إلا أني كنت آخِر المطلوبين للتجنيد ضمن تسلسل أخوتي، وأيقنت بأني لن أسعد إلا إذا تزوجت من «فاتن»، إلا أن أمي رغبت في تزويجي لـ«عبير» ابنة أختها. علمت أني لن أجني مالًا وفيرًا إلا إذا واصلت العمل في ورشة الخراطة، إلا أن فكرة الراتب الثابت والتأمينات الاجتماعية كانت مغرية، فانتهى بي الحال مُكفَّنًا في الزيِّ الموحَّد لعمال المستشفى داخل ذلك التابوت المُعلَّق!

لا أملك بهذا العمل المقيت شيئًا أكثر من الوقت، لدي مُتسع لأسترجع شريط حياتي كاملًا مُفصلًا في كل يوم، وأفكر كيف كانت ستكون الحياة لو أن «إلا إذا» واحدة لم تَلِها «إلا أن». أتذكر دومًا ذلك الفيلم الأجنبي الذي يروي قصة بطل له نسخ عديدة يعيشون حيوات مختلفة، لعل لي نسخة عائدة الآن من الخليج بجيب منتفخ ولسان ملتوٍ، وربما هناك آخر يرجع كل مساء إلى «فاتن» فتنسيه هم يومه بوجهها الباش وكلامها اللين. اختيار واحد كان كفيلًا بتغيير مسار الحياة بأكملها، ومن بين كل المسارات تخيرت نسختي الأعوج الأشد وعورة.

كلما توقف المصعد بالطابق الخاص بالإدارة، تخيلت نفسي أغادره إلى مكتب رئيسي عَكِر الوجه والمزاج، فألعن أسلافه وأبصق بوجهه، ثم أهرع إلى الخارج غير مُكترث، وأرجع لمهنة الخِراطة، وبعد سنوات -تطول أو تقصر- أفتتح ورشتي الخاصة، لن أستعيد مسار حياتي المُفترض إلا إذا جرأت على ذلك، إلا أن أنامل الفنان التي كنت أملكها قد تيبَّست فما عادت تجيد إلا نقر الأزرار.

أيام تمر، لا فرق فيها بين جمعة وثلاثاء إلا الصلاة وخلاء الشوارع عند الظهيرة، راكدة كسطح مستنقع قارب الجفاف فانكشف طينه وفاح عفنه، يسمون ذلك استقرارًا، وأربعة أرواح مُعلقات بالعنق يقولون

عنهم نِعْمات تأتي بأرزاقها، بلغت كبراهن عامها السابع عشر ولا زلت أنتظر، وشكوى لا تنقطع وهمٌّ لا يزول، وهذا ما يطلقون عليه البطر والنكران.

هكذا هم البشر إن سمعوا لك أنينًا ذكَّروك بأيوب، وإن لم تطق صبره أخبروك كيف كان جزاء يونس، وإن اقترب هلاكك غمُّوا أعينهم ووضعوا أصابعهم في آذانهم، ولوجدتهم جميعًا قوم إبراهيم! اجتمع أهل قريتي قبل أسبوع بمنزل أحد أكابرهم، أقاموا المحكمة ونصَبوا أنفسهم قضاة ليفصلوا بيني وبين «حبشي المدبولي»، الذي جاءهم شاكيًا تأخري عن سداد سبعة آلاف جنيه كنت قد اقترضتهم قبل شهرين، فهاجوا، وارتجت جدران القاعة بتهليلاتهم الممتدحة عطاء الرجل ورقة قلبه، يبشرونه بالبركة في الدنيا وعظيم الأجر في الآخرة، وتسابقت ألسنتهم إلى لعن كل خائن للعهد ناكر للمعروف، وكنت أنا المقصود.

انتظرت حتى هدأ ضجيجهم، ثم رويت لهم بداية القصة التي تجاوزها «حبشي» ونهايتها التي لم يخبرها لأحد. قبل شهرين انزلقت «أم العيال» على أرضية المطبخ، وكان لا بد لها من إجراء جراحة عاجلة بمفصل الفخذ، وكنت قد بلغت الحد الأقصى المسموح لسُلف الراتب، وما من أحد أعرفه إلا وأنا مدين له بالمال، فلم يكن أمامي سوى باب «حبشي المدبولي» لأطرقه، وحصلت منه على خمسة آلاف جنيه، أما الألفان الآخران فهما فائدة فرضها -رجل البر والتقوى- حين علم بضائقتي، وأن الرفض ليس خيارًا متاحًا ولو ضاعفها أضعافًا.

مُحِيَت من عقولهم كل آيات تحريم الربا، وقالوا إن هذا تعويض عادل عن فترة ركود المال، وإن فعل الرجل يستحق الشكر والثناء، فانتقلت لنصف روايتي الثاني والذي كان قبل أيام، حين جاء «حبشي المدبولي»

لبيتي فاستقبلته استقبال العبد لسيده، وجلست صاغرًا بين يديه أرتب داخل عقلي كل عبارات الأسف والذل، لأستجلب رحمته بإرضاء غروره.

ارتسمت على شفتيه ابتسامة ود مريبة، ولمعت عيناه ببريق ماكر، ووضع أمامي مثل المبلغ المُقترض، ولم يجد مني سوى عيون مُتسعة وفك مُدلَّى ببلاهة، وعقل مشدوه ينتظر فكَّ الطلسم الذي لم يتوقعه، ثوانٍ أخرى وبدأ بإلقاء كلام أشبه بتعويذة غامضة تعد بحل المشاكل وحَمل الأعباء في طرفة عين، ثم صار الأمر أكثر جلاءً، فعلمت أن هذا المال جزاء ما سمَّاه مهر ابنتي الكبرى التي جاء يفتح لها ولنا طاقة القدر، بتزويجها لـ«رجل عربي»، هكذا عَرَّفه بلا اسم.

قاطعتني تهليلاتهم المباركة، ودعواتهم بتمام الخير، ووعظهم إياي من سد باب الفرج، وهم عالمون بالسر وما وراء القصد، يدرون من أين جاء «حبشي» بماله؛ لكن جميعهم مدوا يدهم له يومًا، ومنهم من عجز عن السداد وتجرع سُم الكأس الذي جاء يقدمه لي، فنُكست الرؤوس في حضرته، وأُخرست الأصوات عن ذكره بسوء. لتلك البلدة ألف قصة لألف جرح ما زال ينزف.

يدري الجميع بالسبب وراء إشعال هاتين الشقيقتين للنار في نفسيهما، ويعلمون من أين جاء الوليد الذي وُجِد وسط الزراعات، وأرواح تُجهض شهريًّا داخل عيادات خفية، تُخرجها أبدان فتيات هزيلة يلتهمها المرض ببطء، أسرار علانية، ولكنها تبقى أسرارًا ما دامت العيون تراها وتسكت عنها الألسنة.

أَلِفت الأنوف عطن الدنس ونجس الأعمال، فما عاد يؤلم النفوس سوى طاهر قائم الرأس، لا تريد بينها من يذكرها بأن قول «لا» كان

متاحًا حين ارتضت «نعم»! يشهد الله أني لم أسعَ يومًا إلى أن أصير بطلًا، ولا أصلح أن أكون، إنما كنت فقط أضعف من أن أستسلم مثلهم، غض الطرف وصَمُّ الآذان والتظاهر بأن الأمور بخير، كلها قدرات خاصة لا أملكها ولا أقوى عليها.

أنا الرجل الذي أهدر كل فرصة في حياته خشية الندم، فلم يندم إلا على خشيته، ولم يعد بوسعه احتمال المزيد، فرفعت راية العصيان، ورفضت تقديم ابنتي لذلك الغريب، ليوقِّع عقد زواجها العرفي -إن كان هو المُوقِّع- مع عقد استئجار شقته الفاخرة، لتؤنس لياليه هي وأخريات فترة إجازته، ثم يتركهن جزءًا من الفوضى التي يخلِّفها وراءه، وينسى أمرهن كما ينسى سحب طارد الحَمَّام بعد تغوطه، واثقًا بأن هناك دومًا من ينظف قاذوراته طالما يلقي «البقشيش» المناسب.

أيقنت بأن «حبشي المدبولي» سينتقم، وسيتفنن في انتقامه، ويُعجِّل به قدر ما استطاع، ليس ليسترد ماله، فلو علم أني قادر على سداده ربما ما كان أقرضني إياه، إنما ليؤكد للجميع أنهم فعلوا الصواب حين انصاعوا ورضخوا، وأن استسلامهم كان الأصلح والأسلم لعائلاتهم.

علمت دومًا أن أسوأ ما جرى لأبنائي أني كنت لهم أبًا، ولعل أفضل ما أقدمه لهم هو الرحيل، لم أقسُ على أيهم يومًا، لا أذكر أني صفعت ولدًا أو زعقت بوجه بنت، ولا أدري أيضًا إن كنت حنونًا بالقدر الكافي، المؤكد أني لم أضرهم وكذا لم أنفعهم، أنا مجرد قارب قديم، مكسور المجدافين، مهترئ الشراع، يحملهم وسط بحر الحياة، وقفزهم منه يزيد فرصهم في بلوغ البر.

غادرت مجلس الشُيَّاب العُيَّاب مزهوًّا بتمردي، منتشيًا بالرفض. لجريان كلمة «لا» على اللسان مذاق خاص ولذة غريبة، ولذلك هي دومًا باهظة الثمن. عدت لركودي داخل الصندوق المعدني المُدلَّى بالفراغ، أملأ حمولته إلى حدها الأقصى بالأسفل، وأفرغها تدريجيًّا في كل طابق، ثم أكرر الأمر مرة تلو المرة، مواصلًا حياة قتلها الملل سلفًا، أترقب الزلزال المحتوم الذي سوف يضربها بأي لحظة، ويجعل عاليها سافلها، وآمنت في داخلي بأن ذلك هو الحق والعدل، فحين مددت يدي طلبًا للمال كنت أعلم بأن إرجاعه لن يكون سهلًا إن لم يكن مستحيلًا.

أتم المصعد دورته للمرة العشرين أو أكثر، وانفرج بابه كاشفًا عن رئيس الأمن بالمبنى، وخلفه نقيب شرطة لا يُحيد بصره عني، فأومأت برأسي متفهمًا، وغادرت بهدوء محققًا مبتغاهم في اجتناب «الشوشرة» حرصًا على سمعة المستشفى.

أُحكمت حلقة الأصفاد حول رسغي لتمنعني من محاولة هروب لا أنتويها، وصعدت طواعية إلى صندوق سيارة الشرطة، وعبره رأيت الحياة التي كرهتها وألفتها سنينًا تتضاءل وتتباعد، وتضيع ملامحها مع التواءات الطرق، بالنهاية لم تكن مستقرة كما ظننت، ولا دائمة كما أملت!

غريزيًّا بدأت التفكير في الحياة المقبلة، أحاول احتساب مدة السجن المتوقعة جراء ذنب لن أنكره، ولن أستطيع إن أردت، والأهم من طول المدة كيف سأمضيها وسط الأشقياء وأراذل البشر، وأنا الذي لم يُجِدْ يومًا سوى اجتناب المشاكل، ويبدو أن حتى هذا لم أُجِدْه كفاية؛ لكن الباعث على الأمل أن من سألقاهم خلف أسوار السجن لن يكونوا أسوأ ممن لاقيتهم خارجه.

اختلفت كل الحسابات مع أول سؤال وُجِه إليَّ، فلم يعد الأمر يتعلق ببضع سنوات داخل زنزانة عفنة، صار عليَّ إنكار الجُرم لسبب وجيه، أني لم أرتكبه! وجدوا «حبشي المدبولي» داخل مسكنه وقد صُفِّي دمه بست طعنات، ولم يترك الفاعل أي شيء قد يدل عليه، ولكن كشفه ما لم يتركه، كسر قفل الصندوق الصغير المُخبأ في خزانة ملابسه، وقالت ابنته إنه كان يُخصصه لحفظ أوراقه، بما في ذلك إثباتات ما له من مال لدى الغير، وكان ذلك الشيء الوحيد المنقوص من محتوياته.

من قتل «حبشي»؟! سؤال جنوني، فكل من عرفه تمنى موته، إما ليتفادى الفخ الذي ينصبه، أو ليشفي غلًّا ملأه بعد ما وقع به؛ لكن لن يدور أيهم بالشوارع ويصيح: «أنا كنت أدين له بالمال»، أنا فقط من فُضِح أمره على الملأ، ولدي كل سبب في الدنيا يجعل الخلاص منه أكبر الأماني.

تمسكت بالإنكار، وأقسمت وهللت وصرخت، ولم يكن أيٌّ من هذا كافيًا ليحل حبل المشنقة عن رقبتي، وما عاد لي أي أمل بالنجاة...

إلا إذا فتشوا عن القاتل...

إلا أنهم -في اعتقادهم- قد أوقعوا به...

❖❖ ❖❖ ❖❖

[13]

لحظة

كانت الدنيا كريمة معي...

ربما لأني لم أكن طامعة منها في الكثير...

أنا «بخيتة عربي محمد إبراهيم العارف» وتلك أولى مكارم دنياي، وُلدت في بيت آل العارف، بركة نجعنا الواقع بأطراف سوهاج، ومفخرته بين قرى ونجوع المركز، وسر صيته بطول المحافظة وعرضها، لجدي الأكبر مقام يهتف حوله المجاذيب، ويتمسَّح بجدرانه طالبين الفرج وراجين الرحمة، وتُحيَى ليلة مولده بحلقات الذِّكر وحضرة الدراويش.

يتوارث سلسالنا حمل الكتاب والسنة وإمامة الجامع الكبير، وبهم تُقام رأسنا وسط أكابر البلدة، كان أبي «الشيخ عربي» أقلهم مالًا وطينًا وأعزهم كرامة، كرسيه دائم في مجالسهم ومقامه محفوظ في نفوسهم، وأكبرهم لا يُحدثه إلا بصوت خفيض، ولا يُنادى إلا مسبوقًا بـ«مولانا»، وسيرته كانت رأس مال تجارة إخوتي وأخوالي.

أما ما رجوته من الدنيا حقًّا فاستحيت حتى من طلبه في صلواتي، وكلما مال إليه القلب استغفر عنه اللسان. كنت أراه من مَشرَبيَّتي يصد الريح بصدره الواسع، مندفعًا وسط الطرقات على صهوة حصان جامح، فيُعيد لذهني الحكايا التي رُويت لنا على الربابة في الصبا، هو الهلالي الذي

خرج بأهله من قحط نجد إلى خَضَار تونس، وعنترة الذي حارب جيشًا ليأتي محبوبته بمائة ناقة حمراء.

لكن سيرة «عابد القصاص» كانت مختلفة، ليس بها عدوان على أرض أو سلب بهائم، لم يكن يُذكَر اسمه إلا بالخير، ولا يُوصف إلا بأنه «زين شباب القصاصين»، وما يثير الارتياب كان اختتام تلك الأحاديث دومًا بأنه يختلف عن عائلته، يقولون ذلك كأنه الزاهد الوحيد بين الفُجَّار.

سمعت قصصًا كثيرة عن «القصاصين»، الخوض فيهم فاكهة كل جَمع من أهل البلدة، ورغم أن تلك القصص فيها ما فيها لم تخرج عن حَدِّ المألوف في بيئتنا، عائلة شجرتها وارفة، مَنَّ الله عليهم بالثروة والعزوة. والمال الوفير لا يجلب أكثر من الحاقدين، والحقد يولد العداءات، ومال «القصاصين» كان أكثر من أن يُحصى، امتلكوا ثلث أراضي الزمام، وهم أصحاب مزارع المواشي ومصنع السكر.

كأي قوم خرج فيهم الصالح والطالح، منهم «حماد القصاص» الذي صلب جائعًا على نخلة لسرقته حفنة من دقيق الطحين، وكان أحدهم المرحوم «عبد العزيز القصاص»، الذي رَمَّم الجامع بماله ويديه، وفتح نصف بيوت القرية بالأجور، ونصفها الآخر بالصدقات.

ارتبط ذكر «القصاصين» دائمًا بذكر «أولاد أبو جبل»، الثورين المتناطحين على أرضنا، يمتد صراعهما لخمسة أجيال، ويرضع صغارهم الكراهية من أثداء الأمهات. تختلف الروايات حسب راويها، إن سمعتها من أنصار الأول قالوا كرامًا أبناء كِرام يدافعون عن أنفسهم أمام نسل الغجر والمطاريد، وإن تحدث حلفاء الثاني قالوا عنهم أصحاب الأرض التي سطا عليها –رأس المَنسَر– القصاص الكبير، فتاهت الحقيقة وسط

أكاذيبهم، وضاع أصل الحكاية، أما ما لم يُختلف عليه فهو أن صُلح الجمعين -إن وقع- فسيكون من علامات الساعة!

دارت الأيام وجاءت أمي تهلل بالبشرى: «جالك عَدَلك»، طالما رهبت تلك اللحظة التي لم أشُك أبدًا في قدومها، فأنا الأخيرة بين بنات الشيخ «عربي عارف» الذي يتمنى الجميع مصاهرته. كان المطمئِن بالأمر أن ليس من شيَم أبي إكراه بناته على ما لا يرغبون، والمرعب أنه سيطلب تفسيرًا مقنعًا، لم أنطق أمامه يومًا بالكذب؛ لكن لكل شيء أولًا، وكل شيء أهون من إخباره بأن ذلك الشيء العالق بين ضلوعي قد مَسَّه عشق غريب لم يخاطبه لسان أو تتملَّى منه أعين.

نَحَّيت بصري وطأطأت رأسي، فحسِبَتْ أمي ذلك اليأس حياء، فأردفت قائلة إن الحاج «سليمان القصاص» زار أبي، وطلبني لابن شقيقه «عابد» ابن المرحوم «عبد العزيز». يصعب وصف الإحساس الذي غمرني مع قولها، فارتجفت به أوصالي، وفاضت عيناي بالدمع، وآمنت بأن لجدي «العارف» كرامات -كما يقولون- وأني المختارة من نسله لأرثها.

ألم أقل إن الدنيا كانت كريمة معي؟!، ليس الكرم في أنها حملت إلى بابي من هواه القلب بنظرات خاطفة عبر الشرفات، إنما الكرم في أنها من بين رجال الدنيا لم تدع القلب يتعلق بسواه. لم يكن «عابد» بديلًا لظل الحائط؛ بل كان شمسًا طلعت بسمائي، ونبتة أزهرت في أرضي، سترًا وسندًا، ودعوة استحت النفس منها، فلم تجرِ على اللسان، بلغت علام الغيوب فاستجابها وأَذِن لها أن تكون فكانت.

رغم شبابه كان سيدًا في أهله، صوته مسموع بينهم، في قوله حكمة، وفي فعله رحمة، يقصد دارنا كل من له طلب عالمًا أنه لن يُرَد خائبًا، كان حصن الناس من جور «القصاصين»، وحصن «القصاصين» من دعوات مظلومة تُعجل بالخراب.

رُزقنا «أسماء» و«منار» و«داليا» ولم يبدُ يومًا متلهفًا للولد، أو كان يكتم لهفته في نفسه ولا يُظهر منها شيئًا. أسمع همهمات الحريم وألمح تغامزهن حول بطني الشؤم التي لا تطرح صبيانًا، يتراهنَّ حول طول حبال صبره، ويتهامسن عن رغبة شقيقاته في تزويجه بأخرى، ثم يرجع فيقول باسمًا لعل الله لم يُقدره بعد، وقد لا يُقدره أبدًا، وأن ليس لنا من الأمر شيء غير الرضا بما كتب، وشكره على ما أنعم، وحمده على ما منع.

عرفت «عابد» صادقًا طوال سنين عشرتنا، ولم يكن ذلك كافيًا لتهدئة خوفي، خشيت أن توقع به ثرثرة النساء وغيرة الرجال، فيُخلف وعده بألا تكون لي شريكة به، وخشيت أن يتمسك به فيمسه الندم في كبره، ويأسف على الأوان الفائت.

بدأت علامات الحمل الأولى في الظهور عليَّ للمرة الرابعة، فلم أتوقف عن دعاء الله بأن يُشكِّل تلك النطفة الحَيَّة في داخلي ذكرًا، وبعد أشهر قلائل بلغتني إجابة الدعوة على لسان الطبيبة، وهي تُريني طلَّته الأولى على شاشة جهازها، فانتفض جسدي وسَرَت به رعشة والروح ترتد إليه، وفاض دمعي وأنا أنصت لدقات قلبه الصغير، وأهلل بالحمد والتكبير كما مجاذيب سيدي «العارف».

عدت للدار محمولة على نسائم الفرحة، أخبئ البشرى في نفسي ليكون «عابد» أول من يعلم، وأكون أول من يبلغه، وأول صوت يُناديه «أبو

فارس»، اعتزمت تسمية المولود بهذا، كالصورة التي رأيت أباه عليها بالمرة الأولى، وليكون فارسًا كما فرسان حواديت الأجداد، يبعثه القدر من قلب الظلمة ليأتي بالنهار، ويرد كيد الحاقدين والمتربصين للشماتة بنا.

عَلا صهيل «مرجانة» مُعلنة مجيء الفارس الكبير، فعقدت طرحتي حول رأسي وهرولت خطوات باتجاه الباب، ثم تذكرت الأمانة الكامنة بداخلي فتابعت سيري إليه هونًا، وخرجت فرأيت الفرسة تعبث بحافرها في الطين، يشوب نصوع بياضها خط أحمر رفيع قابض للقلوب، مددت بصري لما خلفها فرأيت فارسها مُلقى على الأرض.

هرعت إليه وجثوت إلى جواره، فرأيت السائل الأحمر اللزج ينساب بين أصابعه القابضة على جرح بجانب خصره، ألجمتني الصدمة، ومادت الأرض تحتي، ورأيت الدنيا من حولي تتهاوى. جرى كل ذلك في ثانية أو جزء منها، هممت بعدها بالنهوض لطلب النجدة، فأمسك رسغي بقبضة باردة ليُبقيني.

تكاثفت الدموع في عينيَّ، ومن خلفها رأيت شفاهًا تتحرك ببطء محاولة استجلاب صوت انحبس بداخله، ومَدَّ يده الأخرى يتلمس بأطرافها جانب وجهي تاركًا بصمات دمه على ملامحي، ولمعت عيناه ببريق عجيب، يخبرني مدى امتنانه للقدر الذي جعلني آخر نصيبه من الرؤى، ثم خبا البريق وتهاوت اليد، فدَوَّت الصرخة من أعماقي حارقة كل جزء مني في طريقها للفضاء... وعَمَّ الظلام الوجود.

مَنَع سيدي العارف مدده عني، وأدارت لي الدنيا وجهها الشحيح، مَرَّت ليالٍ طوال ثِقال لا أعرف عددها، لم تدخل جوفي كسرة خبز أو تبلل عروقي شربة ماء، وكان نومي فيها غفوات تنتزعني منها ذكرى

مُريعة لا يتوقف العقل عن استرجاعها، فتعتريني برودة قاتلة، لا يكسرها إلا إحساسي بدفء دم أغلى الناس على جانب وجهي.

انفرج شيء من الكرب حين علمت باجتماع رؤوس «القصاصين»، عصبيتهم التي كانت أكثر ما كرهته بهم باتت هي الملاذ والأمل، أيقنت أنهم لن يتركوا حقًّا لابن لهم يُهدر، وأن ذلك النجس -أيًّا كان- قد حكم شيطانه عليه بالموت حين أوعز إليه بسفك أطهر الدماء، وقضى باليُتم على البنات، وعلى الصبي الذي لم تتشكل ملامحه.

أشيع أن «سعيد ابن أبو جبل» هو من فعلها، ولم ينكرها، بل يتباهى بها بين الرجال في مقاهي الحشاشين على أطراف البلدة، فتأججت نار قلبي، وصرت أبيت وأصبح أنتظر إخمادها بجريان دمه عليها وأنا أمضغ كبده.

مَرَّ يوم تلو اليوم ولم أسمع خبرًا، حتى جاءني أبي ليعيد عليَّ كل ما علَّمني إياه، حدثني عن قضاء الله وحكمته الخفية منه ولطفه فيه وفضل الرضا به، ظن أبي أنه لا يزال يُحدِّث ملاكه الصغير الذي كان يُجلسه على فخذيه يلقنه التسابيح والأذكار، لم يكن قد أدرك بعد أن ذاك الملاك تلبَّسته روح شيطانية، فما عاد يرى كلما أغمض جفنه إلا شلالًا أحمر ينهمر على باطنه، ولم يجذبه من كلامه الكثير إلا آخره، حين قال إن «القصاصين» اتفقوا على قبول الصلح ومجيء «سعيد» إليهم حاملًا كفنه.

عَلا عويلي، ولطمت خدي، وضربت رأسي بالحائط، ولعنت الصغير والكبير منهم جهرًا، ولم يتغير شيء! كان «حماد القصاص» يقف وراء الأمر كله، وبعد غياب أعز الناس لم يعد هناك من يرد له كلمة أو يراجعه في رأي. انتوى ذلك الوضيع الترشح للانتخابات، فقدَّم دم ابن

عمه قربانًا ينال به رضا الحكومة، وتلقَّى ديته أصوات أولاد أبو جبل وتابعيهم.

تقلبت الأيام حتى جاءت بالجمعة المشؤوم، فرغ رجال البلدة من أداء الصلاة، ثم احتشدوا بالساحة الواسعة المواجهة لسراي الحاج «وهدان» -والد «حماد» وكبير «القصاصين»- ليشهدوا الساعة الموعودة، والنسوة حضرن منذ الفجر لإعداد الوليمة التي سيحضرها المأمور والعمدة ونائب المحافظ، وصدح صوت أحد المشايخ عبر مكبر الصوت، يشكر وأد الفتنة ويدعو بمباركة هذا الصُّلح، ولم يغفل عن الثناء على من بادر به وسعى إليه، مستهلًّا بقوله حملة «حماد القصاص» الانتخابية.

حَطَّ الذهول على النساء فأفقدهن النطق، أو لعل الشرر في نظراتي أرعبهن فكتمن الأنفاس، وجَمدن ككتل صماء تحجرت ملامحها على الوجوم، وأنا أشق طريقي وسطهن باتجاه الباب الكبير، وافية بنذري، مكسوة بالأبيض من خمار رأسي حتى نعليَّ.

ارتفعت تهليلات التكبير تخالطها جلجلة بعض الزغاريد، فعلمت أن الأمر انقضى والمراد تم. خرجت لتلك الجلبة، ووقفت وسط الجمع تحيطني همهمات غير مُفسَّرة، ودوي أعيرة نارية تُطلَق للفضاء مباركة وابتهاجًا، وبغتة أحكم الصمت قبضته، واعتلت الصدمة الوجود والدم يتفجر من بطن ذاك القاتل التَّعِس، ووجدوا «سعيد ابن أبو جبل» يتهاوى بين الأرجل.

أفاقهم من التيه طنين ارتطام طبنجة المرحوم بالأرض حين أفلتُّها من يدي، فأديرت إليَّ الأعناق، واتسعت الأعين وهي ترمق دخانًا أسودًا يتصاعد من فوهتها، وعندها ضجَّ السكون الثقيل بزغرودة أخيرة

شَيَّعتُ بها روحه إلى جهنم، ومعها اجتمع الموجودون من «آل العارف» أمامي، صانعين بأجسادهم درعًا حامية. انسلخت أقنعة التسامح عن الوجوه الكريهة اللائق بها العبوس، وقد علم أصحابها بأن نهر الدم الذي أرادوا ردمه برفات زوجي آن وقت فيضانه، ولن يسلم منه أحد.

جرى كل ذلك في لحظة... وانقضت!

لم ينبش «عابد» قبره وينهض منه نافضًا تراب الموت، لم تذهب غصة الحلق المريرة، ولم يُرأب صدع الروح الغائر. كان الفراغ الذي خلَّفه أعظم من أن يملأه زهق ألف روح خسيسة بعده.

أمهلني حملي بعض الوقت فأطال أمد عذابي، وأبقاني أستعيد اللحظة الأليمة مرة تلو الأخرى، بقلب أكثر اشتياقًا وعقل أكثر إدراكًا للتفاصيل. أخبروني بأنه سيؤذن بموتي بأول بكائه، وسيُقضى نحبي يوم يتم فطامه؛ لكنه سيبقى بعدي ليتمم ما بدأته.

سأدعه لـ«حماد القصاص»... ينشأ في بيته ويشب تحت عباءته.

ويكون له راعيًا كما كان فرعون لموسى...

وحتمًا سيدرك بيوم ما أن اسم «حماد»...

كان آخِر ما حاول أبوه لفظه...

❖❖ ❖❖ ❖❖

[14]

الوحش

وقفت طويلًا أمام ذلك الغريب، تأملت بتمعن جسده النحيل وهيئته الرثة، دققت النظر بقسمات وجهه وعظام وجنتيه البارزتين، له عينان سوداوان غائرتان في محجريهما، يفصلهما أنف مستقيم يمتد بين جبهة عريضة انحسر عنها الشعر قليلًا، وبين شارب كث يحفُّ شفتيه. بدا لي مثيرًا للشفقة، أهون من أن يرتكب جرمًا كهذا؛ لكنهم يقولون إنه فعل... ويقولون إنه أنا!

إن صدق قولهم وكنت هو، فأنا بالثالثة والأربعين من عمري، قالوا أيضًا إني كنت عاملًا بمجال المعمار، وهذا يتماشى مع نفور عروق ظهر كفَّيَّ وخشونة باطنهما. بدأت حياتي -كما أذكرها- قبل أسابيع قلائل، حين أَفَقت من سُبات طويل، أو هكذا ظننته، فتحت عيني على ضباب أبيض كثيف تتحرك في قلبه أطياف مموهة، وجوه مَسيحة بلا ملامح، يتردد في جنبات رأسي طنين مؤلم تخالطه همهمات غير مُفسرة.

تدريجيًّا صارت الأمور أكثر وضوحًا، انقشعت الغيوم فتبينت أني داخل عنبر أحد المستشفيات، عاملوها يهرولون بكل اتجاه كأنما تلاحقهم الشياطين، والتقطت آذاني كلمات متقطعة حول حافلة ركاب اصطدمت بشاحنة نقل بضائع على طريق الفيوم. صياح غاضب هنا واستغاثة مدوية هناك، غريزيًّا حاولت النهوض فأعاقتني يد مقيدة بالأصفاد إلى

قوائم الفراش، وردتني آلامي المُبرحة لوضعيتي الأولى. لماذا أنا المُقيَّد؟! رددت السؤال في نفسي، وجهلي بالإجابة قادني للسؤال الأكثر فزعًا: من أكون؟!

«جابر عبد الجليل محمود مرتضى»، أول كلمات جرت على لسان الضابط ولم تعنِ لي شيئًا، لاحقًا علمت أنه اسمي، وأني ضلَّلت الشرطة طيلة عامين، ثم أوقعتني الصدفة في قبضتهم، وبأعجوبة نجوت من الموت بالحادث لأموت مُعلَّقًا بمشنقة، قبل لحظات من حضورهم كنت مستعدًا لدفع عمري ثمنًا لمعرفة من أنا، ثم اكتشفت أني مدين به بالفعل!

أخبرتهم بأني لا أدري شيئًا، فظنوا أنها محاولة يائسة أخرى للمراوغة. أقسمت لهم فأثار قسمي السخرية، وأطلعوني على صورة سيدة ثلاثينية، تفيض ملامحها بطيبة وشقاء الطبقة الدنيا، تشكَّلت سُمرة بشرتها من حَرِّ النهار وتشققت من برد الليل، وانطفأ بريق عينيها من تكالب الهموم، وبدا فيهما حزن عميق لم تخفه ابتسامة اصطنعتها لأجل الصورة، وأخبروني أن تلك المسكينة تدعى «هالة السيد جعفر» وأنها ضحيتي.

يُكثر الناس الحديث عن المعاناة، يجدون راحتهم -وربما لذتهم- في ذكر الويلات ولوم الزمان ولعن تقلباته؛ لكن لا يحق لهم ذلك ما داموا لم يولدوا بعد عمر الأربعين، لم يصحوا من نومهم كأنهم لم يعيشوا على هذه الأرض يومًا من قبل، عقولهم صفحة بيضاء تلطخها أحبار تُكتب بها قصة حياة أخرى لم يعيشوها لشخص آخر لم يعرفوه، ويزداد الأمر سوءًا إذا كان هذا الشخص شيطانًا مريدًا مثل «جابر» هذا، لم يكن من الصعب التصديق بأنه أنا؛ بل التصديق بأن هناك شخصًا مثله من الأساس.

قصتهم لم تحتمل الشك، قبل أن ترويها ألسنتهم رأيتها مكتوبة على جسدي، ساق عرجاء إثر جرح لم يُعالج بشكل صحيح، وخنصر منقوص من الكف الأيسر، وندوب قديمة عجزت عن حصرها، وأثر حرق يمتد بطول الذراع الأيمن من أعلى الكتف إلى المرفق، جسد بالٍ يليق بشخص أفنى عُمره يُرَاذِل الآخرين، وقامت الحياة بألف حيلة لتتخلص منه ولم تفلح.

سنواتي التي لا أذكر منها يومًا روتها من تجرعت مرارتها لحظة بلحظة، امرأة ستينية تتشح السواد، جسمها على ضآلته يحوي أمراض الدنيا، ولن تقتلها إلا الحسرة التي في نظراتها. قالت -وهي الأدرى والأعلم- إنها أمي، عشت عمري في كنفها داخل جحر أسفل سلم بيت متهالك يتوسط حارة ضيقة تتفرع عن حارة أضيق، يفوح ترابها بعطن فضلات سُكانها، وتحدُّها مقالب النفايات. تركني أبي في ظُلمة رَحِمها ورحل، قالوا لها أغوته بائعة هوى فرافقها، وقالوا قتل شخصًا ما وسرقه ثم هرب، واختلقوا روايات أخرى ورددوها حتى صدقوها؛ لكن على كل حال كان وجوده عدمًا وغيابه رحمة، فلم تكترث، وكانت تقلباتي في بطنها كافية لتُسليها وتهون كل شيء.

أرادتني نبتة صالحة، ولم تعنِ إرادتها للقدر شيئًا، وطِيب نية الزارع لا يُصلح فساد التربة، فنَمَت زرعتها من قلب أرض مالحة وسط جو عاصف، كان السب واللعنات أول ما التقطته آذاني، فكانت أول ما نطق به اللسان، وخرجت للشارع فعلمت أن الحياة لا تستقيم إلا لمن يموت قلبه؛ فملأته سوادًا.

رأت كل أشكال الذل لتُلحقني بالمدرسة، فأخرجتني منها رعونتي بعد بضع سنين، فأرادت تعليمي حِرفة النقاشة لأقتات منها حلالًا،

وأجدتها بالفعل؛ لكن لم يطق أصحاب العمل أفعالي لأكثر من أشهر، وفي كل مرة لا يبقَ إلا الشارع لأعود إليه، حتى بات اسمي أول ما يتبادر لأذهان الشرطة كلما حَلَّت مصيبة، وأودعت السجن مرات، لحيازة المخدرات مرة، وللتعدي بالضرب مرة أخرى، ولم أهتم، في شَرْع حارتنا السابقة الجنائية تضفي على حاملها مهابة، لا تلحق به عارًا! وأخيرًا بلغتُ غاية طفولتي وصباي، وصارت سيرتي تروى كما الأساطير على المقاهي وفي أوكار المخدرات، واسمي وحده «جابر الوحش» كفيل بإخلاء شوارع كاملة من رجالها قبل النساء والأطفال.

أنصت لها ببصر مشدوه وقلب خافق وعقل مُلتهب تتمزق خلاياه بعجزه عن الاستيعاب، ذلك الآخر الذي تحدثت عنه شيطان سكن بدن إنس أو تشبَّه به ليحيا بين البشر مُتباهيًا بالدماء المُلطخة ليديه، فَرَض الإتاوات وأفرغ الجيوب غصبًا، وترك بصمة نصله على ألف وجه، ولم يجرؤ أحد على اتهامه كي لا يمتد النصل إلى الرقاب، حتى تلك التي أنجبته لم تسلم من أذاه، طالها لسانه السليط، وطالما أخرجها من مكمنها في برد الشتاء ليختلي على فراشها بفتيات شوارع يرتخين له اتقاءً لشره.

لو أن الأمر بيدي لأعدمته حرقًا ألف مرة؛ لكن كيف وهو لم يعد له وجود؟! لم يبقَ منه في الحياة سوى طيف، من الذي أجرم ليستحق العقاب؟! الروح أم النفس أم الجسد؟! ما نحن إلا كتلة من الذكريات، وحصيلة أيام وسنين مضت شَكَّلت طبائعنا وجعلتنا ما نحن عليه، فإذا ما فنت الذكرى فني الإنسان، ولو بقي قائمًا على قدمين حاملًا نفس الوجه القديم.

سألتها عن «هالة» التي قتلتُها كما يقولون، كيف عرفتها؟ وماذا اقترفت لتستحق الموت؟ فقالت إني لم أكن أعرفها وإنها لم تقترف شيئًا،

ثم عادت بالقصة لبدايتها. قالت إني كنت ذائع الصيت، ذِكر اسمي يُرجف القلوب، أجني مالًا وفيرًا عديم البركة فلم يتبدل حالنا؛ لكني كنت مغترًّا بتلك الحياة، ولم يُعكر صفوها إلا شخص واحد «فتحي الخواجة»، كنت أنا وهو وجهين لذات العملة، ضبعان يرتديان جلد الأسود ويتنازعان حكم الغابة.

أعلمتني بأن «الخواجة» هو من تسبب في بتر إصبعي، ولسنوات طوال كان كل منا يتلقى ضربة الآخر ولا يلبث حتى يردها، فيسترد كرامته ويحفظ هيبته، فكان لا بد من ضربة قاضية تُركع أحدنا للآخر وينتهي بها الصراع.

بإحدى الليالي أحرقت كمًّا لا بأس به من لفائف الحشيش، وأفرغت زجاجات من الخمر الرديء في جوفي، ثم حَضر شيطاني وحضرت معه الفكرة، طعنات البدن تشفَى وطعنات الشرف تبقى دامية، فقمت من مجلسي قاصدًا بيت «الخواجة» برفقة اثنين من أتباعي، أمرتهما بطيِّ السلاح وإشهار كاميرات هواتفهما المحمولة لتسجيل لحظة النصر.

اقتحمت الشقة فتعالى صراخ طفلين حملهما أول الرجلين لغرفة جانبية، وقابلت توسلات الزوجة الشابة بصفعة قضت على آمالها في أن تنال الرحمة، فانقلبت التوسلات صراخًا مستغيثًا، تردد صداه بالأنحاء، وسمعته كل أذن ولكنها لم تجِد مجيبًا، وداخل غرفة عدوي اللدود وأمام كاميرتي ارتخى جسدها في استسلام مغرٍ حتى فرغت منتشيًا بها وبالنصر العظيم، وحملت قطع ملابسها وألقيتها عبر الشرفة ليعلم الجميع بما وقع، والحاضر منهم يخبر الغائب.

عدت للداخل فكانت لا تزال على وضعها، عيناها جاحظتان فَاغِرة الفم، اقتربت منها فكانت لا تزال على وضعها، اقتربت منها فتأكد ظني، وعلمت بأن مقاومتها توقفت فقط بانقطاع أنفاسها. لا تدري أمي بقية القصة، ولن يدري بها أحد، ذلك الشخص وحده يعلم أين اختفى طوال هذه المدة، أو بالأحرى كان يعلم، أما كل ما تعرفه هي فهو أن أهالي المنطقة لفظوها من بينهم، وخرجت من بيتها تلاحقها لعنات الكبار وحجارة الصغار، وأن هذه المسكينة «هالة» كان قلبها مريضًا لم يحتمل جموحي فاختنق نبضه.

عند هذا الحدِّ انتهى الوقت المسموح للقائي بأمي، فأطالت النظر إليَّ والعسكري يلح عليها بالانصراف، وفاضت عيناها بالدمع فتساءلت إن كانت تعلم مثلي بأن هذه هي النظرة الأخيرة، فأجابت بأنها الأولى، وأنها الآن ترى في عيني الابن الذي طالما تمنته.

انتقلت بعدما شُفيت جروحي للسجن، وتأيَّد حكم الإعدام الصادر بحقي فشددوا عليَّ الحراسة، معذورون، فهم لا يعلمون بأن لا نية ولا طاقة لديَّ للهرب، لم يبقَ شيئًا أهرب إليه، هذا العالم الواسع لا أملك فيه أو منه شيئًا. استسلمت مُكرهًا لفكرة استحقاقي العقاب على ما لا أذكر، وأن الاسم المُلصق بي سيُخلد في الأرض بين شياطين الإنس؛ لكن ماذا عن السماء؟ من منَّا سيلقى الربَّ ويخضع لحسابه، أنا أم هو؟! ربما عليَّ التوبة؛ لكن كيف أتوب بلا ندم؟، وكيف أندم على ما لا أذكر أني فعلته؟!

أيام السجن رتيبة؛ خاصة لشخص مثلي، انتهى بالنسبة للحياة فانتهت بالنسبة له، شبح أبكم يتحدث بالإشارة ويجيب بالإماءات، يرقب في

صمت انسياب أيامه المعدودات من بين أصابعه، والناس كعادتهم يعز عليهم كفاية المرء لشره، تسربت قصتي إلى السجناء وسمعت أحدهم يتندر عليَّ، ولم أدرِ بكم الغضب الكامن فيَّ إلا وهم يجذبونني بعيدًا، وهو يصرخ كاتمًا بباطن كفه نزيف عين انطفأ نورها للأبد.

كان للدم المُقطَّر من طرف سبابتي معنى واحد...

لا يزال الوحش مختبئًا في جزء منِّي...

وعليهم الخلاص منه في أسرع وقت...

❖❖ ❖❖ ❖❖

[15]

هسيس الموتى

واحد من الناس...

أعيش وسطهم، أتناول أكلهم، أتزوج منهم، ولست مثلهم في شيء!

أنا المختار، الفريد، الوحيد الذي يصعد إلى طاولة الإعدام على قدمين ثابتتين، ويهبط منها بقلب نابض، حاملًا حكاياتها وراويها. أنا «جلاد القطاع» في ملف الخدمة وكشف الرواتب، و«البُعبع» في كل نفس أمارة، ولا يهم اسمي ما دُمت على كل الألسنة «عشماوي».

عُيِّنت قبل زمن طويل مساعدًا للشرطة، وظيفة لمُسماها هيبته، ولصاحبها مكانة بين البسطاء، وراتبها قد لا يغني عن السُّلف والمشاركة بالجمعيات وتعجُّل أول الشهر؛ لكنه يستر البيت ويربي الأولاد، وهذا حال الجميع.

أُخطرت بأن خدمتي ستكون في قطاع السجون، وتحديدًا سجن الاستئناف، وهناك رأيتها للمرة الأولى، حَبل غليظ مُدلًّى بالفراغ ينتهي بحلقة معقودة. يبعث الحبل برائحة غريبة، ولو أنصتَّ جيدًا لسمعتَ منه هسيسًا، كأنما يحتفظ بين فتلاته بجزء من كل روح أزهقها، كانت المشنقة تعلوها سقيفة زجاجية تنفذ منها ضياء الشمس فتحيطها بمخروط مُشِع،

وتلقي على الأرض ظلًّا لها، تتبعته بنظري فوجدته ينتهي بين قدميَّ راسمًا طريقي إليها، وهسيس الموتى يتعالى يدعوني للاقتراب.

تجمدت لحظات في موضعي، يغلفني سكون رهيب، أسمع فيه حبات العرق المُتصبب على جبيني تطن فوق الأرض، وبصعوبة بالغة حركت سيقاني المُتيبِّسة، وتراجعت إلى جوف الظِّلال المُعتمة، ولم أعد أقرب تلك البقعة المسكونة.

أوقفني مأمور السجن أمامه في وضعية الانتباه، وراح يقيس ببصره طولي الفارع وعرض منكبيَّ، ويُقدر بخبرته بأسي وشدتي، وتلاعبت بي الوساوس حينًا قبل أن يفصح عما في نفسه، وأخبرني بأني مُرشح للعمل معاونًا لـ«جلاد القطاع».

كنا نعلم أن «عشماوي» قد قارب سن المعاش، ولا بد أن يأتي من يرث عنه اللقب، ومثل الجميع تساءلت: «من يكون؟!» ولم أتخيل أبدًا أني الإجابة!

إن للمشانق إرادة، ويبدو أنها نافذة، لئن دعاك هسيس الأرواح الكامنة بها حتمًا ستُلبي ولو بعد حين، وقد كان، وبين ليلة وأخرى وفي ساعة متأخرة من الليل وجدتني أشق طريقي وسط أروقة السجن على هدى بقع ضوء صفراء تصنعها مصابيح باهتة تناثرت على أسقفها، ولا يخرق السكون المحيط إلا وقع خطواتي الرتيب، والهسيس يتعالى في أذنيَّ كلما تقدمت، وأصدر خشب أرضيتها زمجرة مرعبة وأنا أعتليها، واكتسحت برودة قارسة أصابعي وهي تلتف حول الحبل الذي سيسحق عنق أحدهم بعد ساعات، وعليَّ التأكد من أن يتم ذلك بالشكل الصحيح.

ليس في العمر أغلى من العمر نفسه، ولا نقطة ضعف للإنسان أكبر من الرغبة في العيش ليوم آخر، إذا فقد الأمل في ذلك استسلم لشياطينه وعاد لفطرته الوحشية. كان المحكوم عليه شابًّا ضئيلًا زادته سنوات السجن وهنًا، ورغم ذلك كان لا بد من مباغتته عند الفجر والانقضاض عليه في ساعة نومه، والمجيء به مُصفَّد الأيدي وراء ظهره، ليأمنوا شره وجنونه في لحظات يأسه الأخيرة.

تجري الأمور هنا وفق نظام صارم مُحكم ومُعقد، زهق روح شخص ما يتطلب كثيرًا من المُراسلات، وتوقيع عشرات الأوراق، وتذييلها بخاتم الجمهورية، وحضور لجنة من قادة الداخلية والطب الشرعي والأزهر أو الكنيسة وأحيانًا مبعوثي القنصليات، ونقضي نحن الليل في «تَصبِين» الحبل لجعل انزلاق حلقته سلسًا، وفحص تلك الذراع الآلية وتشحيمها، وضبط امتداد الحبل ليُناسب طول الشخص الموعود.

شهورًا من المداولات وأسابيع من الإجراءات وساعات من التجهيز، لأجل جزء من الثانية يُنهي حياة كاملة. يُسحَب الذراع فتنشق الأرض، وتتهشم فقرات الرقبة، ويتعالى الهسيس بصعود آخر إلى جموع الهامسين الطائفين بالفضاء!

يعجز الناس عن فهم معنى أن يكون القتل مهنة، وأن يصبح الموت طقسًا يوميًّا، ينضح كل شيء حولك برائحته، لحم أكتاف أبنائك النامي من خيره، وكل لُقيمة تدخلها جوفك، وكل قرش في جيبك، وحتى كل صدقة لوجه الله تخرجها ولو علم مُتلقيها من تكون لفَرَّ متشائمًا. أن تصاحب الأشباح وتسكن إليها، وحتى يبيت هسيسها في رأسك مؤنسًا من الوحدة، ورنين منبهك إذعانًا بمفارقة مزيد من الأرواح لأجسادها.

حين بدأ كل هذا تصورته مستحيلًا، وشردت كثيرًا مفكرًا في رَدِّ فعل رؤسائي حين أقف أمامهم عاجزًا عن سحب ذراع المشنقة؛ لكنه لم يكن بتلك الصعوبة، ومع الوقت صارت مجرد مهنة، اعتدتها وأتقنتها. وربما أحببتها، وهذا هو الأمر العُجاب.

القتل غريزة أساسية في نفوس البشر، عَلِم الملائكة -قبل كل شيء- أن سفك الدم أهون علينا وأحب إلينا من شقاء الاستخلاف في الأرض، جميعنا قتلة ولا يُستثنى من ذلك أحد، ما من إنسان لم يمارس القتل داخل رأسه ولو لمرة، لم يرَ نفسه يُفجر رأسًا أو يبتر عنقًا أو يخنق أنفاسًا، ويتصور الحياة بلا فلان وفلان، حتى أكثر دعائكم بالموت هو تحريض على القتل بأيدي القدر. أخس القتلة الجبناء.. أخس القتلة نحن.. الوحش رابض في صدر كل واحد منَّا، ينازع سلاسل الخوف الكابحة لجموحه، ينتظر الانفلات منها في ساعة غفلة يُعمى فيها البصر ويغيب العقل.

ترددون الأساطير حول البيوت المسكونة بالأرواح، وعودة أطياف القتلى للثأر من قاتليهم، لو كانوا حقًّا يفعلون ما كان لمهنتي وجود! لم نسمع عن شبح أشعل حربًا أو اغتصب طفلًا أو باع وطنًا بحفنة أوراق خضراء. كل من وقف أمامي فوق طاولة الإعدام كان مُرعبًا فقط والروح لا تزال كامنة فيه، وبسحب الذراع يستحيل مجرد كومة لحم تتأرجح بالفراغ لا خوف منها ولا ضرر.

تُبيد العادة كل رهبة، فصار لهسيس الموتى في أذنيَّ نعومة زقزقات العصافير، مألوفًا كنداءات بائعي الخُضر وصراخ المرأة بالطابق العلوي في وجه أطفالها، يضيع وسط أبواق السيارات، وتخبط أقراص الطاولة

بحواف صندوقها الخشبي، وشُباب رواد المقاهي أثناء مشاهدة المباريات، وكل ما تصخب به الحياة اليومية التي أخرج إليها بعد مغادرة العمل، وأنغمس بها متناسيًا ماذا يكون وما جرى به.

مجرد تعليمات تُنفَّذ وأوراق تُستَّف، وبعد أيام يُسقِط عقلي اسم الشخص الذي جاؤوا به، كما ينسى المُحصل الأسماء المدونة على الإيصالات، وكما لا يهم البائع من كان زبونه. الماضي لا يلاحقني، ولكن المستقبل يفعل أحيانًا كثيرة!

أُسدِل جفوني وأنجرف في سُبات، فأراني أشق صدري وأغوص به، أمتزج بخواء ظُلمته، أدور حول قلب صخري تتسارع نبضاته فتتسع شقوقه، تنضح منها نيران مُذابة تنساب على جدرانه، وتبعث شذراتها تُضيء الأرجاء بوهج مُلتهب، تكشف به عن شرايين جف بها الدم، متشابكة كأغصان مُتيبسة، تتدلى منها رؤوس مائلة إلى الزُّرقة، انصهرت شحومها وتجمدت ملامحها، عيونها بيضاء مُنطفئة البريق، أطوف بينها فيرتفع صوت الهسيس، يجذبني ذلك الرأس البعيد فأسبح قاطعًا الفراغ إليه لأجدني أواجه نفسي، ينتفض القلب الصخري ويتساقط منه الفُتات، فأهب من نومي مُرتجفًا، راقدًا في بحر العرق المُنهمر.

كتبت بيدي نقطة النهاية لمئات القصص، كان الوجوم آخِر ما اعتلى ملامح أصحابها، والندم آخِر ما نطقوا به، يخالون أنفسهم داخل كابوس مُرَوِّع، ستنقذهم منه لحظة صحو قبل أن يشتد الحبل بثِقل أجسامهم وتستحكم حلقته حول رقبتهم؛ لكنهم لا يصحُون أبدًا.. خاض كل منهم مسارًا مختلفًا، ولم يتخيل أيٌّ منهم النهاية التي يقود إليها.

فما يمنع أن أكون التالي؟

وما يمنع أن يكون أنت؟!

ونصير هسيسًا..

❖❖ ❖❖ ❖❖

الإسكندرية/ مصر

2024

الفهرس

إهداء........................ 5
1- هامش الدنيا 7
2- نسل الأبالسة 13
3- العنقاء........................... 31
4- ثالثهما الشيطان 43
5- وحتى تحترق القلوب.................... 53
6- عصا فرعون 61
7- لأجل ما سوف يكون 77
8- النداهة 89
9- دم ابن يعقوب 105
10- أسكارس 125
11- الشيطان يروي القصة 145
12- إلا إذا... إلا أن..................... 165
13- لحظة........................ 173
14- الوحش 181
15- هسيس الموتى 189